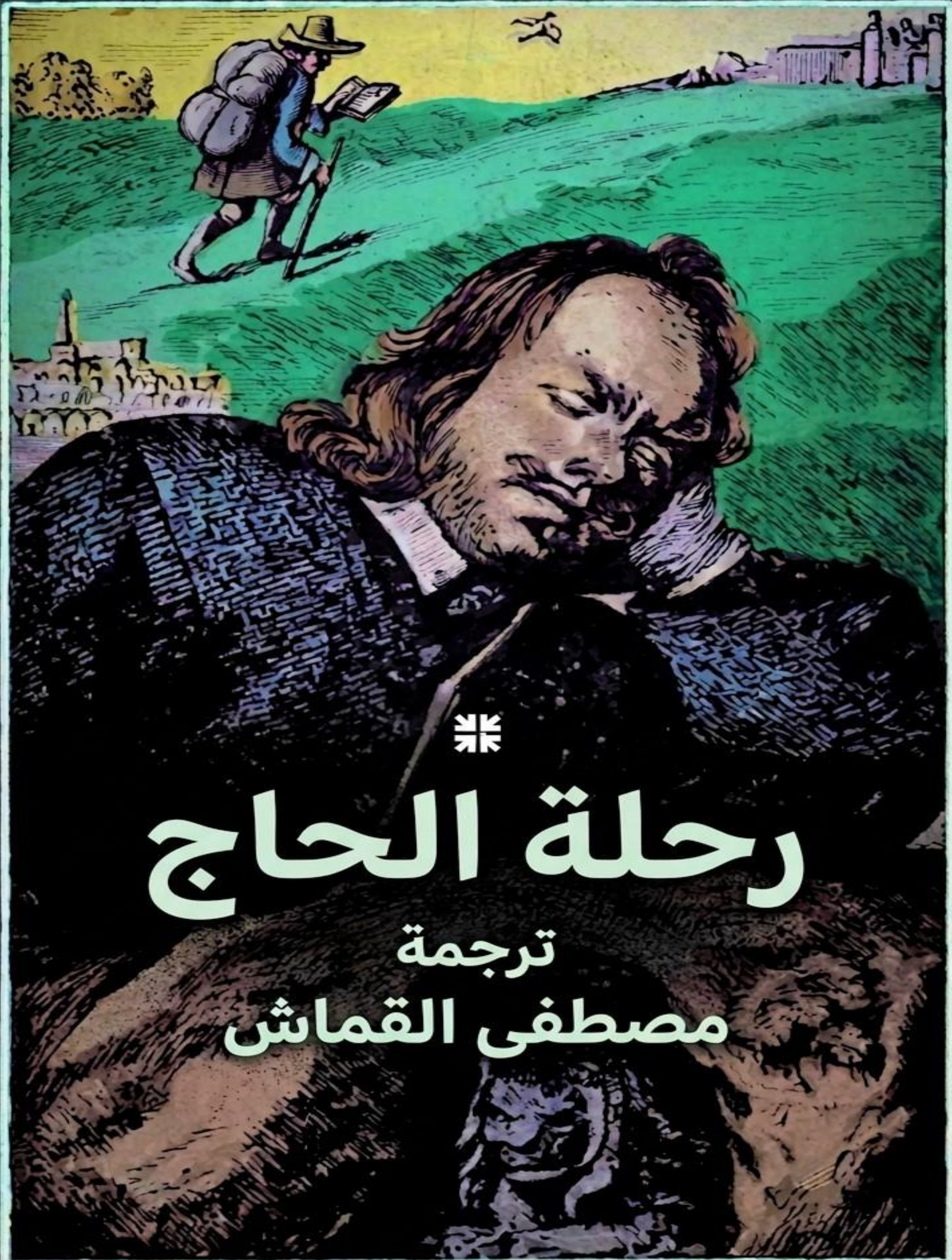

رحلة الحاج
ترجمة
مصطفى القماش

رحلة الحاج

جون بنيان

ترجمة

مصطفى القماش

مقدمة

لعلّ سردًا موجزًا لحياة بونيان يُضفي مزيدًا من التشويق على كتابه. وُلد جون بونيان عام ١٦٢٨ في إلستو، وهي قرية صغيرة قرب بيدفورد، الواقعة في قلب إنجلترا. كان والده رجلًا فقيرًا، يجوب الأرض سيرًا على الأقدام لإصلاح الأواني والأثاث البسيط لمطابخ الريف، وسار الابن على خطاه، وكان يُعرف بـ"صانع الأدوات". يروي لنا أنه عاش حياةً صاخبة، واشتهر بكونه من أكثر سكان المنطقة استخدامًا للشتائم.

عندما اندلعت الحرب الأهلية الكبرى في إنجلترا عام 1642 بين الملك تشارلز الأول والبرلمان، انضم بونيان إلى صفوف الكومنولث، وهو الاسم الذي كان يُطلق على الحزب المعارض للملك. وخدم في الجيش بين عامي 1644 و1646.

في عام ١٦٤٨، في سن العشرين، تزوج من امرأة صالحة، قادته إلى الصلاة وحياة جديدة. لكن كان من الصعب على من عاش حياة كهذه أن يتوب إلى الله، وقد كلفه ذلك صراعًا مريرًا. بدا له أن ذنوبه الماضية أثقلت كاهله، كما وصف نفسه لاحقًا في كتاباته عن "رحلته الروحية"، ولم يجد السلام إلا بعد حين.

انضم إلى جمعية معمدانية صغيرة، وسرعان ما بدأ بالوعظ. توافدت الجماهير للاستماع إليه، مفتونةً بروحه الجادة وأسلوبه المميز. ولكن عندما اعتلى تشارلز الثاني العرش، مُنعت جميع الشعائر الدينية باستثناء تلك التابعة لكنيسة إنجلترا، وحُظرت جميع الاجتماعات الأخرى. مع ذلك، استمر بونيان في الوعظ حتى سُجن في بيدفورد، حيث مكث اثنتي عشرة سنة. ولتأمين معيشته في السجن، صنع الدانتيل وباعه لإعالة نفسه وابنته الكفيفة.

إذا كانت تجربة السجن قاسية على بونيان، فقد تحولت معاناته إلى نعمة لملايين لا تُحصى، إذ كتب أثناء وجوده في سجن بيدفورد "تقدم الحجاج". كانت هذه القصة بمثابة مثل، كغيرها من تعاليم مخلصنا؛ أي أنها صاغت في قالب قصة حياة من يتوب عن الخطيئة، وينال الخلاص بالمسيح، ويشق طريقه في هذه الدنيا نحو السماء رغم الصعاب الكثيرة. حتى الطفل الذي يقرأ الكتاب أو يستمع إليه سيفهم هذا المعنى جزئيًا، وسيزداد فهمه له مع تقدمه في السن.

في عام ١٦٧٢، أُطلق سراح بونيان، وسُمح له باستئناف عمله كقسيس معمداني، وسرعان ما أصبح من أشهر الوعاظ في

إنجلترا. توفي فجأة عام ١٦٨٨، عن عمر يناهز الستين عامًا، ودُفن في مقبرة قديمة تقع الآن بالقرب من مركز لندن، تُعرف باسم مقبرة بانهيل فيلدز. في نفس المقبرة، يرقد كاتب عظيم آخر، هو دانيال ديفو، صاحب رواية "روبنسون كروزو" التي تُعدّ من أشهر الكتب بعد "تقدم الحجاج"؛ وكذلك إسحاق واتس، مؤلف العديد من الترانيم التي تُغنى في جميع الكنائس، والسيدة سوزانا ويسلي، والدة جون ويسلي العظيم. أربعة أشخاص تركوا بصمة عميقة في العالم، يرقدون جميعًا في هذه المقبرة الصغيرة في لندن.

جيسي ليمان هورلبوت.

الجزء الأول

الفصل الأول

بينما كنت أسير في برية هذا العالم، عثرت على مكان فيه كهف، فاستلقيت فيه لأنام؛ وبينما كنت نائماً، حلمت حلماً. حلمت، وإذا بي أرى رجلاً يرتدي أسمالاً، واقفاً في مكان ما، وجهه من بيته، وكتاب في يده، وحمل ثقيل على ظهره. نظرت، فرأيته يفتح الكتاب ويقرأ فيه؛ وبينما هو يقرأ، بكى وارتجف؛ ولما لم يعد قادراً على كتمان دموعه، انفجر بصراخ حزين قائلاً: "ماذا أفعل؟"

في هذه المحنة، عاد إلى بيته، وكتم نفسه قدر استطاعته حتى لا تدرك زوجته وأولاده حزنه؛ لكنه لم يستطع الصمت طويلًا، فقد ازدادت معاناته. ولذلك، أفصح أخيرًا عن مكنون قلبه لزوجته وأولاده، وبدأ يخاطبهم قائلًا: "يا زوجتي العزيزة، يا أولادي الأعزاء، أنا صديقكم العزيز، أعاني من ثقلٍ كبيرٍ يثقل كاهلي؛ بل قيل لي يقينًا أن مدينتنا ستحترق بنارٍ من السماء؛ وفي هذا الهلاك الرهيب، سأهلك أنا وأنتِ يا زوجتي وأنتم يا صغاري الأعزاء هلاكًا مروعًا، ما لم نجد سبيلًا للنجاة." عندئذٍ، ذُهل جميع أفراد عائلته دهشةً شديدة؛ ليس لأنهم صدقوا ما قاله، بل لأنهم ظنوا أن جنونًا قد أصابه. لذلك، ومع اقتراب الليل، وأملهم أن يُهدئ النوم عقله، سارعوا إلى إدخاله الفراش. لكن الليل كان مُرهقًا له كالنهار؛ ولذلك، بدلًا من النوم، أمضاه في التنهدات والدموع. حتى إذا أشرق الصباح، عرفوا حاله. أخبرهم أن حاله يزداد سوءًا. حاول التحدث إليهم مجددًا، لكنهم بدأوا يُقسّون قلبهم. ظنوا أيضًا أنهم سيُطردون جنونه بمعاملته بقسوة وفظاظة: فكانوا يسخرون منه أحيانًا، ويوبخونه أحيانًا أخرى، وأحيانًا أخرى...

لقد أهمله تماماً. ولذلك بدأ ينعزل في غرفته، يصلي من أجلهم ويشفق عليهم، ويحزن أيضاً على بؤسه؛ وكان يسير وحيداً في الحقول ، يقرأ أحياناً ويصلي أحياناً أخرى؛ وهكذا أمضى أياماً عديدة.

معاناة كريستيان النفسية

رأيت ذات مرة، بينما كان يسير في الحقول، أنه كان (كما كان معتاداً) يقرأ في كتابه، وكان يعاني من ضيق شديد في نفسه؛ وبينما كان يقرأ، انفجر كما فعل من قبل، صارخاً: "ماذا أفعل لأنجو؟"

رأيتُ أيضاً أنه كان ينظر يميناً ويساراً، وكأنه على وشك الركض؛ لكنه ظل واقفاً، لأنه (كما فهمتُ) لم يكن يعرف أي طريق يسلك. ثم نظرتُ، فرأيتُ رجلاً يُدعى إيفانجيليست قادماً إليه، فسأله: "لماذا تبكي؟"

فأجاب: "سيدي، قرأت في الكتاب الذي بين يدي أنني محكوم عليّ بالموت، وبعد ذلك بالمحاكمة؛ وأجد أنني لست راغباً في فعل الأول، ولا قادراً على فعل الثاني".

ثم قال الإنجيلي: "لماذا لا ترغب في الموت، وهذه الحياة مليئة بالشرور؟" فأجاب الرجل: "لأنني أخشى أن هذا العبء الذي على ظهري سيُغرقني إلى ما هو أدنى من القبر، فأقع في ضلال الموت. يا سيدي، إن لم أكن أهلاً لدخول السجن، فلن أكون أهلاً للمحاكمة، ومن ثم للموت؛ وهذه الأفكار تُبكيني."

فقال المبشر: "إذا كانت هذه حالتك، فلماذا تقف ساكناً؟"

فأجاب: "لأني لا أعرف إلى أين أذهب". ثم أعطاه لفافة من الرق، وكان مكتوباً بداخلها: "اهرب من الغضب الآتي".

فقرأ الرجل ما جاء في رؤياه، ونظر إلى الإنجيلي بتمعن، ثم قال: "إلى أين أهرب؟" فقال الإنجيلي (مشيرًا بإصبعه إلى حقل واسع): "أترى تلك البوابة الصغيرة؟" فأجاب الرجل: "لا". فقال الإنجيلي: "أترى ذلك النور الساطع؟" فقال الرجل: "أظن ذلك". فقال الإنجيلي: "أبقِ ذلك النور في عينيك، واصعد إليه مباشرة؛ عندها سترى البوابةَ؛ وعندما تطرقها، سيُخبرك أحدهم بما عليك فعله". فرأيت في منامي أن الرجل بدأ يركض. ولما لم يبتعد كثيرًا عن بابه، رأته زوجته وأولاده، فبدأوا يصرخون خلفه ليعود؛ لكن الرجل وضع أصابعه في أذنيه، وركض وهو يصيح: "حياة! حياة! حياة أبدية!" فلم يلتفت خلفه، بل هرب نحو وسط السهل.

يفر كريستيان من المدينة

خرج الجيران أيضًا لمشاهدته وهو يركض؛ وبينما كان يركض، سخر منه بعضهم، وهدده آخرون، وصاح بعضهم خلفه مطالبين إياه بالعودة؛ وكان من بين الهاربين اثنان عزما على إعادته بالقوة. كان اسم أحدهما عنيدًا، واسم الآخر لينًا. في ذلك الوقت، كان الرجل قد ابتعد عنهما مسافة لا بأس بها؛ ومع ذلك، فقد عزما على مطاردته، وهو ما فعلاه، وبعد وقت قصير أدركاه. فقال الرجل: "أيها الجيران، لماذا جئتم؟" قالوا: "لنقنعك بالعودة معنا." لكنه قال: "هذا مستحيل! أنتم تسكنون في مدينة الخراب، المكان الذي ولدت فيه أيضًا: أرى ذلك؛ وإذا متّم هناك، عاجلًا أم آجلًا، فستنزلون إلى ما هو أدنى من القبر، إلى مكان يحترق بالنار والكبريت. ارضوا أيها الجيران الطيبون، واذهبوا معي."

أوبستينيت : "ماذا! ونترك أصدقاءنا ووسائل راحتنا وراءنا؟"

كـريس. قـال كريسـتيان (لأن هـذا كـان اسـمه): "نعـم، لأن كـل مـا تتخلـى عنـه لا يُقـارن بقليـل ممـا أسـعى للاسـتمتاع بـه؛ وإذا وافقتنـي، وتمسـكت بـه، فسـتكون حالـك كحـالي؛ لأن هنـاك، حيـث أذهـب، مـا يكفي ويزيد. تعال واختبر كلامي."

أوبسـت. مـا هـي الأشـياء التـي تبحـث عنهـا، بمـا أنـك تتـرك العـالم كلـه لتجدها؟

كـريس، أبحـث عـن مكـان لا يُـدمر، مكـان طـاهر لا يـزول، محفـوظ فـي السـماء، آمـن هنـاك، ليُمـنح فـي الوقـت المُحـدد لمـن يطلبـه بكـل قلبـه. اقرأه هكذا، إن شئت، في كتابي.

: "هراء! خذ كتابك بعيدًا؛ هل ستعود معنا أم لا؟"

كـريس: "لا، لـيس أنـا،" قـال الآخـر، "لأننـي وضـعت يـدي علـى المحراث."

أوبسـت. هيـا إذن يـا جارنـا المـرن، لنعـد أدراجنـا ونعـود إلـى المنـزل بدونـه: فهنـاك مجموعـة مـن هـؤلاء الحمقـى ذوي العقـول المجنونـة، الـذين عنـدما يـروق لهـم شـيء مـا فـي النهايـة، يكونـون فـي نظـر أنفسهم أكثر حكمة من سبعة رجال قادرين على تقديم منطق.

بليابيـل : "لا تسـبّ؛ إذا كـان مـا يقولـه المسـيحي الصـالح صـحيحًا، فـإن الأشـياء التـي يعتنـي بهـا أفضـل مـن الأشـياء التـي نهـتم بهـا؛ قلبـي يميل إلى الذهاب مع جاري".

أوبسـت. مـاذا! المزيـد مـن الحمقـى؟ اخضـعوا لـي، وارجعـوا؛ مـن يـدري إلـى أيـن سـيقودكم مثـل هـذا المختـل عقليـاً؟ ارجعـوا، ارجعـوا، وكونوا حكماء.

كـريس: كـلا، بـل تعـال مـع جـارك المـرن؛ فهنـاك أمـورٌ كثيـرةٌ سـتُنال ممـا ذكرتُـه، وأكثـر مـن ذلـك بكثيـر. إن لـم تُصـدّقني، فـاقرأ هنـا فـي هـذا الكتاب؛ ولتُدرك صدق ما فيه، انظر، كل شيءٍ مصنوعٌ بدم خالقه.

المـرن : "حسـنًا يـا جـاري العنيـد، لقـد بـدأت أصـل إلـى نقطـة معينـة؛ أنـوي أن أسـير مـع هـذا الرجـل الطيـب، وأن أختـار مصـيري معـه. ولكـن يـا رفيقـي العزيـز، هـل تعـرف الطريـق إلـى هـذا المكـان المنشود؟"

كـريس. لقـد وجهنـي رجـل اسـمه إيفانجيليسـت، أن أسـرع بـي إلـى بوابة صغيرة أمامنا، حيث سنتلقى إرشادات حول الطريق.

بلي: هيا بنا يا جارنا الطيب، لنذهب. ثم ذهبا معًا.

"وسأعود إلى مكاني"، قال أوبستينيت؛ "لن أكون رفيقاً لمثل هؤلاء الرفاق المضللين والخياليين".

رأيت في حلمي أنه عندما عاد أوبستينيت، ذهب كريستيان وبلايبل يتحدثان عبر السهل؛ وهكذا بدآ:

مناقشات مع مرن

كريس. تعال يا جارنا المرن، كيف حالك؟ أنا سعيد لأنك اقتنعت بمرافقتي. حتى لو شعر أوبستينيت نفسه بما شعرت به من قوى وأهوال ما لم يُرَ بعد، لما كان ليتخلى عنا بهذه السهولة.

بلي. تعال يا جاري كريستيان، بما أنه لا يوجد أحد هنا سوانا، أخبرني الآن ما هي الأشياء، وكيف يمكن الاستمتاع بها، وإلى أين نحن ذاهبون.

كريس. أستطيع أن أفهمها بعقلي بشكل أفضل من أن أتحدث عنها بلساني؛ ولكن بما أنك ترغب في معرفتها، فسأقرأ عنها في كتابي.

بلي. وهل تعتقد أن كلمات كتابك صحيحة بالتأكيد؟

كريس: نعم، حقاً؛ لأنه صنعه من لا يكذب.

كلامك صحيح؛ ما هي تلك الأشياء؟

كريس. هناك ملكوت لا نهاية له يمكن الاستمتاع به، وحياة أبدية تُمنح لنا، حتى نتمكن من العيش في ذلك الملكوت إلى الأبد.

كلامك صحيح؛ وماذا أيضاً؟

كريس. هناك تيجان مجد ستمنح لنا، وملابس ستجعلنا نتألق كالشمس في السماء.

بلي. هذا ممتع للغاية؛ وماذا أيضاً؟

كريس. لن يكون هناك بكاء ولا حزن بعد الآن؛ لأن صاحب المكان سيمسح كل الدموع من أعيننا.

بلي. وما هي الشركة التي سنختارها هناك؟

كريس. هناك سنكون مع السرافيم والكروبيم، مخلوقات ستبهر أعينكم بجمالها. هناك أيضًا ستلتقون بآلاف وعشرات الآلاف ممن سبقونا إلى ذلك المكان؛ لا أحد منهم مؤذٍ، بل جميعهم محبون وقديسون؛ يسيرون جميعًا في حضرة الله، ويقفون في حضنه بقبول أبدي. باختصار، هناك سنرى الشيوخ بتيجانهم الذهبية؛ هناك سنرى النساء القديسات بقيثاراتهن الذهبية؛ هناك سنرى

رجالًا مزقتهم الدنيا إربًا، وأحرقتهم النيران، وأُكلوا من الوحوش، وغرقوا في البحار، من أجل حبهم لرب المكان، جميعهم بخير، وقد لبسوا الحياة الأبدية كثوب.

يكفي سماع هذا لإسعاد القلب. ولكن هل هذه الأشياء جديرة بالاستمتاع؟ وكيف لنا أن نكون شركاء فيها ؟

كريس. لقد كتب الرب، حاكم البلاد، ذلك في هذا الكتاب؛ وخلاصته هي: إذا كنا راغبين حقًا في الحصول عليه، فسوف يمنحه لنا مجانًا.

بلي. حسنًا يا رفيقي العزيز، يسعدني أن أسمع هذه الأمور؛ هيا بنا، لنسرع الخطى.

كريس. لا أستطيع السير بالسرعة التي أرغب بها، بسبب هذا العبء الذي يقع على ظهري.

مستنقع اليأس

رأيتُ في حلمي أنه ما إن انتهيا من حديثهما حتى اقتربا من مستنقع موحل في وسط السهل، فسقطا فيه فجأةً لغفلتهما. وكان اسم المستنقع "اليأس". فظلا يتقلبان فيه لبعض الوقت، وقد تلطخا بالوحل، وبدأ كريستيان يغرق في الوحل بسبب الحمل الذي كان على ظهره.

المرن : "آه! أين أنت الآن يا جاري كريستيان؟"

كريس: "بصراحة،" قال كريستيان، "لا أعرف."

ثم خاض صراعًا يائسًا، وخرج من الوحل على ذلك الجانب من المستنقع المجاور لمنزله، ثم انصرف، ولم يره كريستيان بعد ذلك.

لذلك تُرك كريستيان يتخبط وحيدًا في مستنقع اليأس؛ لكنه مع ذلك حاول أن يكافح للوصول إلى ذلك الجانب من المستنقع الأبعد عن منزله، والمجاور للبوابة الصغيرة؛ والتي وصل إليها لكنه لم يستطع الخروج بسبب الحمل الذي كان على ظهره؛ لكنني رأيت في حلمي رجلاً جاء إليه اسمه المساعدة، وسأله: ماذا تفعل هناك؟

: "يا سيدي، لقد أمرني رجل يُدعى إيفانجيليست بالذهاب إلى هذا الطريق، وأرشدني أيضًا إلى تلك البوابة، حتى أتمكن من النجاة من الغضب القادم؛ وبينما كنت ذاهبًا إلى هناك، وقعت هنا."

أرجو المساعدة. لكن لماذا لم تبحث عن الخطوات؟

كـريس. لقـد لاحقنـي الخـوف بشـدة، لدرجـة أننـي هربـت فـي الاتجـاه التالي وسقطت في الماء.

أعطنـي يـدك". فأعطـاه يـده، وسـحبه، وأوقفـه علـى أرض صـلبة، وأمره أن يمضي في طريقه.

ثـم تقـدمتُ نحـو مـن أخرجـه مـن هنـا، وقلـت: "يـا سـيدي، لمـاذا، بمـا أن الطريـق مـن مدينـة الخـراب إلـى تلـك البوابـة يمـر عبـر هـذا المكـان، ألا يُصلح هـذا المكـان حتـى يـتمكن المسـافرون الفقـراء مـن الـذهاب إلـى هنـاك بأمـان أكبـر؟" فقـال لـي: "هـذا المسـتنقع الموحـل مكـان لا يمكـن إصـلاحه؛ إنـه المـنخفض الـذي تجـري فيـه القـاذورات والأوسـاخ التـي تصـاحب الشـعور بالخطيئـة باسـتمرار، ولـذلك يُسـمى مسـتنقع اليـأس؛ لأنـه كلمـا اسـتيقظ الخـاطئ علـى حالتـه الضـائعة، تنشـأ فـي نفسـه مخـاوف وشـكوك وهلـع كثيـرة، تتجمـع كلهـا وتسـتقر فـي هـذا المكان؛ وهذا هو سبب سوء حالة الأرض."

"لـيس مـن دواعـي سـرور الملـك أن يبقـى هـذا المكـان علـى هـذه الحـال مـن السـوء. كمـا أن عمالـه، بتوجيـه مـن مسـاحي جلالتـه، يعملـون منـذ حـوالي ألـف وسـتمائة عـام علـى هـذه البقعـة مـن الأرض، لعلهـا كانـت قابلـة للإصـلاح؛ بـل علـى حـد علمـي،" قـال، "لقـد ابتلعـت هنـا مـا لا يقـل عـن عشـرين ألـف عربـة محملـة، بـل ملايـين، مـن التعـاليم المفيـدة، التـي جُلبـت علـى مـدار العـام مـن جميـع أنحـاء أراضـي الملـك (ويقـول العـارفون إنهـا أفضـل المـواد لجعـل المكـان أرضًـا صـالحة للزراعـة)، لعلهـا كانـت قابلـة للإصـلاح؛ لكنهـا لا تـزال مسـتنقع اليـأس، وستبقى كذلك عندما يبذلون قصارى جهدهم."

"صـحيح أن هنـاك، بتوجيـه مـن واضـع الشـريعة، درجـات جيـدة ومتينـة، موضـوعة حتـى فـي وسـط هـذا المسـتنقع؛ ولكـن فـي مثـل هـذا الوقـت الـذي يقـذف فيـه هـذا المكـان الكثيـر مـن قذارتـه، كمـا يفعـل عنـد تغيـر الطقـس، بالكـاد تُـرى هـذه الـدرجات؛ أو إذا كانـت موجـودة، فـإن النـاس، بسـبب دوار رؤوسـهم، يتنحـون جانبـاً، ثـم يغوصـون فـي الوحـل للوصـول إلـى هـدفهم، علـى الـرغم مـن وجـود الـدرجات؛ لكـن الأرض جيدة عندما يدخلون من البوابة."

رأيـتُ فـي منـامي أن بليابـل قـد عـاد إلـى منزلـه. فجـاء جيرانـه لزيارتـه، فوصـفه بعضـهم بـالحكيم لعودتـه، ووصـفه آخـرون بـالأحمق لمخاطرتـه بنفسـه مـع كريسـتيان، بينمـا سـخر غيـرهم مـن جبنـه قـائلين: "لـو كنـتُ مكانـك لمـا تهاونـتُ فـي مثـل هـذه الأمـور، لمـا تهاونـتُ فـي مواجهـة بعـض الصـعوبات". فجلـس بليابـل مختبئًـا بيـنهم. لكنـه اسـتعاد ثقتـه بنفسـه فـي النهايـة، فـانقلبوا عليـه جميعًـا، وبـدأوا يـذمون كريسـتيان المسـكين مـن وراء ظهـره. هـذا مـا حـدث مـع بليابل.

نصيحة الحكيم الدنيوي

بينما كان كريستيان يسير وحيدًا، لمح من بعيد رجلاً يعبر الحقل للقائه، وصادف أن التقيا لحظة عبورهما الطريق. كان اسم الرجل الذي قابله السيد الحكيم الدنيوي، وكان يسكن في بلدة السياسة الجسدية، وهي بلدة كبيرة جدًا، وتقع بالقرب من مسقط رأس كريستيان. ولما التقى هذا الرجل بكريستيان، وسمع عنه (إذ انتشر خبر رحيل كريستيان من مدينة الدمار على نطاق واسع، ليس فقط في بلدته، بل أصبح حديث الناس في أماكن أخرى أيضًا)، ظن السيد الحكيم الدنيوي أنه يعرفه من خلال مسيره الشاق، وملاحظة أنينه وتأوهاته، وما شابه ذلك، فبدأ بالحديث مع كريستيان.

يا عالم، كيف حالك الآن أيها الرفيق الطيب! إلى أين ستذهب بعد هذا الأسلوب المثقل؟

كريس. يا له من عبء ثقيل، كما أظن أن المسكين كان دائمًا! أما سؤالك لي: إلى أين أذهب؟ فأقول لك يا سيدي، أنا ذاهب إلى تلك البوابة الصغيرة أمامي؛ لأنني، كما أُخبرت، سأجد هناك سبيلًا للتخلص من عبئي الثقيل.

يا عالم، هل لديك زوجة وأطفال؟

كريس. نعم؛ لكنني مثقل بهذا العبء لدرجة أنني لا أستطيع الاستمتاع بها كما في السابق؛ أعتقد أنني كما لو لم يكن لدي أي متعة.

أيها العالم، هل ستصغي إليّ إذا قدمت لك نصيحة؟

كريس. إذا كان الأمر *جيدًا* ، فسأفعل؛ لأنني بحاجة إلى نصيحة جيدة.

أيها العالم ، أنصحك إذن بأن تتخلص من عبئك بأسرع وقت ممكن؛ لأنك لن تستقر في ذهنك حتى ذلك الحين؛ ولن تتمكن من التمتع بالنعم التي أنعم الله بها عليك حتى ذلك الحين.

كريس. هذا ما أسعى إليه، حتى التخلص من هذا العبء الثقيل؛ لكنني لا أستطيع التخلص منه بنفسي؛ ولا يوجد رجل في بلدنا يستطيع أن يخففه عن كاهلي؛ لذلك أنا ذاهب في هذا الطريق، كما أخبرتك، حتى أتخلص من عبئي.

يا عالم، من أمرك بالذهاب إلى هذا الطريق للتخلص من عبئك؟

كريس. رجل بدا لي أنه شخص عظيم ومحترم للغاية؛ اسمه، كما أتذكر، هو المبشر.

أيها العالم، ألعنه على نصيحته! ليس هناك طريقٌ أشدّ خطورةً ومتاعبَ في العالم من الطريق الذي أرشدك إليه، وستكتشف ذلك بنفسك إن اتبعت نصيحته. لقد واجهتَ بعضَ المصاعب، كما أرى، فأنا أرى آثارَ اليأس تغمرك، ولكن هذا اليأس ليس إلا بدايةَ الأحزان التي تُلازم من يسلك هذا الدرب. اسمعني جيدًا: أنا أكبرُ منك سنًا، ومن المُرجّح أن تُواجِه في طريقك هذا العناءَ والألمَ والجوعَ والمخاطرَ والعُريَّ والسيفَ والأسودَ والتنانينَ والظلامَ، وباختصار، الموتَ، وغير ذلك. هذه حقائقٌ لا شكّ فيها، وقد أثبتتها أقوالُ كثيرين. فلماذا يُعرّض المرءُ نفسه للخطر بهذه السهولة، مُنصتًا إلى غريب؟

كريس. يا سيدي، إن هذا العبء الذي على ظهري أشد وطأة علي من كل هذه الأشياء التي ذكرتها؛ بل أعتقد أنني لا أبالي بما أواجهه في الطريق، إذا كان بإمكاني أيضاً أن أواجه الخلاص من عبئي.

يا عالم، كيف أتيت بالعبء في البداية؟

كريس. من خلال قراءة هذا الكتاب الذي بين يدي.

أيها العالم. ظننت ذلك. وقد حدث لك ما حدث لغيرك من الضعفاء، الذين يتدخلون في أمور تفوق قدراتهم، فيقعون فجأة في أفكارك المجنونة، التي لا تُضعف الرجال فحسب، كما أرى أنها فعلت بك، بل تدفعهم إلى بذل جهود يائسة للحصول على ما لا يعلمون.

كريس. أعرف ما سأحصل عليه؛ إنه تخفيف لعبئي الثقيل.

أيها العالم، لماذا تسعى للراحة بهذه الطريقة، وأنت ترى كل هذه المخاطر؟ خاصةً وأنني (لو كنتَ صبورًا بما يكفي لتستمع إليّ) أستطيع أن أرشدك إلى تحقيق ما ترغب فيه، دون المخاطر التي ستواجهها بهذه الطريقة. أجل، والحل قريب. إضافةً إلى ذلك، سأضيف أنك ستنعم بالأمان والصداقة والرضا بدلًا من تلك المخاطر.

كريس: سيدي، أرجو أن تكشف لي هذا السر.

العالم ، في تلك القرية (التي تُسمى الأخلاق)، يسكن رجلٌ يُدعى الشرعية، رجلٌ حكيمٌ ذو سمعةٍ طيبة، يملك مهارةً في تخفيف الأعباء عن كاهل الناس؛ بل أعلم أنه قدّم الكثير من الخير بهذه الطريقة؛ إضافةً إلى ذلك، لديه مهارةٌ في علاج من أُصيبوا بالجنون من كثرة أعبائهم. يمكنك الذهاب إليه، كما قلت، وستُساعده على الفور. منزله لا يبعد سوى ميلٍ واحدٍ عن هنا؛ وإن لم يكن موجودًا، فلديه ابنه الشاب الوسيم، الذي يُدعى الأدب،

والـذي يُجيـد الحـديث مثلـه تمامًـا. هنـاك، أقـول لـك، يمكنـك الـتخلص مـن عبئـك. وإذا لـم تكـن ترغـب فـي العـودة إلـى مسـكنك السـابق (كمـا أننـي لا أرغـب فـي ذلـك حقًـا)، فيمكنـك أن ترسـل فـي طلـب زوجتـك وأطفالـك إلـى هـذه القريـة، حيـث توجـد منـازل شـاغرة الآن، يمكنـك الحصـول علـى أحـدها بسـعر معقـول؛ كمـا أن الطعـام هنـاك رخـيص وجيـد؛ ومـا سـيجعل حياتـك أكثـر سـعادة هـو أن تعـيش هنـاك بالتأكيـد مع جيران صادقين، في سمعة طيبة وأسلوب حياة حسن.

كـان كريسـتيان الآن فـي موقـف محـرج إلـى حـد مـا؛ لكنـه سـرعان مـا اسـتنتج قـائلاً: "إذا كـان مـا قالـه هـذا الرجـل صـحيحاً، فـإن أفضـل مسار لي هو الأخذ بنصيحته"؛ ثم تابع حديثه قائلاً:

كريس: سيدي، ما هو الطريق إلى منزل هذا الرجل الأمين؟

يا عالم، هل ترى ذلك التل العالي؟

كريس: نعم، جيد جداً.

يـا عـالم. عليـك أن تسـلك ذلـك التـل، وأول منـزل ستصـل إليـه هـو منزله.

مبشر ومسيحي.

فـانحرف كريسـتيان عـن طريقـه متوجهًـا إلـى منـزل السـيد ليجـاليتي طلبًـا للمسـاعدة؛ ولكـن، عنـدما اقتـرب مـن التـل، بـدا لـه شـديد الارتفـاع، وكـان جانبـه المواجـه للطريـق شـديد الانحـدار، ممـا جعـل كريسـتيان يخشـى التقـدم أكثـر خشـية أن يسـقط التـل عليـه؛ فبقـي واقفًـا فـي مكانـه، لا يـدري مـا يفعل. وشـعر أن عبئـه أثقـل ممـا كـان عليـه فـي طريقـه. كمـا ظهـرت ومضـات مـن النـار مـن التـل، ممـا جعـل كريسـتيان يخشـى أن يحتـرق: فبـدأ يتعـرق ويرتجـف مـن الخـوف. وبـدأ ينـدم علـى اتباعـه نصـيحة السـيد وورلـدلي وايزمـان؛ وعنـدها رأى إيفانجيليسـت قادمًـا نحـوه، فـاحمر وجهـه خجـلًا. فـاقترب إيفانجيليسـت منـه شـيئًا فشـيئًا، وعنـدما وصـل إليـه، نظـر إليـه بنظـرة حـادة ومرعبـة، وبـدأ ينـاقش كريستيان قائلًا:

إيفـان: "مـاذا تفعـل هنـا يـا كريسـتيان؟" فلـم يعـرف كريسـتيان مـا يجيـب، فبقـي واقفًـا صـامتًا أمامـه. ثـم قـال الإنجيلـي: "ألـيس أنـت الرجل الذي وجدته يبكي خارج أسوار مدينة الخراب؟"

كريس: نعم سيدي العزيز، أنا هو.

إيفان، ألم أدلك على الطريق إلى البوابة الصغيرة؟

كريس: "نعم، سيدي العزيز"، قال كريستيان.

إيفــان. كيــف إذن يــتم تجاهلــك بهــذه الســرعة؟ فأنــت الآن خــارج الطريق.

كــريس. التقيــت برجــل بمجــرد أن تجــاوزت مســتنقع اليــأس، والــذي أقنعنــي بأنــه قــد أجــد فــي القريــة التــي أمــامي رجــلاً يســتطيع أن يخفــف عني عبئي.

إيفان. ماذا كان؟

كــريس. بــدا وكأنــه رجــل نبيــل، وتحــدث معــي كثيــراً، وفــي النهايــة جعلنــي أستســلم: لــذلك جئــت إلــى هنــا، ولكــن عنــدما رأيــت هــذا التــل، وكيــف يتــدلى فــوق الطريــق، اتخــذت موقفــاً فجــأة، خشــية أن يســقط على رأسي.

إيفان، ماذا قال لك ذلك الرجل؟

كريس. لماذا، سألني إلى أين أنا ذاهب، فأخبرته.

إيفان. وماذا قال حينها؟

كــريس. ســألني إن كــان لــدي عائلــة، فأجبتــه. لكننــي قلــت: إننــي مثقــلٌ بــالهموم التــي تثقــل كــاهلي، لدرجــة أننــي لا أســتطيع الاســتمتاع بصحبتهم كما كنت سابقاً.

إيفان. وماذا قال حينها؟

كــريس. طلــب منــي أن أتخلــص مــن عبئــي بســرعة، فأخبرتــه أننــي أبحــث عــن الراحــة. وقلــتُ: ســأذهب إلــى تلــك البوابــة لأستشــيره فــي كيفيــة الوصــول إلــى مكــان الخــلاص. فقــال إنــه ســيُريني طريقًــا أفضــل وأقصــر، لــيس بالصــعوبة التــي أرشــدتني إليهــا، يــا ســيدي؛ طريــقٌ ســيقودك إلــى منــزل رجــلٍ مــاهرٍ فــي تخفيــف هــذه الأعبــاء. فصــدقته، وانعطفتُ مــن ذلــك الطريــقِ إلــى هــذا، لعلّــي أتخلــص مــن عبئــي قريبًــا. ولكــن عنــدما وصــلتُ إلــى هــذا المكــان، ورأيــتُ الأمــور علــى حقيقتهــا، توقفتُ خوفًا (كما قلتُ) من الخطر؛ ولكني الآن لا أعرف ماذا أفعل.

لإيفــان : "قــف قلــيلاً لأريــك كــلام الله". فوقــف مرتجفــاً. ثــم قــال الإنجيلــي: "يقــول الله فــي كتابــه: 'انظــروا ألا ترفضــوا مــن يــتكلم، لأنــه إن لــم يــنجُ الــذين رفضــوا مــن تكلــم علــى الأرض، فكــم بــالأحرى لــن ننجــو نحــن إن أعرضــنا عــن مــن يــتكلم مــن الســماء'. وقــال أيضــاً: 'البــار يحيــا بالإيمــان بــالله، أمــا مــن ارتــد، فــلا ترضــى بــه نفســي'". ثــم طبـق عليهمـا قـائلاً: "أنـت الرجـل الـذي ينـدفع نحـو الشـقاء، فقـد بـدأت تـرفض مشـورة العلـي، وتتراجـع عـن طريـق السـلام، حتـى كـدت تهلـك إلى هلاك أبدي".

ثـم سـقط كريسـتيان عنـد قدميـه كالميت، وهـو يصـرخ: "ويـل لـي، لقـد هلكـت!" عنـد رؤيـة ذلـك، أمسـكه الإنجيلـي مـن يـده اليمنـى، قـائلاً: "سيُغفر للنـاس كـل أنـواع الخطايـا والكلمـات السيئة". "لا تكـن غيـر مـؤمن، بـل كـن مؤمنًـا". عنـدها اسـتعاد كريسـتيان بعضًـا مـن وعيـه، ووقف مرتجفًا، كما كان في البداية، أمام الإنجيلي.

ثـم تـابع الإنجيلـي قـائلاً: "أنصـتوا جيـداً لمـا سـأخبركم بـه. سـأريكم الآن مـن أضـلكم، ومـن أرسـلكم إليـه. ذلـك الرجـل الـذي قـابلتموه هـو حكيم دنيـوي، وهـو محق فـي ذلـك؛ لأنـه لا يسـعى إلا لأمـور الـدنيا (لـذا فهـو يـذهب دائمـاً إلـى كنيسـة الأخـلاق)، ولأنـه يحب هـذا الطريـق أكثـر مـن غيـره، لأنـه يخلصـه مـن الصـليب؛ ولأنـه ذو طبيعـة شـريرة، فإنـه يسعى إلى إبعادكم عن طريقي مع أنه الطريق الصحيح."

«إنّ الـذي أُرسـلتَ إليـه طلبًـا للراحـة، واسـمه الشـرعية، لا يسـتطيع أن يُحـرّرك مـن عبئـك. لـم يُحـرّر أحـدٌ مـن عبئـه علـى يديـه قـط، ولـن يُحـرّره أحـدٌ فـي المسـتقبل: لـن تُصـلحوا بـأيّ خطـةٍ كهـذه. لـذلك، فـإنّ السـيد الحكـيم الـدنيوي عـدوّ، والسـيد الشـرعية مُخـادع؛ وابنـه المهـذب، رغـم مظهـره المُتصـنّع، لـيس إلا مُحتـالًا ولا يسـتطيع مسـاعدتك. صـدّقني، لـيس فـي كـلّ هـذه الضـجّة التـي سـمعتَها عـن هـؤلاء الأشـرار إلاّ تـدبيرٌ لسـرقة خلاصـك، بتحويلـك عـن الطريـق الـذي رسـمتُك عليـه». بعـد ذلـك، دعـا المُبشّـر السـماء بصـوتٍ عـالٍ ليُثبـت كلامـه؛ فخرجـت كلمـاتٌ ونـارٌ مـن الجبـل الـذي كـان يقـف تحتـه المسـيحي المسـكين، فانتصـب شـعر جسـده. كانـت الكلمـات كالتـالي: «كلّ من هم من أعمال الناموس هم تحت اللعنة».

الآن، لـم يعـد كريسـتيان يتمنـى سـوى المـوت، وبـدأ يبكـي بحرقـة، بـل ولعن الوقـت الـذي التقـى فيـه بالسيد الحكـيم الـدنيوي، ولا يـزال يصـف نفسـه بأنـه أحمـقٌ لأنـه استمع لنصيحته. كمـا شـعر بخجـلٍ شـديدٍ مـن أن حجـج هـذا الرجـل قـد أثـرت فيـه لدرجـة أن دفعتـه إلـى التخلـي عـن الطريـق القـويم. بعـد ذلـك، تحـدث إلـى المبشـر مـرة أخـرى، قـائلاً مـا يلي:

كـريس : سـيدي، مـا رأيـك؟ هـل مـن أمـل؟ هـل لـي أن أعـود الآن وأصـعد إلـى بوابـة المرمـى؟ ألـن أُطرد مـن هنـا خجـلاً؟ أنـا آسـف لأننـي استمعت لنصيحة هذا الرجل، ولكن هل يُغفر لي ذنبي؟

الإنجيلـي : «خطيئتـك عظيمـة جـدًا، فقـد ارتكبـت بهـا شـرّين؛ تركـت الطريـق القـويم، وسـلكت دروبًـا محرمـة. ومـع ذلـك، سيسـتقبلك الرجـل عنـد البـاب، لأنـه يُحـب النـاس؛ ولكـن احـذر أن تحيـد عنـه ثانيـةً، لـئلا تهلك في الطريق، إذا ما اشتد غضبه قليلًا».

الفصل الثاني

ثـم بـدأ كريسـتيان بـالعودة إلـى الطريـق الصـحيح؛ وبعـد أن قبّلـه الإنجيلـي، ابتسـم لـه ابتسـامةً واحـدةً وتمنـى لـه التوفيـق؛ فمضـى كريسـتيان مسـرعًا، ولـم يُكلّـم أحـدًا فـي طريقـه؛ ولـم يُجـب أحـدًا إن سـأله أحـد. كـان يسـير كمـن يـدوس أرضًـا محرمـة، ولا يظـن نفسـه فـي مـأمن، حتـى عـاد إلـى الطريـق الـذي تركـه ليتبـع نصـيحة الحكـيم الـدنيوي. وبعـد حـين، وصـل كريسـتيان إلـى البوابـة. وكـان مكتوبًـا فوقها: "اقرعوا يُفتح لكم".

لذلك طرق الباب أكثر من مرة أو مرتين، قائلاً:

"هـل لـي أن أدخـل هنـا الآن؟ هـل سـيفتح لـي قلبـه ليغفـر لـي، رغـم أننـي كنـت متمـردًا لا أسـتحق؟ حينهـا لـن أتـردد فـي تـرنيم تسـبيحه الدائم في الأعالي."

جودويل تفتح البوابة

وأخيـراً، جـاء رجـل جـاد إلـى البوابـة يُـدعى غودويـل، وسـأل مـن هنـاك، ومن أين أتى، وماذا يريد؟

كـريس. هـا أنـا ذا خـاطئ مثقـل بـالهموم. أتيـت مـن مدينـة الهـلاك، ولكنـي ذاهـب إلـى جبـل صـهيون لأُحـرر مـن الغضـب الآتـي؛ لـذلك، يـا سـيدي، بمـا أننـي سـمعت أن الطريـق إلـى هنـاك مـن هـذه البوابـة، أود أن أعرف إن كنت ترغب في السماح لي بالدخول.

حسنًا. قال: "أنا مستعد من كل قلبي"، ثم فتح البوابة.

فلمـا هـمّ كريسـتيان بالـدخول، جذبـه الآخـر. فقـال كريسـتيان: "مـاذا يعنـي هـذا؟" فأجابـه الآخـر: "علـى بُعـد مسـافة قصـيرة مـن هـذه البوابـة، بُنيـت قلعـة حصـينة، يقودهـا بعلزبـول، إبلـيس؛ ومنهـا يُطلـق هـو ومـن معـه السـهام علـى كـل مـن يقتـرب مـن هـذه البوابـة، لعلهـم يموتـون قبـل أن يـدخلوا." فقـال كريسـتيان: "أفـرح وأرتجـف." فلمـا دخل، سأله حارس البوابة: من أرشدك إلى هنا؟

كـريس. دعـاني المبشـر إلـى المجـيء إلـى هنـا والطـرق، كمـا فعلـت؛ وقال لي يا سيدي ستخبرني بما يجب علي فعله.

حسنًا. باب مفتوح أمامك، ولا يستطيع أحد أن يغلقه.

كريس. الآن بدأت أجني ثمار الجهد الذي بذلته.

جيد. ولكن كيف أتيت وحدك؟

كريس. لأن أياً من جيراني لم يرَ الخطر الذي يهددهم، كما رأيتُ الخطر الذي يهددني.

جيد. هل كان أي منهم يعلم بقدومك؟

كريس. نعم، رأتني زوجتي وأولادي في البداية، ونادوني لأعود مرة أخرى؛ كما وقف بعض جيراني يبكون وينادونني لأعود؛ لكنني وضعت أصابعي في أذني، وهكذا واصلت طريقي.

جيد. لكن ألم يتبعك أحد منهم ليقنعك بالعودة؟

كريس. نعم، كلاهما عنيد ومرن: ولكن عندما رأوا أنهم لا يستطيعون الانتصار، عاد العنيد يثور، لكن المرن جاء معي لمسافة قصيرة.

جيد. لكن لماذا لم يفي بوعده؟

كريس. لقد جئنا معًا بالفعل حتى وصلنا إلى مستنقع اليأس، حيث سقطنا فيه فجأة. حينها أصيب جاري المرن بالإحباط، ولم يرغب في المغامرة أكثر. لذلك، خرج من الجانب المجاور لمنزله، وقال لي إنني سأفوز بالبلاد الشجاعة وحدي من أجله: فذهب في طريقه، وجئت في طريقي؛ هو خلف أوبستينيت، وأنا إلى هذه البوابة.

حسنًا. ثم قال غودويل: "يا للأسف، أيها الرجل المسكين! هل المجد السماوي لا قيمة له عنده لدرجة أنه لا يعتبره يستحق المخاطرة ببعض الصعوبات للحصول عليه؟"

كريس : "صدقًا، لقد قلتُ حقيقة بليبِل؛ ولو قلتُ حقيقة نفسي أيضًا، لتبين أنه لا فرق بيني وبينه. صحيح أنه عاد إلى بيته، لكنني أنا أيضًا انحرفتُ عن الطريق وسلكتُ طريق الموت، بعد أن أقنعني بذلك كلام السيد الحكيم الدنيوي."

حسنًا. أوه! هل وقع اختياره عليك؟ ماذا! كان سيُجبرك على اللجوء إلى "السيد القانوني" طلبًا للتسهيل! كلاهما مُحتالان للغاية. لكن هل أخذت بنصيحته؟

كريس. نعم، بقدر ما تجرأت. ذهبت لأبحث عن السيد ليجاليتي، حتى ظننت أن الجبل الذي يقف بجوار منزله سيسقط على رأسي: لذلك اضطررت للتوقف عند هذا الحد.

حسنًا. لقد كان ذلك الجبل سببًا في موت الكثيرين، وسيكون سببًا في موت المزيد؛ من الجيد أنك نجوت من أن يُحطمك إلى قطع.

كريس. حقًا، لا أدري ما حلّ بي هناك، لولا أن الإنجيلي التقاني مجددًا وأنا غارق في أفكاري وسط حزني؛ لكن من رحمة الله أن عاد إليّ، وإلا لما أتيت إلى هنا أبدًا. والآن قد أتيت، وأنا على حالي، أستحق الموت عند ذلك الجبل أكثر من أن أقف هنا أتحدث مع ربي. ولكن يا له من فضل عظيم أن أدخل إلى هنا!

حسنًا. لا نعترض على أحد، مهما فعل قبل مجيئه إلى هنا؛ فهم ليسوا مطرودين بأي حال من الأحوال. لذلك، أيها المسيحي الصالح، تعال معي قليلًا، وسأعلمك الطريق الذي يجب أن تسلكه. انظر أمامك: هل ترى هذا الطريق الضيق؟ هذا هو الطريق الذي يجب أن تسلكه. لقد رسمه رجال الماضي، الأنبياء، المسيح ورسله، وهو مستقيم قدر الإمكان: هذا هو الطريق الذي يجب أن تسلكه.

كريس: "لكن،" قال كريستيان، "ألا توجد منعطفات أو طرق ملتوية قد يضل بها الغريب طريقه؟"

حسنًا. "نعم، هناك طرق عديدة للتغلب على هذا، وهي طرق ملتوية وواسعة؛ ولكن بهذه الطريقة يمكنك التمييز بين الصواب والخطأ، فالصواب هو فقط المستقيم والضيق."

ثم رأيت في حلمي أن كريستيان سأله إن كان بإمكانه مساعدته في التخلص من الحمل الذي كان على ظهره، لأنه لم يكن قد تخلص منه بعد، ولا يستطيع بأي حال من الأحوال التخلص منه دون مساعدة.

فقال له: "أما عبئك، فارض أن تحمله حتى تصل إلى مكان الخلاص؛ لأنه هناك سيسقط من ظهرك من تلقاء نفسه".

ثم بدأ كريستيان يشد حزامه، ويعود إلى رحلته.

فأخبره الآخر أنه ما إن يبتعد قليلاً عن البوابة، حتى يأتي إلى منزل المترجم، فيطرق بابه، فيريه أموراً عظيمة. ثم ودّع كريستيان صديقه، وتمنى له التوفيق.

بيت المترجم

ثم واصل سيره حتى وصل إلى منزل المترجم، حيث طرق الباب مراراً وتكراراً. وأخيراً فتح أحدهم الباب وسأل من الطارق.

كريس: سيدي، ها هو مسافر طلب منه صديق صاحب هذا المنزل أن يأتي إلى هنا لمصلحته؛ لذلك أود التحدث مع صاحب المنزل.

لذلك استدعى رب المنزل، الذي جاء بعد فترة وجيزة إلى كريستيان، وسأله عما يريده.

كـريس : "يـا سـيدي، أنـا رجـل قـادم مـن مدينـة الخـراب، ومتجـه إلـى جبـل صـهيون؛ وقـد أخبرنـي الرجـل الـذي يقـف عنـد البوابـة فـي بدايـة هـذا الطريـق، أنـه إذا دعوتـك إلـى هنـا، فسـوف تريـنـي أشـياء ممتـازة، من شأنها أن تفيدني في رحلتي."

المتـرجم : "ادخـل، سـأريك مـا ينفعـك". فـأمر خادمـه بإشـعال الشـمعة، وطلـب مـن كريسـتيان أن يتبعـه؛ فأخـذه إلـى غرفـة خاصـة، وأمـر خادمـه بفـتح بـاب؛ فلمـا فعـل، رأى كريسـتيان صـورة لشـخص وقـور معلقـة علـى الحـائط؛ وكانـت هـذه هـي هيئتـه: عينـاه مرفوعتـان إلـى السـماء، وفـي يـده أفضـل الكتـب، وقـانون الحـق مكتـوب علـى شـفتيه، والعـالم خلفـه؛ كـان يقـف كمـا لـو كـان يتوسـل إلـى النـاس، وتـاج مـن ذهب معلق فوق رأسه.

كريس. ثم قال كريستيان: "ماذا يعني هذا؟"

وعنـدما تـراه رافعـاً عينيـه إلـى السـماء، وفـي يـده أفضـل الكتـب، وعلـى شـفتيه شـريعة الحـق، فـذلك يـدل علـى أن مهمتـه هـي معرفـة الأمـور الخفيـة وكشـفها للخطـاة؛ كمـا تـراه واقفـاً كأنـه يتوسـل إلـى النـاس. وعنـدما تـرى العـالم وراءه، وتاجـاً يتـدلى فـوق رأسـه، فـذلك يـدل علـى أنـه، إذ يسـتهين بـأمور الـدنيا ويحتقرهـا، مـن أجـل محبتـه لخدمـة سـيده، فهـو علـى يقـين فـي الآخـرة أن المجـد جـزاءً لـه. والآن، قـال المتـرجم، لقـد أريتـك هـذه الصـورة أولاً، لأن الرجـل الـذي تظهـر صـورته هـو الرجـل الوحيـد الـذي اختـاره رب المكـان الـذي أنـت ذاهـب إليـه ليكـون دليلـك فـي جميـع الأمـاكن الصـعبة التـي قـد تصـادفها فـي طريقـك؛ لـذلك انتبـه جيـداً لمـا أريتـك إيـاه، واحفـظ جيـداً مـا رأيتـه فـي ذهنـك، لـئلا تصـادف فـي رحلتـك مـن يـدّعون أنهـم يقودونـك إلـى الصواب، ولكن طريقهم يؤدي إلى الهلاك.

ثـم أخـذ بيـده، واقتـاده إلـى غرفـة جلـوس واسـعة جـدًا، كانـت مليئـة بـالغبـار لأنهـا لـم تُكنس قـط؛ وبعـد أن نظـر إليهـا المتـرجم قليلًا، طلـب رجـلًا ليكنسـها. وعنـدما بـدأ الرجـل بـالكنس، تطـاير الغبـار بكثافـة حتـى كـاد كريسـتيان يختنـق بـه. فقـال المتـرجم لفتـاة كانـت تقـف بجانبـه: "أحضـري المـاء ورشـي الغرفـة"؛ وعنـدما فعلـت ذلـك، كُنسـت الغرفـة ونُظفت بسهولة.

كريس. ثم قال كريستيان: "ماذا يعني هذا؟"

دولـي. أجـاب المتـرجم: "هـذه الغرفـة هـي قلـب رجـل لـم يُطهـره نعـيم الإنجيـل. الغبـار هـو خطيئتـه، والشـرور الداخليـة التـي دنسـته. مـن بـدأ بـالكنس أولًا هـو الشـريعة، أمـا مـن أحضـرت المـاء ورشـته فهـي الإنجيـل. الآن، بمـا أنـك رأيـتَ أنـه بمجـرد أن بـدأ الأول بـالكنس، انتشـر الغبـار فـي كـل مكـان حتـى لـم يسـتطع تنظيـف الغرفـة، بـل كـدتَ

تختنق به؛ فهذا يُبين لك أن الشريعة، بدلًا من أن تُطهر القلب (بعملها) من الخطيئة، تُحييها وتُقويها وتُنميها في النفس، كما أنها تكشفها وتمنعها، لأنها لا تُعطي القدرة على التغلب عليها. كذلك، بما أنك رأيتَ الفتاة ترش الغرفة بالماء، فتُنظف بسهولة؛ فهذا يُبين لك أنه عندما يأتي الإنجيل، بقوته العذبة والرحيمة، إلى القلب، فحينئذٍ، أقول، كما رأيتَ الفتاة تستلقي "برشّ الأرض بالماء، يُزال الغبار، وهكذا تُقهر الخطيئة وتُقهر، وتُطهر النفس بالإيمان بها، وبالتالي تصبح لائقة ليسكن فيها ملك المجد."

رأيتُ في حلمي أيضًا أن المفسر أخذ بيده، واقتاده إلى غرفة صغيرة يجلس فيها طفلان صغيران، كلٌّ منهما على كرسيه. كان اسم الأكبر "العاطفة"، واسم الآخر "الصبر". بدت العاطفة ساخطة للغاية، بينما كان الصبر هادئًا جدًا. سأل المسيحي: "ما سبب سخط العاطفة؟" فأجاب المفسر: "يريد حاكمهم أن يبقى حتى بداية العام المقبل ليحصل على أفضل ما لديه، لكنه سيحصل على كل شيء الآن. الصبر مستعد للانتظار."

ثم رأيتُ رجلاً أتى إلى باشون، وأحضر له كيساً من الكنز، وسكبه عند قدميه؛ فأخذه باشون، وفرح به، وسخر من الصبر. ولكنني لم أرَ إلا قليلاً، حتى ذبل كل شيء، ولم يبقَ له إلا الخرق.

كريس. ثم قال كريستيان للمترجم: "اشرح لي هذا الأمر بشكل أكثر تفصيلاً".

الآخرة. فكما ترى، ستستحوذ العاطفة على كل شيء الآن، هذا العام، أي في هذه الدنيا؛ وكذلك رجال هذه الدنيا؛ يجب أن يحصلوا على كل خيراتهم الآن؛ لا يمكنهم الانتظار حتى العام المقبل، أي حتى الآخرة، لينالوا نصيبهم من الخير. إن المثل القائل: "عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة"، له وزن أكبر عندهم من كل كلمات الكتاب المقدس عن خير الآخرة. ولكن، كما رأيتَ كيف أهلك كل شيء بسرعة، ولم يبقَ له سوى الخرق، كذلك سيكون حال جميع هؤلاء الرجال في نهاية هذه الدنيا."

كريس. ثم قال كريستيان: "الآن أرى أن الصبر هو أسمى الحكمة، وذلك لأسباب عديدة. أولًا: لأنه ينتظر الأفضل. ثانيًا: ولأنه سينال مجده حين لا يملك الآخر سوى الخرق."

بل يمكنك إضافة شيء آخر؛ وهو أن مجد الآخرة لن يزول أبدًا، أما هذه فستزول فجأة. لذلك، لم يكن للعاطفة سبب كبير للسخرية من الصبر لأنه نال خيراته أولًا، كما سيكون للصبر سبب للسخرية من العاطفة لأنه نال أفضل ما لديه أخيرًا؛ لأن الأول لا بد أن يفسح المجال للأخير، لأن للأخير وقته، لكن الأخير لا يفسح المجال

لشـيء، لأنـه لا يوجـد مـن يخلفـه: لـذلك، مـن ينـال نصـيبه أولًا، لا بـد أن ينفقه، أما من ينال نصيبه أخيرًا، فلا بد أن يدوم.

كـريس. ثـم أدركـت أنـه لـيس مـن الأفضـل أن نتـوق إلـى الأشـياء الموجودة الآن، بل أن ننتظر الأشياء القادمة.

أنـت تقـول الحقيقـة؛ "لأن الأشـياء التـي تُـرى تـزول سـريعاً، أمـا الأشياء التي لا تُرى فتدوم إلى الأبد" .

ثـم رأيت فـي حلمـي أن المتـرجم أخـذ كريسـتيان بيـده وقـاده إلـى مكـان كانـت فيـه نـار مشـتعلة علـى جدار، وكـان هنـاك شـخص يقـف بجانبهـا، يسـكب عليهـا باسـتمرار الكثيـر مـن المـاء لإطفائهـا؛ ومـع ذلـك كانـت النار تشتعل بشكل أعلى وأكثر حرارة.

كريس. ثم قال كريستيان: "ماذا يعني هذا؟"

أجـاب المتـرجم: "هـذه النـار مـن صـنع الله فـي القلـب، ومـن يلقـي عليهـا المـاء لإطفائهـا فهـو الشـيطان، ولكنـك حـين تـرى النـار تـزداد اشـتعالاً وحـرارة، سـتدرك سـبب ذلـك". ثـم اقتـاده إلـى الجانـب الآخـر مـن الجـدار، فـرأى رجـلاً يحمـل إنـاءً مـن الزيـت، وكـان يلقـي منـه الزيت سراً في النار .

كريس. ثم قال كريستيان: "ماذا يعني هذا؟"

المتـرجم : "هـذا هـو المسـيح، الـذي يُعـين باسـتمرار، بزيـت نعمتـه، العمـل الـذي بـدأ فـي القلـب؛ وبفضـله، رغـم كـل مـا يفعلـه الشـيطان، تبقـى نفـوس شـعبه مُباركـة. ورأيتَ أن الرجـل كـان يقـف خلـف الجـدار ليُبقـي النـار مشـتعلة؛ فهـذا يُعلّمـك أنـه مـن الصـعب علـى المُجـرَّبين أن يُدركوا كيف تبقى نعمة الله حية في النفس."

رأيـتُ أيضـاً أن المتـرجم أخـذ بيـده مـرة أخـرى، واقتـاده إلـى مكـانٍ بهـيج، حيـث بُنـي قصـرٌ فخـمٌ، جميـلٌ فـي منظـره، وقـد أُعجـب كريسـتيانٌ كثيـراً برؤيتـه. ورأى أيضـاً علـى قمتـه أشخاصـاً يسـيرون، يرتـدون جميعاً ثياباً من الذهب.

ثم قال كريستيان: "هل يمكننا الدخول إلى هناك؟"

ثـم أخـذه المتـرجم واقتـاده نحـو بـاب القصـر؛ وإذا بجمـع غفيـر مـن الرجـال يقفـون عنـد البـاب، راغبـين فـي الـدخول، لكـنهم يتـرددون. وكـان هنـاك رجـل يجلـس علـى بُعـد قليـل مـن البـاب، عنـد طاولـة، أمامـه كتـاب ومحبـرة، ليسـجل اسـم مـن سـيدخل. ورأى أيضًـا رجـالًا كثيـرين يرتـدون الـدروع يقفـون عنـد المـدخل لحراسـته، عـازمين علـى إلحـاق الأذى والضـرر بمـن يـدخل. عنـدها شـعر كريسـتيان بشـيء مـن الدهشـة. وأخيـرًا، عنـدما تراجـع الجميـع خوفًـا مـن المسـلحين، رأى

كريستيان رجلاً ضخم البنية يتقدم نحو الرجل الجالس هناك ليكتب، قائلاً: "اكتب اسمي يا سيدي". ولما فعل، رأى الرجل يستل سيفه، ويضع خوذة على رأسه، ويندفع نحو الباب نحو المسلحين، الذين انهالوا عليه بعنف شديد؛ لكن الرجل، الذي لم ييأس، واصل القتال بشراسة. وبعد أن تلقى وألحق جراحاً كثيرة بمن حاولوا منعه من الدخول، شق طريقه بينهم جميعاً وتقدم إلى داخل القصر؛ وعندها سُمع صوتٌ لطيف من الذين كانوا في الداخل، حتى من الذين كانوا يسيرون على سطح القصر، يقول:

"ادخل، ادخل؛ المجد الأبدي ستناله."

فدخل، وارتدى ثياباً مثل تلك التي كانت في ذلك المكان. ثم ابتسم كريستيان وقال: "أعتقد أنني أعرف معنى هذا حقاً".

قال كريستيان: "الآن، دعني أذهب من هنا". قال المترجم: "لا، ابقَ حتى أريك المزيد، وبعد ذلك يمكنك المضي في طريقك". فأخذه بيده مرة أخرى، واقتاده إلى غرفة شديدة الظلام، حيث كان يجلس رجل في قفص حديدي.

بدا الرجل، وهو ينظر إلى المشهد، حزيناً للغاية. كان يجلس وعيناه شاخصتان إلى الأرض، ويداه مطويتان، ويتنهد كأن قلبه سينفطر. ثم قال كريستيان: "ماذا يعني هذا؟" فأمره المترجم بالتحدث مع الرجل.

ثم قال كريستيان للرجل: "ما أنت؟" فأجاب الرجل: "أنا ما لم أكنه من قبل".

كريس، ماذا كنتَ في السابق؟

الرجل : "كنت في يوم من الأيام مسيحياً جميلاً ومزدهراً، سواء في عيني نفسي أو في عيون الآخرين؛ كنت في يوم من الأيام، كما اعتقدت، جميلاً بالنسبة للمدينة السماوية، بل وشعرت بالفرح عند التفكير في أنني سأصل إلى هناك".

كريس: حسناً، ولكن ما أنت الآن؟

يا رجل. أنا الآن رجل يائس، محبوس في يأسي، كما لو كنت في قفص حديدي. لا أستطيع الخروج. آه، *الآن* لا أستطيع!

كريس. ولكن كيف وصلت إلى هذه الحالة؟

يا رجل، لقد تركتُ التأمل واليقظة. أطلقتُ العنان للخطيئة؛ أخطأتُ في وجه نور كلمة الله وصلاحه؛ أحزنتُ الروح القدس، فذهب؛ جرّبتُ الشيطان، فأتى إليّ؛ أغضبتُ الله، فتركني؛ قستْ قلبي حتى لا أستطيع *التوبة* .

ثم قال كريستيان للمترجم: "أليس هناك أمل لمثل هذا الرجل؟" قال المترجم: "اسأله".

كريس. ثم قال كريستيان: "أليس هناك أمل، بل يجب أن تبقى حبيس قفص اليأس الحديدي؟"

يا رجل. لا، أبداً.

كريس. لماذا؟ ابن المبارك مثير للشفقة للغاية.

يا رجل، لقد صلبته لنفسي من جديد. لقد احتقرت شخصه. لقد احتقرت قداسته؛ لقد اعتبرت دمه شيئًا نجسًا؛ لقد استهنت بروح الرحمة. لذلك، أغلقت على نفسي جميع وعود الله، ولم يبقَ لي الآن إلا التهديدات، تهديدات رهيبة، تهديدات مخيفة بدينونة محتومة وغضب ناري، سيبتلعني كعدو.

كريس، ما الذي أوصلك إلى هذه الحالة؟

الإنسان. من أجل رغبات وملذات ومكاسب هذا العالم؛ والتي وعدت نفسي حينها بمتعة كبيرة في التمتع بها؛ ولكن الآن كل واحدة من تلك الأشياء تعضني وتنهشني، مثل دودة محترقة.

كريس. ألا يمكنك الآن أن تعود إلى الله؟

يا إلهي، لم يعد الله يدعوني إليه. كلمته لا تُشجعني على الإيمان؛ بل إنه هو نفسه قد حبسني في هذا القفص الحديدي؛ ولا يستطيع جميع رجال العالم أن يُخرجوني منه. يا للخلود! يا للخلود! كيف لي أن أواجه البؤس الذي لا بد لي من مواجهته في الخلود؟

ثم قال المترجم لكريستيان: "لتتذكر بؤس هذا الرجل، وليكن عبرة دائمة لك".

حلم يوم القيامة

كريس: "حسنًا،" قال كريستيان، "هذا أمرٌ مُرعب! اللهم أعني على الحذر والرزانة، وعلى الصلاة، حتى أتجنب سبب بؤس هذا الرجل. يا سيدي، أليس الوقت قد حان لأنصرف الآن؟"

انتظر حتى أريك شيئًا آخر، ثم ستمضي في طريقك.

فأمسك بيد كريستيان ثانيةً، واقتاده إلى غرفةٍ كان فيها رجلٌ ينهض من فراشه، وبينما كان يرتدي ثيابه، ارتجف الرجل وارتعد. فقال كريستيان: "لماذا يرتجف هذا الرجل هكذا؟" فأمره المترجم أن يخبر كريستيان بسبب ارتجافه. فبدأ المترجم قائلاً: "في هذه الليلة، بينما كنت نائماً، حلمت، وإذا بالسماء قد اسودّت سواداً

حالكاً، ودوى الرعد وأضاءت السماء بضوءٍ مرعبٍ للغاية، حتى أصابني ذلك بعذابٍ شديد. فنظرت في حلمي، فرأيت الغيوم تتهادى بسرعةٍ غير عاديةٍ، وسمعت بعدها صوت بوقٍ عظيم، ورأيت رجلاً جالساً على سحابة، ومعه آلافٌ من السماء، وكانوا جميعاً في لهيب نارٍ متأجج، وكانت السماء أيضاً في لهيبٍ مشتعل. ثم سمعت صوتاً عظيماً يقول: "قوموا أيها الأموات، وتعالوا إلى الحساب". وعندها انشقت الصخور، وانفتحت القبور، وخرج منها الموتى: بعضهم فرحوا فرحًا عظيمًا، ونظروا إلى أعلى؛ وبعضهم فكر في الاختباء تحت الجبال. ثم رأيت الرجل الجالس على السحابة يفتح الكتاب ويدعو العالم إلى الاقتراب. ومع ذلك، وبسبب لهيب شديد انبعث منه وظهر أمامه، كانت هناك مسافة بينه وبينهم، كما بين القاضي والمساجين في قفص الاتهام. وسمعت أيضًا من ينادي الواقفين حول الرجل الجالس على السحابة: «اجمعوا الزوان والتبن والقش، وألقوا بهم في البحيرة المشتعلة». وعندها انفتحت الهاوية، حيث كنت واقفًا تقريبًا؛ وخرج من فمها دخان كثيف وجمر نار، مصحوبًا بأصوات مروعة. وقيل أيضًا لنفس الأشخاص: «اجمعوا قمحي إلى المخزن». وبعد ذلك، رأيتُ كثيرين يُختطفون ويُحملون إلى السحاب، أما أنا فبقيتُ هناك. حاولتُ الاختباء، لكنني لم أستطع، لأن الرجل الجالس على السحابة كان لا يزال يُراقبني؛ وعادت ذنوبي إلى ذهني، وضميري يُعاتبني من كل جانب. عندئذٍ استيقظتُ من نومي.

كريس. لكن ما الذي جعلك خائفاً جداً من هذا المنظر؟

يا إلهي. ظننتُ أن يوم القيامة قد حان، وأنني لستُ مستعدًا له. لكن ما أرعبني أكثر هو أن الملائكة جمعوا عددًا من الملائكة وتركوني، وأن هاوية الجحيم فتحت فمها حيث كنتُ واقفًا. ضميري أيضًا كان يؤنبني، وكما ظننتُ، كان القاضي يراقبني دائمًا، ويبدو الغضب واضحًا على وجهه.

ثم قال المترجم لكريستيان: "هل فكرت في هذه الأمور؟"

كريس. نعم؛ وقد زرعوا فيّ الأمل والخوف.

حسناً، ضع كل شيء في ذهنك، حتى يكون بمثابة دافع في جنبك، ليدفعك إلى الأمام في الطريق الذي يجب أن تسلكه.

ثم بدأ كريستيان يشدّ حزامه، ويستعد لرحلته. فقال المترجم: "ليكن المعزي معك دائمًا أيها المسيحي الصالح، ليرشدك إلى الطريق المؤدي إلى المدينة".

فانطلق كريستيان في طريقه قائلاً:

"هنا رأيت أشياء نادرة ومفيدة؛ أشياء سارة وأخرى رهيبة؛ أشياء تجعلني ثابتاً فيما بدأتُ في القيام به: دعني أفكر فيها، وأفهم لماذا أرشدتني إلى أين؛ ودعني أكون شاكراً لك، أيها المفسر الصالح."

الفصل الثالث

رأيت في حلمي أن الطريق السريع الذي كان على كريستيان أن يسلكه كان محاطًا بسور من كلا الجانبين يُسمى الخلاص. ولذلك، صعد كريستيان المثقل بالأعباء هذا الطريق، ولكن بصعوبة بالغة بسبب الحمل الذي كان على ظهره.

ركض هكذا حتى وصل إلى مكانٍ مرتفع بعض الشيء، وكان هناك صليبٌ، وأسفله بقليلٍ، في الأسفل، قبر. فرأيت في حلمي أنه عندما صعد كريستيان حاملاً الصليب، انزلق حمله عن كتفيه، وسقط من ظهره، وبدأ يتدحرج، واستمر على هذا الحال حتى وصل إلى مدخل القبر، حيث سقط فيه، ولم أره بعد ذلك.

المسيحية أمام الصليب

ثم ابتهج كريستيان وفرح، وقال بقلبٍ مسرور: "لقد منحني الراحة بحزنه، والحياة بموته". ثم وقف لبرهة ينظر ويتعجب، فقد كان من المدهش له أن يخفف منظر الصليب عنه عبئه. فنظر، ونظر مرة أخرى، حتى انهمرت دموعه من عينيه. وبينما هو ينظر ويبكي، إذا بثلاثة ملائكة نورانية يقتربون منه، ويسلمون عليه قائلين: "السلام عليك". فقال له الأول : "مغفورة لك ذنوبك". وجرده الثاني من أسماله، وألبسه ثيابًا جديدة. ووضع الثالث علامة على جبينه، وأعطاه لفافة مختومة، وأمره أن ينظر إليها وهو يركض، وأن يسلمها عند باب السماء. ثم انصرفوا. فقفز كريستيان ثلاث قفزات فرحًا، ومضى وهو يغني.

"لقد أتيتُ إلى هنا مثقلًا بذنبي؛ ولم أجد ما يُخفف حزني حتى أتيتُ إلى هنا؛ يا له من مكان! هل يجب أن تكون هذه بداية سعادتي؟ هل يجب أن يسقط هذا العبء عن ظهري؟ هل يجب أن تنكسر هنا الحبال التي كانت تربطني به؟ مبارك الصليب! مبارك القبر! بل مباركٌ الرجل الذي خُزيَ هناك من أجلي!"

بسيط، كسول، افتراض

رأيتُ في حلمي أنه استمر على هذا المنوال، حتى وصل إلى القاع، حيث رأى، على مسافةٍ ما، ثلاثة رجال نائمين نوماً عميقاً، وأغلالٌ على كعوبهم. كان اسم أحدهم بسيطاً، والآخر كسلاناً، والثالث غروراً.

ثم رأى كريستيان حالتهم، فذهب إليهم لعله يوقظهم، وصاح قائلاً: "أنتم كالنائمين على قمة الصاري، فالبحر العميق تحتكم، هاوية لا قاع لها. استيقظوا إذن، وتعالوا. كونوا راغبين، وسأساعدكم في فك قيودكم". وقال لهم أيضاً: "إذا مرّ من يتجول كالأسد الزائر، فستصبحون فريسةً لأنيابه". فنظروا إليه، وبدأوا يجيبون على النحو التالي: قال البسيط: "لا أرى خطراً". وقال الكسول: "نام قليلاً". وقال المتغطرس: "كل حوض يجب أن يستقر على قاعدته". وهكذا عادوا إلى النوم، ومضى كريستيان في طريقه.

الشكلية والنفاق

لكنّه انزعج حين فكّر في أن الرجال في ذلك الخطر لا يُبالون بلطفه الذي عرض عليهم المساعدة، سواءً بإيقاظهم أو نصحهم أو مساعدتهم على فكّ قيودهم. وبينما هو منشغلٌ بذلك، لمح رجلين يتدحرجان فوق الجدار على يسار الطريق الضيق، فأسرعا نحوه. كان اسم أحدهما الشكلي، واسم الآخر النفاق. وهكذا، كما قلت، اقتربا منه، فبدأ يتحدث إليهما قائلًا:

كريس: أيها السادة، من أين أتيتم، وإلى أين أنتم ذاهبون؟

الشكل والهيب . لقد ولدنا في أرض المجد الباطل، ونسعى إلى المجد في جبل صهيون.

كريس، لماذا لم تدخلوا من الباب الذي يقف عند بداية الطريق؟ ألا تعلمون أنه مكتوب: "من لا يدخل من الباب، بل يصعد من مكان آخر، فهو سارق ولص؟"

الشكل والفرضية . قالوا إن الذهاب إلى البوابة للدخول كان، من وجهة نظر جميع أبناء وطنهم، يعتبر أمراً طويلاً للغاية؛ ولذلك كانت طريقتهم المعتادة هي اختصار الطريق، وتسلق الجدار كما فعلوا.

كريس. لكن ألن يُعتبر ذلك تعدياً على رب المدينة التي نحن ملزمون بها، أن نعصي إرادته؟

الشكل والفرضية . أخبروه أنه لا داعي لأن يقلق بشأن ذلك؛ لأن ما فعلوه كان لهم عادة، ويمكنهم إظهار شهادة تثبت ذلك لأكثر من ألف عام إذا لزم الأمر.

كريس: "لكن"، قال كريستيان، "هل ستصمد أمام المحاكمة القانونية؟"

ثم قالا : "وإذا دخلنا في الطريق ، فما الفرق من أي طريق ندخل؟ إن دخلنا، فقد دخلنا: أنت لست سوى عائق في الطريق، أنت الذي

دخل من البوابة كما نرى؛ ونحن أيضًا في الطريق، نحن الذين سقطنا من فوق السور: فأيُّ وضعك الآن أفضل من وضعنا؟"

كريس، أنا أسير وفقًا لقواعد سيدي، أما أنتم فتسيرون وفقًا لأهوائكم الجامحة. لقد حُسبتم لصوصًا بالفعل عند رب الطريق، ولذلك أشك في أنكم ستُعتبرون رجالًا صادقين في نهاية المطاف. تدخلون بأنفسكم دون أمره، وتخرجون بأنفسكم دون رحمته.

لم يُجيبوه إلا بإيجاز، واكتفوا بالقول له أن ينظر إلى نفسه. ثم رأيتهم يمضون كلٌّ في طريقه، دون أن يتحدثوا كثيرًا فيما بينهم، إلا أن هذين الرجلين أخبرا كريستيان أنهما، فيما يتعلق بالقانون والقواعد، لا يساورهما شك في ضرورة الالتزام بها كما يفعل هو. وقالا: "لذلك، لا نرى ما يُميزك عنا إلا في الرداء الذي ترتديه، والذي نعتقد أن بعض جيرانك قد أهدوه لك ليستر عورتك".

كريس، بحسب القوانين والأنظمة، لن تُنجى لأنك لم تدخل من الباب. أما هذا الرداء الذي على ظهري، فقد أعطاني إياه رب المكان الذي أذهب إليه، وكما تقول، لأستر به عورتي. وأتخذه علامة على لطفه بي، إذ لم يكن لديّ من قبل إلا الخرق. وفضلاً عن ذلك، هكذا أُعزّي نفسي وأنا أسير. لا شك، أظن، أنه عندما أصل إلى باب المدينة، سيعرفني ربها حق المعرفة، لأني أرتدي رداءه، رداءً أعطاني إياه مجاناً يوم جرّدني من خرقي. ولديّ أيضاً علامة على جبهتي، ربما لم تنتبه إليها، وضعها أحد أقرب أصدقاء ربي يوم سقط عني عبئي. وسأخبرك أيضاً أنني أعطيتُ حينها لفافة مختومة، لأُعزّي نفسي بقراءتها وأنا أسير في الطريق. أُمرت أيضاً بتسليمها عند البوابة السماوية، كدليل على دخولي المؤكد بعد ذلك؛ كل هذه الأشياء، أشك في أنك تريدها، وتريدها لأنك لم تدخل من البوابة.

لم يُجيبوه على هذه الأمور، بل تبادلوا النظرات وضحكوا. ثم رأيتهم جميعًا يواصلون سيرهم، باستثناء ذلك المسيحي الذي كان يتقدمهم، والذي لم يعد يتحدث إلا مع نفسه، تارةً يتنهد، وتارةً أخرى يشعر بالراحة؛ وكان كثيرًا ما يقرأ في اللفافة التي أعطاه إياها أحد الكائنات النورانية، والتي كانت تُنعش روحه.

تلة الصعوبة

رأيتُ حينها أنهم جميعًا واصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى سفح تل الصعوبة، حيث كان في أسفله نبع ماء. وكان هناك أيضًا في نفس المكان طريقان آخران، بالإضافة إلى الطريق المستقيم القادم من البوابة؛ أحدهما ينعطف يسارًا، والآخر يمينًا ، عند أسفل التل؛ أما الطريق الضيق فكان يصعد التل مباشرةً، ويُسمى الطريق الصاعد

على جانب التل "الصعوبة". ذهب كريستيان الآن إلى النبع، وشرب منه ليستعيد نشاطه، ثم بدأ يصعد التل، قائلًا:

"التل، وإن كان شاهقاً، أتوق إلى صعوده؛ لن تثنيني الصعوبة، لأني أدرك أن طريق الحياة يكمن هنا. هيا، تشجع يا قلبي، لا تضعف ولا تخف. خيرٌ لك، وإن كان *صعباً* ، أن تسلك الطريق الصحيح، من أن تسلك الطريق الخاطئ، وإن كان *سهلاً* ، حيث تكون العاقبة الشقاء."

وصل الاثنان الآخران إلى أسفل التل. ولما رأيا أن التل شديد الانحدار وعالي، وأن هناك طريقين آخرين، وظنا أن هذين الطريقين قد يلتقيان بالطريق الذي سلكه كريستيان على الجانب الآخر من التل، قررا سلوكهما. وكان اسم أحد هذين الطريقين "الخطر"، والآخر "الهلاك". فسلك أحدهما طريق "الخطر" الذي قاده إلى غابة كثيفة، بينما سلك الآخر طريق "الهلاك" مباشرةً الذي قاده إلى سهل واسع مليء بالجبال المظلمة، حيث تعثر وسقط، ولم ينهض بعدها.

ثم نظرتُ إلى كريستيان لأراه يصعد التل، فرأيته قد توقف عن الجري، ثم زحف على يديه وركبتيه بسبب انحدار المكان. وفي منتصف الطريق تقريبًا إلى قمة التل، كانت هناك مظلة وارفة، بناها رب التل ليستريح عليها المسافرون المرهقون. فذهب كريستيان إلى هناك، وجلس ليستريح، ثم أخرج لفافته من جيبه، وقرأ فيها ليستريح، ثم عاد لينظر إلى الرداء الذي أُعطي له وهو واقف عند الصليب. وبعد أن أسعد نفسه قليلًا، غلبه النعاس، ثم غط في نوم عميق، أبقاه في ذلك المكان حتى كاد الليل يحلّ، فسقطت لفافته من يده أثناء نومه. وبينما هو نائم، جاءه أحدهم وأيقظه قائلًا: «اذهب إلى النملة أيها الكسول، وتأمل في طرقها، وكن حكيمًا». وبعد ذلك، انطلق كريستيان فجأة، وسار في طريقه، وواصل سيره بخطى سريعة حتى وصل إلى قمة التل.

الخوف وعدم الثقة

ولما وصل إلى قمة التل، جاء رجلان يركضان مسرعين: أحدهما اسمه تيموروس، والآخر اسمه مشكك؛ فقال لهما كريستيان: "يا سيدي، ما الأمر؟ إنكما تسلكان الطريق الخطأ". فأجاب تيموروس: "إننا ذاهبون إلى مدينة صهيون، وقد وصلنا إلى ذلك المكان الوعر، ولكن كلما توغلنا في الطريق، ازداد الخطر الذي نواجهه، ولذلك عدنا أدراجنا".

قال ميستراست: "نعم، لأن أمامنا مباشرة أسدين يعترضان طريقنا، لا ندري إن كانا نائمين أم مستيقظين؛ ولا يمكننا أن نتخيل، إذا اقتربنا منهما، أنهما سيمزقاننا إرباً إرباً على الفور."

كريس. فقال كريستيان: "أنت تُخيفني، ولكن إلى أين أهرب لأكون في أمان؟ إن عدتُ إلى بلادي، المُعدّة للنار والكبريت، فسأهلك هناك لا محالة؛ وإن وصلتُ إلى المدينة السماوية، فأنا على يقين من أنني سأكون في أمان هناك: لا بد لي من المُجازفة. إن العودة ليست إلا موتًا؛ أما المُضي قدمًا فهو خوف من الموت، وحياة أبدية بعده. سأُمضي قدمًا على أي حال." فهرب كل من ميستراست وتيموروس من أعلى التل، ومضى كريستيان في طريقه. لكنه، وهو يُفكر فيما سمعه من الرجلين، تحسس صدره بحثًا عن لفافته، فلم يجدها. حينها شعر كريستيان بضيق شديد، ولم يدرِ ما يفعل؛ لأنه كان يفتقد ما كان يُريحه، وما كان ينبغي أن يكون جواز سفره إلى المدينة السماوية. وهنا، بدأ يشعر بقلق بالغ، ولم يدرِ ما يفعل. وأخيرًا، تذكر أنه نام في العريشة التي تقع على جانب التل؛ ثم سقط على ركبتيه، وطلب من الله المغفرة على فعلته الطائشة، ثم عاد يبحث عن لفافته. لكن طوال الطريق الذي عاد فيه، كيف يُمكن وصف حزن قلب كريستيان؟ تارةً كان يتنهد، وتارةً يبكي، وكثيراً ما كان يلوم نفسه على غبائه في النوم في ذلك المكان، الذي لم يُبنَ إلا ليُريح نفسه قليلاً من عنائه. وهكذا، عاد، يُفتش يميناً ويساراً طوال الطريق، لعله يجد لفافته التي كانت مصدر راحته مرات عديدة في رحلته. وظلّ على هذا الحال حتى عاد إلى مرأى من العريشة التي كان يجلس وينام فيها؛ لكن ذلك المنظر زاد من حزنه، إذ أعاد إلى ذهنه، من جديد، شرّ نومه. وهكذا، تابع حديثه وهو يندب نومه الآثم قائلاً: "يا لبؤسي، كيف لي أن أنام في وضح النهار! كيف لي أن أنام وسط الصعاب! كيف لي أن أستسلم لهذا العناء، فأجعل من الراحة التي بناها رب الجبل راحةً لأرواح الحجاج! كم من الخطوات خطوتها عبثاً! هكذا كان حال بني إسرائيل؛ فقد أُعيدوا من البحر الأحمر بسبب خطيئتهم؛ وها أنا أسير على تلك الدرجات بحزن، بينما كان بإمكاني أن أسير عليها بفرح لولا هذا النوم الآثم. كم كنت سأقطع من الطريق حتى الآن! أُجبرت على السير على تلك الدرجات ثلاث مرات، بينما كان يكفيني أن أسير عليها مرة واحدة فقط؛ بل إنني الآن على وشك أن أغرق في الظلام، فقد أوشك النهار على الانتهاء. ليتني لم أنم!"

كريستيان يستعيد دوره

في ذلك الوقت، عاد إلى العريشة، حيث جلس قليلاً وبكى؛ ولكن في النهاية (كما شاءت الأقدار)، نظر بحزن إلى أسفل المقعد، فرأى لفافته، فانتزعها بسرعة وارتجف، ووضعها في حضنه. ولكن من

يستطيع وصف مدى فرحة هذا الرجل عندما استعاد لفافته؟ فقد كانت هذه اللفافة ضمانة حياته وقبوله في الملاذ المنشود. لذلك وضعها في حضنه، شاكراً الله على هدايته إلى مكانها، وانطلق في رحلته بفرح ودموع. يا له من صعود رشيق قام به الآن لبقية التل! ولكن قبل أن ينهض، غربت الشمس على كريستيان؛ مما جعله يتذكر حماقة نومه. وهكذا عاد يُعزي نفسه قائلاً: "يا لكِ من نومٍ آثم! كيف لي أن أُعاني من ظلام الليل في رحلتي بسببكِ! عليّ أن أسير في الظلام، وأن يُغطي الظلام درب قدميّ، وأن أسمع ضجيج المخلوقات الحزينة، كل ذلك بسبب نومي الآثم." ثم تذكر قصة ميستراست وتيموروس، وكيف فزعا لرؤية الأسود. فقال كريستيان لنفسه مرة أخرى: "هذه الوحوش تجوب الليل بحثًا عن فريستها؛ وإذا ما صادفتني في الظلام، فكيف لي أن أتجنبها؟ كيف لي أن أنجو من التمزق إربًا؟" وهكذا مضى في طريقه. ولكن، بينما كان يُندب خطأه المؤسف، رفع عينيه، فإذا بقصرٍ فخمٍ أمامه، يُدعى "الجميل"، ويقع على جانب الطريق السريع.

البواب الحذر

فرأيت في منامي أنه أسرع ومضى قدمًا، لعله يجد مأوى هناك. وقبل أن يبتعد كثيرًا، دخل ممرًا ضيقًا جدًا، يبعد حوالي فرسخ عن كوخ البواب؛ وبينما كان يمضي، نظر أمامه بتمعن، فرأى أسدين في طريقه. ففكر: الآن أرى المخاطر التي أجبرت ميستراست وتيموروس على التراجع. (كان الأسدان مقيدين بالسلاسل، لكنه لم يرَ السلاسل). ثم شعر بالخوف، وفكر في العودة خلفهما؛ لأنه لم يرَ أمامه إلا الموت. لكن البواب في النزل، واسمه اليقظ، لاحظ أن كريستيان توقف كما لو كان سيعود، فصاح به قائلاً: "أقوتك ضعيفة إلى هذا الحد؟ لا تخف من الأسود، فهي مقيدة، وقد وُضعت هناك لاختبار الإيمان حيثما وُجد، وللكشف عن أولئك الذين ليس لديهم إيمان: ابقَ في منتصف الطريق، ولن يصيبك أي مكروه".

ثم رأيته يرتجف خوفًا من الأسود، لكنه أصغى جيدًا لكلام البواب، فسمع زئيرها، لكنها لم تؤذه. ثم صفق بيديه، ومضى حتى وصل ووقف أمام البوابة حيث كان البواب. فقال كريستيان للبواب: "سيدي، ما هذا البيت؟ وهل لي أن أنام هنا الليلة؟"

أجاب البواب: "هذا البيت بناه سيد التل، وقد بناه لراحة الحجاج وأمنهم". وسأله البواب أيضًا من أين هو وإلى أين هو ذاهب.

كريس. لقد أتيت من مدينة الخراب، وأنا ذاهب إلى جبل صهيون؛ ولكن بما أن الشمس قد غربت الآن، فأنا أرغب، إن أمكن، في المبيت هنا الليلة.

ميناء. ما اسمك؟

كريس. اسمي الآن كريستيان، لكن اسمي الأول كان غريسليس.

ميناء. ولكن كيف حدث أن أتيت متأخراً هكذا؟ لقد غربت الشمس.

كريس. كنتُ هنا من قبل، ولكنني، يا لبؤسي، نمتُ في العريشة التي تقف على سفح التل. بل كنتُ هنا قبل ذلك بكثير، ولكنني في نومي فقدتُ لفافتي، وصعدتُ إلى قمة التل بدونها؛ ثم تحسستُها ولم أجدها، فاضطررتُ بقلبٍ حزينٍ إلى العودة إلى المكان الذي نمتُ فيه، حيث وجدتها؛ وها أنا ذا قد وصلت.

بورت. حسنًا، سأنادي إحدى نساء هذا المكان، والتي إذا أعجبها حديثك، ستدخلك إلى بقية أفراد العائلة، وفقًا لقواعد المنزل.

لذا قام البواب الحذر بقرع الجرس، وعلى صوته خرجت من باب المنزل شابة وقورة وجميلة تدعى ديسكريشن، وسألت عن سبب استدعائها.

أجاب البواب: "هذا الرجل في رحلة من مدينة الخراب إلى جبل صهيون؛ ولكنه، لكونه متعباً ومظلماً، سألني إن كان بإمكانه المبيت هنا الليلة؛ فأخبرته أنني سأطلب منك، وبعد التحدث معه، يمكنك أن تفعل ما تراه مناسباً، حتى وفقاً لقانون المنزل".

التقوى، الحكمة، الإحسان

ثم سألته من أين أتى وإلى أين هو ذاهب، فأخبرها. وسألته أيضًا كيف وصل إلى هذا الطريق، فأخبرها. ثم سألته عما رآه والتقى به في طريقه، فأخبرها. وأخيرًا سألته عن اسمه. فقال: "اسمي كريستيان، ولدي رغبة شديدة في المبيت هنا الليلة، لأنني أظن أن هذا المكان بناه رب الجبل لإراحة الحجاج وحمايتهم". فابتسمت، لكن الدموع تجمعت في عينيها، وبعد صمت قصير، قالت: "سأدعو اثنين أو ثلاثة من أهلي". فركضت إلى الباب، ونادت الحكمة والتقوى والإحسان، وبعد حديث قصير معه، أدخلوه إلى العائلة. ولما استقبله كثيرون منهم على عتبة المنزل، قالوا: "تفضل بالدخول يا مبارك الرب، فقد بنا رب الجبل هذا المنزل خصيصًا لإيواء مثل هؤلاء الحجاج". ثم انحنى برأسه، وتبعهم إلى داخل المنزل. فلما دخل وجلس، قدموا له شرابًا، واتفقوا فيما بينهم على أن يتحدث بعضهم مع كريستيان حتى يحين وقت العشاء، لما في ذلك من فائدة؛ وعينوا كلًا من بيتي، وبرودنس، وإكهارتي للتحدث معه؛ وهكذا بدأوا:

أيها المسيحي الصالح، تعالَ، بما أننا كنا محبين لك للغاية باستقبالك في منزلنا هذه الليلة، فلنتحدث معك، لعلنا نحسن أنفسنا بذلك، عن كل ما حدث لك في رحلتك.

كريس. بحسن نية، وأنا سعيد لأنك تتمتع بهذه الروح الطيبة.

التقوى. ما الذي دفعك في البداية إلى اختيار حياة الحاج؟

مغامرات كريستيان

كريس. لقد طُردت من وطني بسبب صوت مروع كان يتردد في أذني؛ وهو أن الهلاك المحتوم كان ينتظرني إذا بقيت في ذلك المكان الذي كنت فيه.

التقوى. ولكن كيف خرجت من بلدك بهذه الطريقة؟

كريس. كان ذلك كما أراد الله؛ لأنه عندما كنت تحت وطأة الخوف من الهلاك، لم أكن أعرف إلى أين أذهب؛ ولكن بالصدفة جاء رجل إليّ، بينما كنت أرتجف وأبكي، واسمه إيفانجيليست، وأرشدني إلى البوابة الصغيرة، التي لولا ذلك لما كنت وجدتها أبدًا، وهكذا وضعني في الطريق الذي قادني مباشرة إلى هذا المنزل.

التقوى. ولكن ألم تمروا ببيت المترجم؟

كريس. نعم، لقد رأيتُ مثل هذه الأشياء هناك، والتي ستبقى ذكراها عالقة في ذهني ما دمتُ حيًا، وخاصة ثلاثة أشياء؛ وهي كيف أن المسيح، على الرغم من الشيطان، الشرير، يُبقي على عمل نعمته في القلب؛ وكيف أن الرجل قد أخطأ بنفسه تمامًا بسبب رجاء رحمة الله؛ وأيضًا حلم ذلك الرجل الذي ظن في نومه أن يوم القيامة قد حان.

التقوى. لماذا؟ هل سمعته يروي حلمه؟

كريس. نعم، لقد كان أمراً مروعاً، شعرت بألم في قلبي وأنا أستمع إليه وهو يروي القصة؛ ومع ذلك فأنا سعيد لأنني سمعت بها.

التقوى. هل كان هذا كل ما رأيته في منزل المترجم؟

كريس. لا، بل أخذني إلى قصر فخم، وأراني كيف كان أهله يرتدون الذهب، وكيف جاء رجلٌ جريءٌ وشقّ طريقه بين الرجال المسلحين الذين وقفوا عند الباب لمنعه من الدخول، وكيف دُعي للدخول ونيل المجد الأبدي. ظننتُ أن هذه الأمور أسعدت قلبي. كنتُ لأبقى في منزل ذلك الرجل الطيب عامًا كاملًا، لولا أنني كنتُ أعلم أن أمامي طريقًا أطول.

التقوى. وما الذي حال دون ذلك؟

كريس. رأيت؟ حسنًا، لقد تقدمتُ قليلًا، فرأيتُ واحدًا، كما تخيلتُ في نفسي، مُعلقًا ينزف على شجرة؛ ومجرد رؤيته أزالت عني عبئي الثقيل؛ فقد كنتُ أتأوه تحت وطأة حملٍ ثقيل، ثم سقط عني. كان ذلك غريبًا بالنسبة لي، لأني لم أرَ مثله من قبل؛ أجل، وبينما كنتُ واقفًا أنظر إلى الأعلى (لأني لم أستطع حينها أن أتوقف عن النظر)، جاءني ثلاثة من الكائنات النورانية. أخبرني أحدهم أن ذنوبي قد غُفرت؛ وجرّدني آخر من أسمالي، وأعطاني هذا الرداء المطرز الذي تراه؛ ووضع الثالث العلامة التي تراها على جبيني، وأعطاني هذه اللفافة المختومة. (وبعد ذلك، أخرجها من صدره).

التقوى. لكنك رأيت أكثر من هذا، أليس كذلك؟

كريس. الأمور التي أخبرتك بها كانت الأفضل؛ ومع ذلك، رأيتُ أمورًا أخرى؛ فقد رأيتُ ثلاثة رجال، بسيط، وكسول، ومتغطرس، نائمين، بعيدًا قليلًا عن الطريق الذي أتيتُ منه، وأغلالٌ تُكبّل أقدامهم؛ ولكن هل تعتقد أنني استطعتُ إيقاظهم؟ ورأيتُ أيضًا شكليّ ومُنافقًا يتدحرجان فوق السور، ذاهبين، كما زعما، إلى صهيون؛ لكنهما سرعان ما ضلا، حتى بعد أن أخبرتهما بذلك بنفسي، لكنهما لم يُصدّقا. ولكن، فوق كل شيء، وجدتُ صعوبةً في صعود هذا التل، وصعوبةً مماثلةً في المرور من أفواه الأسود؛ وحقًا، لولا الرجل الطيب، البواب، الذي يقف عند البوابة، لا أدري إن كنتُ سأعود أدراجي في النهاية؛ ولكني الآن أحمد الله على وجودي هنا، وأشكرك على استقبالك لي.

ثم رأت برودنس أنه من الجيد أن تسأله بعض الأسئلة، وأرادت الحصول على إجابته عليها.

برو: هل تفكرين أحياناً في البلد الذي أتيتِ منه؟

كريس: نعم، ولكن مع الكثير من الخزي والكراهية. حقاً، لو كنتُ أتذكر ذلك البلد الذي جئتُ منه، لربما أتيحت لي فرصة العودة؛ لكنني الآن أرغب في بلد أفضل، أي بلد سماوي.

برو. ألا تحملين في ذهنك بعض الأشياء التي فعلتها في الماضي؟

كريس: نعم، ولكن رغماً عن إرادتي تماماً؛ وخاصة أفكاري الداخلية الخاطئة، التي كانت تُسعد جميع أبناء وطني، وأنا أيضاً. أما الآن، فكل تلك الأمور تُحزنني؛ ولو كان لي الخيار، لاخترت ألا أفكر فيها أبداً؛ ولكن عندما أريد أن أفعل ما هو خير، أجد نفسي أمام أسوأ ما في داخلي.

برو. ألا تجدين أحياناً كما لو أن تلك الأشياء قد تم التغلب عليها، بينما هي في أوقات أخرى مصدر مشكلتك؟

كريس. نعم، لكن هذا نادر الحدوث؛ لكنها بالنسبة لي ساعات ذهبية تحدث فيها مثل هذه الأشياء.

برو. هل يمكنك أن تتذكري كيف تجدين، في بعض الأحيان، ما يزعجك، كما لو أنه قد تم التغلب عليه؟

كريس. نعم؛ عندما أفكر فيما رأيته عند الصليب، فهذا سيفي بالغرض؛ وعندما أنظر إلى معطفي المطرز، فهذا سيفي بالغرض؛ وكذلك عندما أنظر إلى اللفافة التي أحملها في صدري، فهذا سيفي بالغرض؛ وعندما تشتعل أفكاري بالحماس بشأن المكان الذي سأذهب إليه، فهذا سيفي بالغرض.

برو: وما الذي يجعلك ترغب بشدة في الذهاب إلى جبل صهيون؟

كريس. يا إلهي، أتمنى أن أراه حيًا، ذاك الذي صُلب ميتًا؛ وأتمنى أن أتخلص من كل هذه الأشياء التي لا تزال تُزعجني حتى اليوم. يقولون إنه لا موت هناك؛ وهناك سأسكن مع من أُحب. لأني، لأكون صادقًا، أحبه لأنه خفف عني عبئي؛ وقد سئمت من مرضي الداخلي. أتمنى أن أكون في مكان لا أموت فيه أبدًا، ومع من يُرددون دائمًا: "قدوس، قدوس، قدوس!"

حوار خيري مع مسيحي

تشاريتي لكريستيان: "هل لديك عائلة؟ هل أنت رجل متزوج؟"

كريس. لدي زوجة وأربعة أطفال صغار.

شار: ولماذا لم تحضرهم معك؟

كريس. ثم بكى كريستيان وقال: "يا إلهي، كم كنت سأفعل ذلك بكل سرور! لكنهم جميعًا كانوا يعارضون بشدة ذهابي في رحلة الحج".

شار. ولكن كان عليك التحدث إليهم، ومحاولة إظهار خطورة البقاء في الخلف لهم.

كريس. لذلك فعلت، وأخبرتهم أيضاً بما أراني الله إياه عن دمار مدينتنا؛ لكنني بدوت لهم كمن يسخر، ولم يصدقوني.

شار: وهل دعوت الله أن يبارك كلماتك لهم؟

كريس: نعم، وبكثير من المودة؛ لأن عليك أن تعتقد أن زوجتي وأولادي المساكين أعزاء جداً عليّ.

شار. لكن هل أخبرتهم بحزنك وخوفك من الهلاك؟ لأني أفترض أنك كنت ترى هلاكك أمامك.

كريس. نعم، مراراً وتكراراً. ربما رأوا مخاوفي في وجهي، في دموعي، وفي ارتعاشي تحت وطأة الخوف من الحساب الذي كان يلوح في الأفق: لكن كل ذلك لم يكن كافياً لإقناعهم بالمجيء معي.

شار. ولكن ماذا يمكنهم أن يقولوا عن سبب عدم مجيئهم؟

كريس. لماذا، كانت زوجتي تخشى فقدان هذا العالم، وكان أطفالي منغمسين في ملذات الشباب الحمقاء؛ لذلك، وبسبب شيء ما، وبسبب شيء آخر، تركوني أتجول بهذه الطريقة وحدي.

شار. لكن ألم تعيق أنت، بحياتك العبثية، كل ما كنت تسعى إليه بالكلمات التي استخدمتها كوسيلة للإقناع لجذبهم معك؟

كريس. في الحقيقة، لا أستطيع أن أُثني على حياتي، فأنا أُدرك تمامًا عيوبها الكثيرة. وأعلم أيضًا أن المرء قد يُبطل بأفعاله ما سعى جاهدًا لإرسائه على الآخرين من أجل مصلحتهم، سواءً بالأدلة أو الإقناع. ومع ذلك، أستطيع أن أقول إنني كنت حريصًا جدًا على ألا أُعطيهم، بأي تصرف غير لائق، سببًا يدفعهم إلى النفور من الحج. بل إنهم كانوا سيقولون لي، لهذا السبب تحديدًا، إنني كنت شديد التشدد، وإنني حرمت نفسي من أشياء (من أجلهم) لم يروا فيها شرًا. كلا، أعتقد أنه يُمكنني القول إنه إن كان ما رأوه فيّ قد أعاقهم، فهو رقتي الشديدة في ارتكاب الذنوب ضد الله، أو في إلحاق أي أذى بجاري.

شار. في الواقع، كره قايين أخاه لأن أعماله كانت شريرة، وأعمال أخيه صالحة؛ وإذا كانت زوجتك وأولادك قد أساءوا إليك بسبب هذا، فإنهم بذلك يظهرون أنفسهم معارضين بشدة للخير: لقد حررتَ نفسك من دمائهم.

رأيت في منامي أنهم جلسوا يتحدثون معًا حتى جهز العشاء. فلما جهزوه، جلسوا لتناول الطعام. وكانت المائدة عامرة بأشهى المأكولات، ونبيذ فاخر. وكان حديثهم كله يدور حول رب التل، أي عما فعله، ولماذا فعل ما فعل، ولماذا بنى ذلك البيت. ومن كلامهم، أدركت أنه كان محاربًا عظيمًا، قاتل وقتل من يملك سلطان الموت، ولكن لم يكن ذلك دون تعريض نفسه لخطر عظيم، مما زادني حبًا له.

فكما قالوا، وكما أعتقد (قال كريستيان)، فعل ذلك مع إراقة دماء غزيرة. ولكن ما يضفي على كل ما فعله مجد النعمة هو أنه فعله بدافع حب خالص لهذه البلاد. إضافة إلى ذلك، قال بعض أهل البيت إنهم رأوه وتحدثوا إليه منذ موته على الصليب؛ وأكدوا أنهم سمعوه من فمه نفسه، أنه محبٌّ للفقراء والمحتاجين، لا مثيل له من الشرق إلى الغرب. وقدّموا مثالًا على ما أكدوه؛ وهو أنه تجرّد من مجده ليفعل ذلك من أجل الفقراء؛ وأنهم سمعوه يقول ويؤكد أنه لن يسكن في جبال صهيون وحده. وقالوا أيضًا إنه جعل كثير من الحجاج أمراء، مع أنهم كانوا في الأصل فقراء، وكان مسكنهم مزبلة الأرض.

وهكذا تجاذبوا أطراف الحديث حتى وقت متأخر من الليل، وبعد أن استودعوا ربهم، خلدوا إلى النوم. أما الحاج، فقد وضعوه في غرفة علوية واسعة، نافذتها تطل على شروق الشمس. وكان اسم الغرفة "السلام"، حيث نام حتى مطلع الفجر، ثم استيقظ وأنشد.

أين أنا الآن؟ هل هذه هي محبة يسوع وعنايته بالرجال الذين هم حجاج، لكي يوفر لي المغفرة، وأسكن بالفعل في الباب المجاور للسماء؟

العذارى يقرأن للمسيحي

في الصباح، استيقظوا جميعًا، وبعد حديثٍ قصير، أخبروه ألا يرحل حتى يُطلعوه على عجائب ذلك المكان. فأخذوه أولًا إلى غرفة الدراسة، حيث أطلعوه على سجلاتٍ من أعرق العصور؛ أتذكر في حلمي أنهم عرضوا عليه تاريخ سيد التل، وأنه ابن القديم الأيام، وأنه عاش منذ البدء. وهناك أيضًا كُتبت بتفصيلٍ أكبر أعماله، وأسماء مئاتٍ ممن اتخذهم في خدمته، وكيف وضعهم في بيوتٍ لا يمحوها الزمن ولا عوامل الطبيعة.

ثم قرأوا عليه بعض الأعمال الصالحة التي قام بها بعض عباده؛ مثل كيف غزو ممالك، وصنعوا البر، وحصلوا على وعود، وسدوا أفواه الأسود، وأخمدوا لهيب النار، ونجوا من حد السيف، وتقووا من الضعف، وأصبحوا شجعانًا في القتال، وأجبروا جيوش الأعداء على الفرار.

ثم قرأوا مرة أخرى في جزء آخر من سجلات المنزل، حيث تبين مدى استعداد ربهم لقبول أي شخص في رضاه، حتى لو ارتكبوا في الماضي أخطاءً جسيمة بحقه وحكمه. ووجدوا هنا أيضًا العديد من التواريخ الأخرى لأمور شهيرة أخرى، كان المسيحيون على دراية بها؛ سواء أكانت قديمة أم حديثة، بالإضافة إلى نبوءات

وتنبؤات بأمور ستحدث لا محالة، تُثير الرعب والدهشة في نفوس الأعداء، وتُريح الحجاج وتُسعدهم.

وفي اليوم التالي، أخذوه واقتادوه إلى مخزن الأسلحة، حيث أروه جميع أنواع الأسلحة التي جهزها ربهم للحجاج؛ كالسيف والدرع والخوذة والصدرية والصلوات والأحذية التي لا تبلى. وكان هناك من هذه الأسلحة ما يكفي لتجهيز عدد من الرجال لخدمة ربهم بعدد نجوم السماء.

كما أروه بعض الأشياء التي صنع بها بعض عباده عجائب عظيمة. أروه عصا موسى، والمطرقة والمسمار اللذين قتلت بهما ياعيل سيسرا، والأباريق والأبواق والمصابيح التي هزم بها جدعون جيوش مديان. ثم أروه منجل الثور الذي قتل به شمجر ستمائة رجل. وأروه أيضًا عظم الفك الذي صنع به شمشون تلك المآثر العظيمة. وأروه كذلك المقلاع والحجر اللذين قتل بهما داود جليات الجات، والسيف الذي سيقتل به ربهم رجل الخطيئة يوم قيامته للمعركة. وأروه أيضًا أشياء كثيرة رائعة، أسعدت كريستيان كثيرًا. وبعد ذلك، عادوا إلى راحتهم.

ثم رأيت في منامي أنه في اليوم التالي نهض ليمضي قدمًا، لكنهم طلبوا منه البقاء حتى اليوم التالي أيضًا؛ وقالوا: "حينها، إذا كان الجو صافيًا، سنريك الجبال البهيجة"؛ وقالوا إن ذلك سيزيد من راحته، لأنها أقرب إلى المرفأ المنشود من المكان الذي كان فيه الآن. فوافق وبقي. وعندما أشرقت الشمس، أخذوه إلى سطح المنزل، وطلبوا منه أن ينظر جنوبًا. ففعل، وإذا به يرى من مسافة بعيدة بلدًا جبليًا خلابًا، مزينًا بالغابات وكروم العنب وأنواع الفاكهة كافة، والزهور أيضًا، مع ينابيع ونوافير، منظرٌ في غاية الروعة. ثم سأل عن اسم ذلك البلد. فقالوا إنه أرض عمانوئيل. وقالوا: "وهو شائعٌ كشهرة هذا التل، لجميع الحجاج. وعندما تأتي إلى هناك، يمكنك أن ترى من هناك بوابة المدينة السماوية، كما سيُظهرها لك الرعاة الذين يعيشون هناك."

ثم فكّر في المضيّ قدمًا، وكانوا على استعدادٍ لذلك. قالوا: "لكن دعنا أولًا نعود إلى مستودع الأسلحة". ففعلوا، وعندما وصل إلى هناك، ألبسوه دروعًا واقية من رأسه إلى أخمص قدميه، خشية أن يتعرّض لهجمات في الطريق. وهكذا، وبعد أن أصبح مُسلّحًا، خرج مع أصدقائه إلى البوابة، وهناك سأل البواب إن كان قد رأى أي حاجٍ يمرّ. فأجابه البواب: "نعم".

كريس: "هل تعرفه؟" قال.

ميناء. سألته عن اسمه، فأخبرني أنه فيثفول.

كـريس: "أوه،" قـال كريسـتيان، "أنـا أعرفـه، إنـه مـن أبنـاء بلـدتي، وجـاري القريـب؛ إنـه مـن المكـان الـذي ولـدت فيـه. كـم تعتقـد أنـه قـد يكون بعيدًا؟"

الميناء. لقد وصل هذه المرة إلى أسفل التل.

كـريس : "حسـنًا، أيهـا البـواب الطيـب، فلـيكن الـرب معـك، وليزيـد على كل بركاتك زيادة كبيرة على اللطف الذي أظهرته لي!"

ثـم بـدأ بالتقـدم، لكـن الحكمـة والتقـوى والإحسـان والتـدبير رافقـوه إلـى أسـفل التـل. وهكـذا اسـتمروا معًـا يـرددون أحـاديثهم السـابقة حتـى وصـلوا إلـى أسـفل التـل. فقـال المسـيحي: "بمـا أن الصـعود كـان صـعبًا، فمـن الواضـح لـي أن النـزول خطيـر". فقـال التـدبير: "نعـم، هـذا صـحيح؛ فمـن الصـعب علـى المـرء أن ينـزل وادي التواضـع، كمـا أنـت الآن، دون أن يتعثـر فـي طريقـه؛ لـذلك،" قـالوا، "جئنـا لنرافقـك إلـى أسـفل التـل". فبـدأ بـالنزول، لكـن بحـذر شـديد، ومـع ذلـك تعثـر مـرة أو مرتين.

ثـم رأيـت فـي حلمـي أن هـؤلاء الرفـاق الطيبـين، عنـدما نـزل كريسـتيان إلـى أسـفل التـل، أعطـوه رغيـف خبـز وزجاجـة نبيـذ وعنقـود زبيـب؛ ثـم مضى في طريقه .

الفصل الرابع

لكـن الآن، فـي وادي الـذل هـذا، وجـد كريسـتيان المسـكين نفسـه فـي مـأزق حقيقـي؛ إذ لـم يقطـع سـوى مسـافة قصـيرة حتـى لمـح وحشًـا شـريرًا قادمًـا مـن الحقـل لملاقاتـه: اسـمه أبوليـون. حينهـا بـدأ الخـوف يتملـك كريسـتيان، وبـدأ يفكـر فيمـا إذا كـان عليـه التراجـع أم الثبـات فـي مكانـه. لكنـه تـذكر أنـه لا يرتـدي درعًـا يحمـي ظهـره، فظـن أن إدارة ظهره لـه قد تمنحـه ميـزة أكبـر فـي طعنـه بالسـهام بسـهولة أكبـر؛ لـذلك قـرر المجازفـة والثبـات فـي مكانـه؛ لأنـه فكـر، لـيس لـدي مـا هـو أهـم فـي عينـي مـن إنقـاذ حيـاتي، وسـيكون هـذا هـو أفضـل سـبيل للثبـات. وهكـذا مضـى قـدمًا، فواجهـه أبوليـون. كـان الـوحش بشـعًا للغايـة: كـان مغطـى بحراشـف كالسـمك، وهـي فخـره؛ ولـه أجنحـة كـالتنين، وأقـدام كالـدب، ويخـرج مـن بطنـه نـار ودخـان؛ وفمـه كفـم الأسـد. عنـدما اقترب من كريستيان، نظر إليه بازدراء، ثم بدأ يسأله:

أبوليون يبقى مسيحياً

أبوليون: من أين أتيت، وإلى أين أنت ذاهب؟

كـريس. لقـد أتيـت مـن مدينـة الخـراب، وهـي مكـان كـل شـر، وأنـا ذاهـب إلى مدينة صهيون.

أعتذر. من هذا أدرك أنك أحد رعاياي؛ فكل تلك البلاد ملكي، وأنا أميرها وإلهها. فكيف لك أن تهرب من ملكك؟ لولا أنني آمل أن تقدم لي المزيد من الخدمات، لكنت ضربتك الآن ضربة واحدة أسقطتك أرضًا.

كريس. لقد ولدت بالفعل في ملكوتك؛ لكن خدمتك كانت شاقة، وأجرك لا يكفي للعيش؛ لأن أجر الخطيئة هو الموت؛ لذلك، عندما بلغت سن الرشد، فعلت كما يفعل الأشخاص المفكرون الآخرون، راقبت، لعلني أصلح نفسي.

أبول. ليس هناك أمير سيخسر رعاياه بسهولة، ولن أخسرك أنت أيضاً؛ ولكن بما أنك تشكو من خدمتك وأجرك، فارض بالعودة، وما تقدمه بلادنا أعدك به هنا.

كريس. لكنني سمحت لنفسي بالعودة إلى آخر، حتى إلى ملك الأمراء؛ فكيف لي أن أعود معك بإنصاف؟

أبول. لقد فعلتَ في هذا وفقًا للمثل القائل: "بدّلتَ السيئَ بالأسوأ"، ولكن من الشائع أن يتخلى عنه من يدّعون أنهم خدامه بعد حين، ثم يعودوا إليّ. افعل أنتَ أيضًا مثله، وسيكون كل شيء على ما يرام.

كريس. لقد أعطيته إيماني، وأقسمت على خدمته؛ فكيف لي إذن أن أتراجع عن هذا، ولا أُشنق كخائن؟

أبول. لقد فعلت الشيء نفسه معي، ومع ذلك فأنا على استعداد لتجاوز كل شيء، إذا كنت ستعود الآن وتتراجع.

كريس، ما وعدتك به كان في شبابي، وفوق ذلك، أؤمن أن الأمير الذي أقف تحت رايته الآن قادر على تحريري، بل وعلى أن يغفر لي ما فعلته في سبيل خدمتي لك. وفوق ذلك أيضًا، يا أبوليون المُدمِّر، لأكون صادقًا، أُفضِّل خدمته، وأجره، وخدمه، وحكومته، وصحبته، ووطنه على خدمتك؛ لذا كفَّ عن محاولة إقناعي أكثر من ذلك: أنا خادمه، وسأتبعه.

أبول. فكّر مليًا، وأنتَ في حالة غضب، فيما قد تواجهه في طريقك. أنت تعلم أن معظم عباده يلقون مصيرًا سيئًا لعصيانهم لي ولسعالي. كم منهم ماتوا ميتةً شنيعة! وفوق ذلك، أنت تُفضّل خدمته على خدمتي، مع أنه لم يأتِ قط من مكانه لينقذ أحدًا ممن خدموه من أيديهم. أما أنا، فكم مرة، كما يعلم العالم أجمع، أنقذتُ، إما بالقوة أو بالخداع، من خدموني بإخلاص، من براثنه ومن براثن أتباعه، رغم وقوعهم في أيديهم! وهكذا سأنقذك.

كـريس. إن امتناعـه عـن إنقـاذهم الآن هـو اختبـارٌ مقصـودٌ لمحبـة الله، لمعرفـة مـا إذا كـانوا سيتمسـكون بـه حتـى النهايـة؛ أمـا بالنسـبة للنهايـة السيئة التـي ذكرتهـا، فهـي فـي نظـرهم غايـةٌ فـي المجـد. فهـم لا يتوقعـون الخـلاص الآن، بـل ينتظـرون مجـدهم، وسـينالونه حـين يـأتي أميرهم في مجده ومجد الملائكة.

أبـول: لقـد كنـتَ بالفعـل غيـر أمـين فـي خـدمتك لـه؛ فكيـف تظـن أنـك ستتلقى أجراً منه؟

كريس. في أي شيء يا أبوليون كنتُ غير مخلص له؟

أبـول. لقـد أغمـي عليـك فـي بدايـة رحلتـك، عنـدما كـدتَ تختنـق فـي خلـيج اليـأس. حاولـتَ طرقًـا خاطئـة للـتخلص مـن عبئـك، بينمـا كـان عليك البقـاء حتـى يُزيلـه عنـك أميـرك. نمـتَ نومًـا آثمًـا وفقـدتَ أثمـن مـا تملـك. كـدتَ أن تُقنـع بـالعودة عنـد رؤيـة الأسـود. وعنـدما تتحـدث عـن رحلتـك، وعمـا رأيـتَ وسـمعتَ، فأنـتَ فـي قـرارة نفسـك تتـوق إلـى المجد في كل ما تقوله أو تفعله.

كـريس، كـل هـذا صـحيح، وأكثـر بكثيـر ممـا أغفلتـه؛ لكـن الأميـر الـذي أخدمـه وأجلـه رحـيم ومسـتعد للمغفـرة. إضـافة إلـى ذلـك، فقـد تملكتنـي هـذه الضـعفات فـي بلـدك؛ إذ ابتلعتهـا هنـاك، وتألمـت لهـا، وشـعرت بالأسف لأجلها، ونلت غفران أميري.

أبـول. ثـم انفجـر أبوليـون فـي غضـب شـديد، قـائلاً: "أنـا عـدو لهـذا الأمير؛ أكره شخصه وقوانينه وشعبه. لقد خرجت عمداً لأقاومك".

كريستيان الفاتح

كـريس. أبوليـون، احـذر مـا تفعـل، فأنـا أسـير فـي طريـق الملـك، طريـق القداسة: لذلك انتبه لنفسك.

أبوليـون علـى طـول الطريـق، وقـال: "لا أخشـى شـيئًا فـي هـذا الأمـر. اسـتعدّ للمـوت؛ فأنـا أقسـم بجحيمـي أنـك لـن تـذهب أبعـد مـن ذلـك: هنـا سـأُريق روحـك". ثـمّ ألقـى سـهمًا مُشـتعلًا علـى صـدره؛ لكـن كريسـتيان كان يحمل درعًا في يده، فأمسكه، وبذلك تجنّب خطر ذلك.

ثـم اسـتلّ كريسـتيان سـيفه، فقـد رأى أن الوقـت قـد حـان لإيقاظـه؛ فـانقضّ عليـه أبوليـون بسـرعة، يرمـي عليـه سـهامًا كثيفـة كحبـات البـرد، والتـي أصـابته، رغـم كـل مـا فعلـه كريسـتيان لتفاديهـا، فـي رأسـه ويـده وقدمـه. ممـا جعـل كريسـتيان يتراجـع قلـيلًا؛ فواصـل أبوليـون هجومـه، فاسـتعاد كريسـتيان شـجاعته، وقـاوم بكـل مـا أوتـي مـن قـوة. اسـتمر هـذا القتـال الضـاري لأكثـر مـن نصـف يـوم، حتـى كـاد كريسـتيان أن يُنهـك تمامًـا. فـلا بـدّ أن تعلـم أن كريسـتيان، بسـبب جراحه، كان يزداد ضعفًا شيئًا فشيئًا.

ثم انتهز أبوليون الفرصة، واقترب من كريستيان، وصارعه، فأوقعه أرضًا سقوطًا مروعًا، فطار سيف كريستيان من يده. فقال أبوليون: "أنا متأكد منك الآن". وبهذا، كاد أن يودي بحياته، حتى كاد كريستيان يفقد الأمل في الحياة. ولكن شاءت الأقدار، وبينما كان أبوليون يستعد لتوجيه ضربته الأخيرة، ليقضي على هذا الرجل الصالح، مدّ كريستيان يده بخفة ليأخذ سيفه، وأمسكه قائلًا: "لا تشمتي بي يا عدوي، فإني إذا سقطت سأقوم". ثم طعنه طعنة قاتلة، جعلته يتراجع كمن تلقى جرحًا مميتًا. ولما أدرك كريستيان ذلك، هاجمه ثانية قائلًا: "بل في كل هذه الأمور نحن أكثر من منتصرين بالذي أحبنا". وبعد ذلك، فرد أبوليون جناحي تنينه، وانطلق بعيدًا، ولم يره كريستيان بعد ذلك لفترة من الزمن.

في هذه المعركة، لا يمكن لأحد أن يتخيل، إلا من رأى وسمع مثلي، صراخ أبوليون وزئيره المرعب طوال القتال: كان يتكلم كالتنين؛ وعلى الجانب الآخر، ما انفجر من أنين ودموع كريستيان. لم أره طوال الوقت يبدي أي ابتسامة، حتى أدرك أنه جرح أبوليون بسيفه ذي الحدين؛ حينها ابتسم ونظر إلى الأعلى؛ لكنه كان أبشع مشهد رأيته في حياتي.

مسيحي يعرب عن امتنانه

كريس. لذلك، عندما انتهت المعركة، قال كريستيان: "سأشكر هنا من أنقذني من فم الأسد، ومن أعانني على أبوليون". وهكذا فعل، قائلاً:

"الشيطان الأعظم، قائد هذا الشيطان، دبر هلاكي؛ لذلك أرسله لهذا الغرض مُجهزًا: وبغضبٍ جهنمي، هاجمني بشراسة؛ لكن الملائكة المباركة أنقذتني؛ وبقوة السيف، جعلته يفرّ سريعًا: لذلك دعوني أرفع الحمد لله دائمًا، وأشكر اسمه القدوس وأباركه دائمًا."

ثم أتت إليه يدٌ تحمل بعض أوراق شجرة الحياة، فأخذها كريستيان ووضعها على جراحه التي أصيب بها في المعركة، فشفى في الحال. وجلس في ذلك المكان ليأكل خبزًا ويشرب من الزجاجة التي أُعطيت له قبل قليل، وبعد أن استعاد نشاطه، انطلق في رحلته وسيفه مسلول في يده، قائلاً: "لا أدري إن كان هناك عدو آخر يتربص به". لكنه لم يُصب بأذى آخر من أبوليون طوال رحلته في هذا الوادي.

وفي نهاية هذا الوادي كان هناك وادٍ آخر يُسمى وادي ظل الموت، وكان على المسيحي أن يمرّ به، لأن الطريق إلى المدينة السماوية يمرّ من وسطه. وهذا الوادي مكانٌ موحشٌ للغاية، وقد وصفه

النبـــي إرميـــا قـــائلاً: «بريـــةٌ قاحلـــة، أرضٌ صـــحراويةٌ وحفـــرٌ، أرضٌ قاحلـــةٌ وظـــلالُ مـــوت، أرضٌ لا يمـــرّ بهـــا إنســـانٌ» إلا المســـيحي، «ولا يسكنها أحدٌ».

وهنـا تعـرض كريسـتيان لموقـف أسـوأ ممـا تعـرض لـه فـي قتالـه مـع أبوليون، كما سترون في القصة.

رأيـت حينهـا فـي حلمـي أنـه عنـدما وصـل كريسـتيان إلـى حـدود ظـل المـوت، قابلـه رجـلان، أبنـاء أولئـك الـذين كـانوا ينشـرون أخبـاراً سيئة عـــن الأرض الطيبـــة، وكـــانوا يســـرعون بـــالعودة؛ فتحـــدث إلـــيهم كريستيان على النحو التالي:

كريس، إلى أين أنت ذاهب؟

للرجـال : "تراجعـوا، تراجعـوا!" ونريـدكم أن تفعلـوا ذلـك أيضـاً، إذا كنتم تقدرون الحياة أو السلام.

كريس: "لماذا، ما الأمر؟" قال كريستيان.

الرجـال : "يـا رجـل! كنـا نسـير فـي نفـس الطريـق الـذي تسـير فيـه، وذهبنـا إلـى أبعـد مـا تجرأنـا عليـه: وفـي الواقـع كنـا علـى وشـك العـودة؛ لأنه لو ذهبنا أبعد قليلاً، لما كنا هنا لننقل إليك الأخبار."

كريس: "لكن مع ماذا قابلت؟" سأل كريستيان.

يـا رجـال. لمـاذا، كنـا علـى وشـك الوصـول إلـى وادي ظـل المـوت، ولكـن لحسن الحظ نظرنا أمامنا، ورأينا الخطر قبل أن نصل إليه.

كريس: "لكن ماذا رأيت؟" قال كريستيان.

رجـال. لقـد رأينـا! بـل رأينـا الـوادي نفسـه، وهـو حالـك السـواد كالقطـب: رأينـا فيـه أيضًـا العفاريـت، والسـاتير، والتنـانين مـن الهاويـة؛ وسـمعنا فـي ذلـك الـوادي عـويلًا وصـراخًا متواصـلًا، كأنـه صـراخ شـعبٍ يعـاني مـن بـؤسٍ لا يوصـف، يجلسـون هنـاك مكبلـين فـي الـبلاء والقيـود؛ وفـوق ذلـك خيمـت غيـومٌ مُحبطـة مـن الفوضـى؛ والمـوت أيضًـا يبسـط جناحيـه عليـه دائمًـا. باختصـار، إنـه مكـانٌ مرعـبٌ بكـل معنـى الكلمـة، فوضويٌّ تمامًا.

كـريس. ثـم قـال كريسـتيان: "لـم أدرك بعـد، ممـا قلتـه، إلا أن هـذا هـو طريقي إلى الملاذ المنشود".

الرجال، فليكن ما تريدون، لن نختاره لأنفسنا.

وهكـذا افترقـا، ومضـى كريسـتيان فـي طريقـه، لكنـه ظـل يحمـل سـيفه مسلولاً في يده، خوفاً من أن يتعرض للهجوم.

رأيتُ في حلمي، حتى بلغ هذا الوادي مداه، خندقًا عميقًا جدًا على اليمين؛ ذلك الخندق هو الذي قاد فيه العميان بعضهم بعضًا على مر العصور، وهلك كلاهما هناك هلاكًا بائسًا. ثم رأيتُ على اليسار مستنقعًا شديد الخطورة، أو أرضًا موحلة، حتى لو سقط فيها رجل صالح، فلن يجد فيها قاعًا تطأه قدمه: في ذلك المستنقع سقط الملك داود ذات مرة، ولولا أن الله القدير أنقذه، لكان قد اختنق هناك.

كان الطريق هنا ضيقًا للغاية، ولذلك كان كريستيان الصالح أكثر معاناة؛ فعندما كان يحاول، في الظلام، تجنب الخندق، كان من جهة على وشك السقوط في الوحل، ومن جهة أخرى على وشك السقوط فيه؛ وكذلك عندما كان يحاول الخروج من الوحل، كان على وشك السقوط في الخندق دون توخي الحذر الشديد. وهكذا استمر في طريقه، وسمعته يتنهد بمرارة، فإلى جانب الخطر المذكور آنفًا، كان الطريق هنا شديد الظلام، لدرجة أنه في كثير من الأحيان، عندما كان يرفع قدمه للمضي قدمًا، لم يكن يعرف أين أو على ماذا سيضعها تاليًا.

شركة من الأشرار

في منتصف هذا الوادي تقريبًا، رأيتُ فم الجحيم، وكان يقف أيضًا على جانب الطريق. الآن، فكّر كريستيان، ماذا أفعل؟ وبين الحين والآخر، كانت النيران والدخان يتصاعدان بغزارة، مصحوبين بشرر وأصوات بشعة (أشياء لم تُعر سيف كريستيان أي اهتمام، كما فعل أبوليون من قبل)، مما اضطره إلى غمد سيفه، واللجوء إلى سلاح آخر يُسمى "الصلاة الشاملة". فصرخ في مسمعي: "يا رب، أتوسل إليك، أنقذ نفسي". وهكذا استمرّ لفترة طويلة، ومع ذلك كانت النيران لا تزال تقترب منه؛ كما سمع أصواتًا حزينة، وأصوات هرج ومرج، حتى أنه ظنّ أحيانًا أنه سيُمزّق إربًا إربًا، أو يُداس كالوحل في الشوارع. رأى هذا المشهد المرعب، وسمع تلك الأصوات المخيفة، على امتداد عدة أميال، وعندما وصل إلى مكان ظن أنه يسمع فيه جماعة من الشياطين تتقدم نحوه، توقف وبدأ يفكر فيما يجب عليه فعله. راودته أحيانًا فكرة العودة، ثم عاد يفكر أنه ربما يكون قد قطع نصف الوادي. وتذكر أيضًا كيف أنه قد تغلب على مخاطر كثيرة، وأن خطر العودة قد يكون أكبر بكثير من خطر التقدم. لذلك عزم على المضي قدمًا؛ ومع ذلك، بدت الشياطين تقترب أكثر فأكثر. ولكن عندما كادت أن تلامسه، صرخ بصوت عالٍ: "سأسير بقوة الرب الإله". فتراجعت ولم تتقدم أكثر.

وادي ظل الموت

أمرٌ واحدٌ لم أغفل عنه: لاحظتُ أن كريستيان المسكين كان في حيرةٍ شديدةٍ لدرجة أنه لم يعد يُميّز صوته؛ وهكذا أدركتُ الأمر:

عندما وصل إلى حافة الهاوية، اقترب منه أحد الأشرار من الخلف، وتسلل إليه بهدوء، وهمس في أذنه بكلماتٍ بذيئةٍ ظنّ كريستيان أنها صادرةٌ من قلبه. أثار هذا الأمر في كريستيان أكثر من أي شيءٍ واجهه من قبل، حتى أنه فكّر في أن يتكلم بالسوء عن من أحبّه كثيرًا. ومع ذلك، لو كان بإمكانه تجنّب ذلك، لما فعل؛ لكنه لم يكن يملك الحكمة ليسدّ أذنيه، أو ليعرف من أين أتت تلك الكلمات البذيئة.

عندما سافر كريستيان في هذه الحالة المحزنة لفترة طويلة، ظن أنه سمع صوت رجل يتقدمه قائلاً: "وإن سرت في وادي ظل الموت، فلن أخاف شراً، لأنك معي".

ثم فرح، وذلك للأسباب التالية:

أولاً، لأنه استنتج من ذلك أن بعض الذين يخشون الله كانوا في هذا الوادي مثله.

ثانيًا، لأنه أدرك أن الله كان معهم، رغم حالتهم المظلمة والكئيبة. وتساءل في نفسه: لماذا لا يكون معي، رغم أنني لا أستطيع إدراك ذلك بسبب اللطف الذي يحيط بهذا المكان؟

ثالثًا، لأنه كان يأمل (أن يلحق بهم) أن يجد رفيقًا بعد قليل. فمضى، ونادى الذي كان أمامه؛ لكنه لم يدرِ ما يجيب، لأنه ظن نفسه وحيدًا. وبعد قليل أشرق النهار. فقال كريستيان: «لقد حوّل ظل الموت إلى فجر».

ولما بزغ الصباح، التفت إلى الوراء، لا رغبةً في العودة، بل ليرى في ضوء النهار المخاطر التي واجهها في الظلام. فرأى بوضوحٍ أكبر الخندق الذي كان على جانب، والمستنقع الذي كان على الجانب الآخر، وضيق الطريق الذي يفصل بينهما. ورأى أيضًا العفاريت والساتير والتنانين التي تسكن الهاوية، ولكن من بعيد؛ إذ لم تقترب بعد بزوغ الفجر، ومع ذلك فقد ظهرت له كما هو مكتوب: «يُظهر الخفايا من الظلمة، ويُخرج ظل الموت إلى النور».

لقد تأثر كريستيان بشدة لنجاته من جميع مخاطر رحلته المنعزلة؛ تلك المخاطر التي كان يخشاها بشدة من قبل، لكنه رآها الآن بوضوح أكبر، لأن نور النهار جعلها جلية له. وفي ذلك الوقت تقريبًا، كانت الشمس تشرق، وكانت هذه نعمة أخرى لكريستيان؛ إذ يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الجزء الأول من وادي ظل الموت كان خطيرًا، إلا أن هذا الجزء الثاني، الذي كان لا يزال عليه أن يسلكه، كان إن أمكن أشد خطورة؛ فمن المكان الذي كان يقف فيه الآن، وحتى نهاية الوادي، كان الطريق مليئًا بالفخاخ والمصائد والشباك هنا، ومليئًا بالحفر والمزالق والآبار العميقة

والمنخفضات هناك، لدرجة أنه لو كان الظلام حالكًا الآن، كما كان الحال عندما وصل إلى الجزء الأول من الطريق، ولو كان معه ألف روح، لكانوا قد هلكوا لا محالة. ولكن، كما قلت للتو، كانت الشمس تشرق. ثم قال: "إن شمعته تضيء على رأسي، وبنوره أسير في الظلام".

البابا والوثني

في ضوء ذلك، وصل إلى نهاية الوادي. رأيت في حلمي أن في نهاية الوادي دماءً وعظامًا ورمادًا وجثثًا ممزقة لرجال، حتى للحجاج الذين سلكوا هذا الطريق سابقًا؛ وبينما كنت أفكر في السبب، لمحت أمامي كهفًا، سكنه عملاقان، البابا والوثني، في سالف الزمان؛ وبقوتهما وطغيانهما، قُتل الرجال الذين كانت عظامهم ودماؤهم ورمادهم وما إلى ذلك هناك، بوحشية. لكن كريستيان مر من هذا المكان دون خطر، الأمر الذي أثار استغرابي بعض الشيء؛ لكنني علمت لاحقًا أن الوثني قد مات منذ زمن طويل. أما الآخر، فرغم أنه لا يزال على قيد الحياة، إلا أنه بسبب تقدمه في السن، وبسبب كثرة الحوادث المؤسفة التي واجهها في شبابه، أصبح مجنوناً ومتصلباً في مفاصله، لدرجة أنه لا يستطيع الآن أن يفعل أكثر من الجلوس في فم كهفه، يبتسم للحجاج وهم يمرون، ويقضم أظافره لأنه لا يستطيع الوصول إليهم.

فرأيتُ كريستيان يمضي في طريقه، ولكن لما رأى الشيخ الجالس عند مدخل الكهف، لم يدري ما يفكر، خاصةً أنه خاطبه قائلًا: "لن تُشفى حتى يحترق المزيد منك". لكنه صمت، وأظهر رباطة جأش، ومضى دون أن يُصاب بأذى. ثم أنشد كريستيان:

يا عالم العجائب (لا يسعني إلا أن أقول ذلك)، كيف حُفظتُ في تلك المحنة التي واجهتني هنا! يا لها من يد مباركة أنقذتني منها! لقد أحاطت بي مخاطر الظلام، والشياطين، والجحيم، والخطيئة، بينما كنتُ في هذا الوادي؛ نعم، كانت الفخاخ والحفر والمصائد والشباك منصوبة في طريقي، حتى أنني كنتُ سأقع في شركها وأُقيد وأُلقى أرضًا، ولكن ما دمتُ حيًا، فليكن التاج من نصيب يسوع.

الفصل الخامس

وبينما كان كريستيان يمضي في طريقه، وصل إلى مرتفع صغير بُني خصيصًا ليراه الحجاج أمامهم. فصعد كريستيان إلى هناك، ونظر إلى الأمام فرأى فيثفول أمامه في رحلته. فقال كريستيان بصوت عالٍ: "هو هو! سو هو! انتظر، وسأكون رفيقك". عندئذٍ التفت فيثفول خلفه، فصاح كريستيان: "انتظر، انتظر حتى أصل

إليك". لكن فيثفول أجاب: "لا، أنا أقسم بحياتي، ومنتقم الدماء خلفي".

مسيحي ينضم إلى المؤمنين

عندها تأثر كريستيان قليلاً، فبذل كل ما في وسعه، ونهض سريعاً مع فيثفول، بل وسبقه أيضاً، فكان الأخير هو الأول. ثم ابتسم كريستيان متفاخراً لأنه سبق أخاه، لكنه لم ينتبه جيداً لقدميه، فتعثر فجأة وسقط، ولم يستطع النهوض حتى جاء فيثفول لمساعدته.

ثم رأيت في حلمي أنهما واصلا سيرهما معًا بمحبة شديدة، وتبادلا الحديث العذب عن كل ما حدث لهما في رحلتهما؛ وهكذا بدأ كريستيان:

كريس. أخي العزيز والمحبوب، أنا سعيد لأنني سبقتك، ولأن الله قد صقل أرواحنا بحيث يمكننا أن نسير كرفقاء في هذا الطريق الممتع.

يا صديقي العزيز، كنت أظن أنك سترافقني من مدينتنا؛ لكنك سبقتني، ولذلك اضطررت إلى قطع هذا الجزء من الطريق بمفردي.

كريس، كم من الوقت مكثت في مدينة الدمار قبل أن تنطلق في رحلتك بعدي؟

ما قيل في المدينة

الإيمان. حتى لم أعد أستطيع البقاء؛ لأنه كان هناك حديث كبير، بعد مغادرتك مباشرة، بأن مدينتنا ستحترق في وقت قصير بنار من السماء حتى الأرض.

كريس: ماذا! هل تحدث جيرانك هكذا؟

الإيمان. نعم، لقد كان على لسان الجميع لفترة من الوقت.

كريس: ماذا! ألم يخرج أحد غيرك هرباً من الخطر؟

الإيمان. مع أن الأمر دار، كما ذكرت، حوله نقاشٌ طويل، إلا أنني لا أعتقد أنهم كانوا يؤمنون به إيمانًا راسخًا. ففي غمرة النقاش، سمعت بعضهم يسخرون منك ومن رحلتك المحفوفة بالمخاطر، إذ أطلقوا عليها اسم "حجّك". لكني كنت أؤمن، وما زلت أؤمن، بأن نهاية مدينتنا ستكون بنار وكبريت من السماء، ولذلك هربت.

كريس، ألم تسمع أي حديث عن الجار بلايبل؟

الإيمـان. نعـم يـا كريسـتيان؛ سـمعت أنـه تبعـك حتـى وصـل إلـى مسـتنقع اليـأس، حيـث سـقط فيـه كمـا قـال الـبعض؛ لكـن مـن غيـر المعـروف أنـه فعـل ذلـك؛ لكنـي متأكـد مـن أنـه كـان مغطـى تمامًـا بهـذا النـوع مـن الأوساخ.

كريس. وماذا قال له الجيران؟

إيمـان. منـذ عودتـه، أصـبح موضـع سـخرية كبيـرة، وذلـك بـين جميـع أنـواع النـاس: بعضـهم يسـخر منـه ويحتقـره، ونـادراً مـا يُكلفـه أحـد بالعمل. حاله الآن أسوأ بسبع مرات مما لو لم يغادر المدينة قط.

كـريس. ولكـن لمـاذا يجـب أن يكونـوا ضـده بشـدة، طالمـا أنهـم يحتقرون أيضاً الطريقة التي تخلى بها عن نفسه؟

الإيمـان. يقولـون: "أجـل، شـنقوه! إنـه خـائن! لـم يكـن وفيـاً لمهنتـه!" أعتقـد أن الله قـد أثـار حتـى أعداءه ليسـخروا منـه ويسـخروا منـه، لأنـه قد هجر الطريق.

كريس، ألم تتحدث معه قبل أن تخرج؟

الإيمـان. قابلتـه مـرة فـي الشـوارع، لكنـه انصـرف مبتسـماً مـن الجانـب الآخر، كمن يخجل مما فعله؛ لذلك لم أتحدث إليه.

كـريس. حسـنًا، فـي بدايـة رحلتـي، كنـتُ أُعلّـق آمـالًا علـى ذلـك الرجـل، لكننـي الآن أخشـى أن يهلـك فـي خضـمّ سـقوط المدينـة. فقـد حـلّ بـه مـا يُقـال فـي المثـل: "عـاد الكلـب إلـى قيئـه، والخنزيـرة التـي غُسـلت إلـى تمرغها في الوحل".

الإيمـان. هـذه مخـاوفي منـه أيضـاً؛ ولكـن مـن يسـتطيع أن يمنـع مـا سيحدث؟

كـريس : "حسـنًا يـا جـاري المخلـص، دعنـا نتركـه ونتحـدث عـن أمـور تهمنـا بشـكل مباشـر. أخبرنـي الآن بمـا صـادفته فـي طريقـك؛ فأنـا أعلـم أنك صادفت بعض الأشياء، وإلا فقد يكون الأمر عجيبًا."

يـا إيمـان. لقـد نجـوت مـن المسـتنقع الـذي أظـن أنـك سـقطت فيـه، ووصـلت إلـى البوابـة دون ذلـك الخطـر؛ فقـط قابلـت شخصًـا اسـمه ونتون، والذي كان يريد أن يلحق بي الأذى.

كـريس، كـان مـن حسـن حظـك أنـك نجـوت مـن شـباكها: لقـد عـانى يوسـف كثيـراً بسـببها، ونجـا منهـا كمـا فعلـت أنـت؛ لكـن ذلـك كـاد أن يكلفه حياته. ولكن ماذا فعلت بك؟

الإيمـان. لا يمكنـك أن تتخيـل (لكنـك تعلـم شـيئاً) كـم كـان لسـانها متملقـاً؛ لقد حاولت جاهدة أن أبتعد معها، ووعدتني بكل أنواع المتعة.

كريس. كلا، لم تعدك بالتمتع براحة الضمير.

الإيمان. أنت تعرف ما أعنيه ـ ليس متعة الروح، بل متعة الجسد.

كـريس. الحمـد لله أنـك نجـوت منهـا: إن مـن يكـرههم الـرب سيسـقطون في خندقها.

الإيمان. كلا، لا أعرف ما إذا كنت قد نجوت منها تماماً أم لا.

كريس. لماذا، أظن أنك لم توافق على رغباتها؟

إيمـان. لا، لـيس لكـي أدنـس نفسـي؛ فقـد تـذكرت كتابـة قديمـة رأيتهـا تقـول: "خطواتهـا تقـود إلـى الجحـيم". فأغمضـت عينـيّ، لأنـي لـم أرد أن أفتتن بنظراتها. ثم شتمتني، فمضيت في طريقي.

كريس، هل لم تتعرض لأي اعتداء آخر أثناء قدومك؟

المؤمن وآدم الأول

الإيمــان. عنــدما وصــلتُ إلــى ســفح التــل المســمى بالصــعوبة، قابلــتُ رجـلاً طاعنـاً فـي السـن، فسـألني عـن هـويتي وإلـى أيـن أنـا ذاهـب. فأجبتـه أننـي حـاجٌّ ذاهـب إلـى المدينـة السـماوية. فقـال لـي الشـيخ: "تبـدو رجـلاً صـادقاً، فهـل ترضـى بالإقامـة معـي مقابـل الأجـر الـذي سـأدفعه لـك؟" فسـألته عـن اسـمه ومكـان سـكنه. فقـال إن اسـمه آدم الأول، وأنــه يســكن فــي مدينــة الخــداع. فســألته حينهــا عــن عملــه، وعــن أجــره. فــأخبرني أن عملــه ملــيء بالملــذات، وأن أجــره أننــي ســأكون وارثــه فــي النهايــة. ثــم ســألته عــن بيتــه، وعــن خدمــه. فـأخبرني أن بيتـه ملـيء بأطايـب الـدنيا، وأن خدمـه هـم أبنـاؤه. فسـألته كــم عــدد أبنائــه. قــال إنــه لا يملــك إلا ثــلاث بنــات: شــهوة الجســد، وشــهوة العيــون، وكبريــاء الحيــاة، وأنــه بإمكــاني الــزواج مــنهن إن أردت. فسـألته: إلـى متـى سيسـمح لـي بـالعيش معـه؟ فأجـابني: مـا دام حيًا.

كـريس: حسـناً، ومـا هـي النتيجـة التـي توصـلت إليهـا أنـت والرجـل العجوز في النهاية؟

الإيمـان. فـي البدايـة، وجـدت نفسـي أميـل إلـى حـد مـا إلـى الـذهاب مـع الرجـل، لأننـي اعتقـدت أنـه يتحـدث بشـكل جيـد للغايـة؛ ولكـن بـالنظر إلـى جبينـه، أثنـاء حـديثي معـه، رأيـت مكتوبًـا هنـاك: "اخلـع الإنسـان العتيق مع أعماله".

كريس. وكيف بعد ذلك؟

إيمـان. حينهـا خطـرت ببـالي فكـرةٌ مُلتهبـة، مهمـا قـال ومهمـا تملّـق، فإنــه حــين يعــود إلــى بيتــه ســيبيعني عبــدًا. فأمرتــه بــالكفّ، لأنــي لــن

أقترب من باب بيته. فشتمني، وقال إنه سيرسل ورائي من يُعذّب روحي. فاستدرتُ لأبتعد عنه، ولكن ما إن استدرتُ حتى شعرتُ به يمسك بجسدي، ويدفعني بقوةٍ مُميتةٍ إلى الخلف، حتى ظننتُ أنه سحب جزءًا مني خلفه: فصرختُ: "يا له من رجلٍ بائس!". فتابعتُ طريقي صعودًا إلى التل. ولما وصلتُ إلى منتصف الطريق تقريبًا، نظرتُ خلفي، فرأيتُ من يتبعني سريعًا كالريح، فلحق بي عند المكان الذي يقف فيه المقعد.

كريس : "هناك بالضبط، جلست لأرتاح؛ ولكنني غلبني النعاس، فسقطت هذه اللفافة من صدري."

إيمان. لكن يا أخي العزيز، اسمعني. ما إن أدركني الرجل حتى كان مجرد كلمة ولكمة؛ فقد أسقطني أرضًا، وظنني ميتًا. ولكن عندما استعدت وعيي قليلًا، سألته عن سبب فعله بي هكذا. قال: بسبب ميلي الخفي إلى آدم الأول. ثم وجه إليّ لكمة قاتلة أخرى على صدري، وضربني حتى سقطت على ظهري؛ فبقيتُ عند قدميه ميتًا كما كنت. وعندما استعدت وعيي، توسلت إليه أن يرحمني؛ لكنه قال: "لا أعرف كيف أرحم"؛ ثم أسقطني أرضًا مرة أخرى. لا شك أنه قضى عليّ، لكن ذلك الشخص مرّ وأمره أن يكفّ.

كريس. من كان ذلك الذي طلب منه التوقف؟

الإيمان. لم أكن أعرفه في البداية؛ ولكن بينما كان يمر، لاحظتُ آثار الجروح في يديه وجنبه؛ عندها استنتجتُ أنه ربنا. فصعدتُ التل.

كريس، ذلك الرجل الذي سبقك هو موسى. إنه لا يرحم أحداً، ولا يعرف كيف يرحم من يعصي شريعته.

الإيمان. أعرفه جيداً: لم تكن هذه المرة الأولى التي يلتقيني فيها. هو الذي جاءني عندما كنت أعيش بأمان في بيتي، وأخبرني أنه سيحرق بيتي فوق رأسي إن بقيت هناك.

كريس. لكن ألم ترَ البيت الذي كان قائماً هناك، على قمة ذلك التل الذي قابلك فيه موسى؟

الإيمان. نعم، والأسود أيضاً، قبل أن أهاجمها. لكن بالنسبة للأسود، أعتقد أنها كانت نائمة، فقد كان الوقت حوالي الظهر؛ ولأنني كنت ما زلت أتمتع بوقت طويل من اليوم، مررت بجانب البواب، ونزلتُ التل.

كريس. أخبرني بالفعل أنه رآك تمرّ، لكنني تمنيت لو أنك زرت المنزل، لكانوا أروك الكثير من النوادر، لدرجة أنك لن تنساها حتى مماتك. لكن أخبرني، ألم تقابل أحدًا في وادي التواضع؟

الإيمــان. نعــم، التقيــتُ بأحــد الســاخطين، الــذي كــان ســيُقنعني بكــل سـرور بـالعودة معـه: كـان حجتـه أن الـوادي خـالٍ تمامًـا مـن الشـرف. أخبرنـــي أيضًـــا أن الـــذهاب إلـــى هنـــاك هـــو الســـبيل لإغضـــاب جميـــع أصـــدقائي، مثـــل الكبريـــاء والغطرســـة والغـــرور والمجـــد الـــدنيوي، وغيــرهم ممــن يعلــم، كمــا قــال، أنهــم سيشــعرون بإهانــة بالغــة إذا تصرفتُ بحماقةٍ كهذه ودخلتُ هذا الوادي.

كريس: حسناً، وكيف أجبته؟

الإيمـان. أخبرتـه أنـه علـى الـرغم مـن أن كـل هـؤلاء الـذين ذكـرهم قـد يـدّعون قرابتـي، وهـذا صـحيح (لأنهـم فـي الواقـع أقـاربي بالجسـد)، إلا أنهـم منـذ أن أصـبحت غريبًـا عـنهم، تبـرأوا منـي كمـا تبـرأتُ مـنهم؛ ولـذلك لـم يعـودوا لـي شـيئًا كمـا لـو أنهـم لـم يكونـوا مـن نسـلي قـط. وأخبرتــه أيضًــا أنــه فيمــا يتعلــق بهــذا الــوادي، فقــد أســاء فهــم الأمــر تمامًــا؛ فالتواضــع يســبق الشــرف، والغــرور يســبق الســقوط. فقلــت: "لـــذلك، أفضـــل أن أســـلك هـــذا الـــوادي لنيـــل الشـــرف الـــذي يُقـــدّره الحكماء، على أن أختار ما يراه هو الأجدر بمحبتنا".

كريس. هل التقيت بك في ذلك الوادي ولم يكن لدي أي شيء آخر؟

عار على شرير جريء

الإيمـان. نعـم، لقـد التقيـتُ بالعـار؛ ولكـن مـن بـين جميـع الرجـال الـذين قـابلتهم فـي رحلتـي، أعتقـد أنـه يحمـل الاسـم الخطـأ. الآخـرون كـانوا سـيقبلون الـرفض، علـى الأقـل بعـد بعـض كلمـات الإنكـار؛ لكـن هـذا العار الوقح لم يكن ليقبله أبدًا.

كريس. لماذا، ماذا قال لك؟

الإيمـان. مـاذا؟ بـل إنـه اعتـرض علـى الـدين نفسـه. قـال إنـه لأمـرٌ مثيـرٌ للشــفقة، ودنـــيء، ومُخـــادع أن يهـــتم المـــرء بالـــدين. قـــال إن الضـــمير الرقيـــق لـــيس مـــن شـــيم الرجـــال؛ وأن الرجـــل الـــذي يُراقـــب أقوالـــه وأفعالـه، فيُقيـد نفسـه عـن تلـك الحريـة التـي اعتـاد عليهـا شـجعان ذلـك الزمــان، ســيجعله أضــحوكة جميــع النــاس فــي زماننــا. واعتــرض أيضًــا علــى أن قلــةً مــن الأقويــاء والأغنيــاء والحكمــاء كــانوا فــي رأيــي؛ ولــم يُقـدم أيٌ مـنهم، قبـل أن يُقنعـوا بحمـاقتهم، علـى المخـاطرة بخسـارة كـل شــيء لأن لا أحــد يعلــم مــا ســيحدث. عــلاوة علــى ذلــك، اعتــرض علــى الوضـع المتـدني والـدنيوي لأولئـك الـذين كـانوا فـي الغالـب مـن الحجـاج فــي ذلــك الزمــان؛ وكــذلك جهلهــم، وقلــة فهمهــم لكــل المعــارف الدنيويــة. نعــم، لقــد حاســبني علــى هــذا أيضًــا، علــى أشــياء كثيــرة أخــرى لــم أذكرهــا هنــا. كمــا قــال إنــه مــن العــار الجلــوس متــذمرًا وحزينًــا أثنــاء الموعظـة، ومـن العـار العـودة إلـى المنـزل متألمًـا ومتأوهًـا؛ وأنـه مـن العـار طلـب المغفـرة مـن الجـار علـى أخطـاء صـغيرة، أو رد مـا أخذتـه

مـن أي شـخص. وقـال أيضًـا إن الـدين يجعـل المـرء غريبًـا عـن العظمـاء بسـبب بعـض الرذائـل (التـي سـماها بأسـماء أرقـى)، ولأن الـدين يجعلـه يحتـرم عامـة النـاس، الـذين هـم مـن نفـس الجماعـة الدينية؛ "أليس هذا عارًا؟" قال.

كريس. وماذا قلت له؟

الإيمـان. مـاذا تقـول؟ لـم أسـتطع فـي البدايـة أن أعـرف مـاذا أقـول. أجـل، لقـد اسـتفزني بشـدة حتـى احمـرّ وجهـي خجـلاً؛ حتـى هـذا العـار أثـاره، وكـاد أن يُفقـدني صـوابي. لكننـي فـي النهايـة بـدأت أفكـر أن مـا يُعتبـر ذا قيمـة عاليـة بـين النـاس هـو فـي نظـر الله مكـروه. وفكـرت مـرة أخـرى، هـذا العـار يُخبرنـي بماهيـة البشـر، لكنـه لا يُخبرنـي شـيئًا عـن الله، أو عـن كلمـة الله. وفكـرت أيضًـا، أنـه فـي يـوم القيامـة لـن نُحكـم بـالموت أو الحيـاة وفقًـا لأهـواء الـدنيا، بـل وفقًـا لحكمـة وشـريعة العلـيّ القـدير. لـذلك، فكـرت، مـا يقولـه الله أنـه الأفضـل هـو الأفضـل، حتـى لـو كـان جميـع النـاس فـي العـالم ضـده. بمـا أن الله يُفضّـل دينـه؛ وبمـا أن الله يُفضّـل الضـمير الحـيّ؛ وبمـا أن الـذين يُظهـرون أنفسـهم بمظهـر الحمقـى مـن أجـل ملكـوت السـماوات هـم الأكثـر حكمـة، وأن الفقيـر الـذي يُحـب المسيح أغنـى مـن أعظـم رجـل فـي العـالم يُبغضـه؛ يـا للعـار، ارحـل! أنـت عـدوٌّ لخلاصـي. أأطيعك ضـد سـيدي؟ كيـف لـي أن أواجهـه عنـد مجيئـه؟ أخجـل الآن مـن سـبيله وعبـاده، كيـف لـي أن أتوقـع البركـة؟ لكـن، فـي الحقيقـة، كـان هـذا الخجـل عـدوًّا شـريرًا: بالكـاد اسـتطعت الـتخلص منـه؛ بـل كـان يلاحقنـي، ويهمـس فـي أذنـي باسـتمرار بـبعض الأمـور الضـعيفة التـي تصـاحب الـدين. لكـن فـي النهايـة أخبرتـه أنـه مـن العبث الاستمرار فـي هـذا الأمـر؛ لأن فـي تلـك الأمـور التـي يحتقرهـا، رأيـت أعظـم مجـد؛ وهكـذا، فـي النهايـة، تجاوزت هذا المُلحّ. وعندما تخلصت منه، بدأت بالغناء.

«إنّ المحـن التـي يواجههـا أولئـك الرجـال، الـذين يطيعـون النـداء السـماوي، كثيـرة ومتنوعـة، وتناسـب طبيعـة الجسـد، وتـأتي وتعـود مـن جديـد؛ حتـى إذا مـا أُخـذنا بهـا الآن أو فـي وقـت آخـر، نُهـزم ونُطـرد. فلـيكن الحجـاج، فلـيكن الحجـاج إذن، متيقظـين وليتصـرفوا كرجال!»

كـريس، أنـا سـعيد يـا أخـي لأنـك قاومـت هـذا الوغـد بشـجاعة، فكمـا تقـول، أظـن أنـه يُطلـق عليـه اسـمًا خاطئًـا؛ فهـو جـريءٌ لدرجـة أنـه يلاحقنـا فـي الشـوارع، ويحـاول إحراجنـا أمـام النـاس، أي أن يجعلنـا نخجل ممـا هو خير. ولكن لو لـم يكن جريئًـا، لمـا تجرأ على فعل ذلك. فلنواصـل مقاومتـه، فمـع كـل كلماتـه الجريئـة، هـو لا يُعلـي شـأن إلا الأحمـق. قـال سـليمان: "الحكـيم يـرث المجـد، أمـا الأحمـق فيـرث الخزي".

الإيمــان. أعتقـد أنــه يجـب علينــا أن نصـرخ إليــه طلبــاً للمســاعدة ضـد الخزي الذي يريدنا أن نكون شجعاناً من أجل الحق على الأرض.

كــريس، كلامــك صــحيح. لكــن ألــم تقابــل أي شــخص آخــر فــي ذلــك الوادي؟

الإيمـــان. لا، لـــيس أنـــا؛ لأننـــي كنـــت أتمتـــع بأشـــعة الشـــمس طـــوال الطريق المتبقي خلال ذلك، وكذلك خلال وادي ظل الموت.

كـريس، لقـد كـان الأمـر جيـدًا بالنسـبة لـك! أنـا متأكـد مـن أن الأمـور سـارت معـي بشـكل مختلـف تمامًـا. لقـد خضـتُ لفتـرة طويلـة، منـذ مـا كـدتُ أدخـل ذلـك الـوادي، معركـةً شرسـةً مـع ذلـك الشـيطان البغـيض أبوليـون؛ بـل ظننـتُ حقًـا أنـه سـيقتلني، خاصـةً عنـدما طرحنـي أرضًـا وسـحقني تحتـه، كمـا لـو كـان سيسـحقني إربًـا. فبينمـا كـان يطرحنـي أرضًـا، طـار سيفي مـن يـدي؛ بـل قـال لـي إنـه متأكـد منـي؛ فصـرختُ إلـى الله، فاسـتجاب لـي، وأنقـذني مـن كـل متـاعبي. ثـم دخلـتُ وادي ظـل المـوت، ولـم يكـن هنـاك نـور لمـا يقـرب مـن نصـف الطريـق. ظننـتُ أننـي سـأُقتل هنـاك مـرارًا وتكـرارًا: ولكـن فـي النهايـة انبثـق الفجـر، وأشرقت الشمس، وعبرتُ ما كان خلفي بسهولة وهدوء أكبر.

تم تجاوز الثرثارة

عـلاوة علـى ذلـك، رأيـت فـي حلمـي أنـه بينمـا كـانوا يتـابعون سـيرهم، نظـر المـؤمن صـدفةً إلـى جـانبهم، فـرأى رجـلاً يُـدعى الثرثـار يسـير علـى بُعـدٍ مـنهم؛ إذ كـان المكـان واسـعًا بمـا يكفـي ليسـيروا جميعًـا. كـان رجـلاً طويـل القامـة، وكـان منظـره مـن بعيـد أجمـل مـن منظـره مـن قريب. فخاطب المؤمن هذا الرجل قائلاً:

يـا إيمـان، يـا صـديقي، إلـى أيـن أنـت ذاهـب؟ هـل أنـت ذاهـب إلـى بـلاد السماء؟

تحدث. سأذهب إلى نفس المكان.

إيمان. هذا جيد؛ إذن آمل أن نحظى بصحبتك الطيبة.

تحدث. وبكل سرور، سأكون رفيقك.

الإيمـان. هيـا بنـا إذن، ولنـذهب معـاً، ولنقضـي وقتنـا فـي الحـديث عـن الأمور المفيدة.

الحـديث. الحـديث عـن الأشـياء الجيـدة أمـر مقبـول جـداً بالنسـبة لـي، سـواء معـك أو مـع أي شـخص آخـر؛ ويسـعدني أننـي التقيـت بمـن يميلـون إلـى هـذا العمـل الجيـد؛ لأنـه، بصـراحة، قليلـون هـم مـن يهتمـون بقضـاء وقـتهم بهـذه الطريقـة أثنـاء أسـفارهم، بـل يفضـلون الحديث عن أشياء لا فائدة منها؛ وهذا الأمر كان يزعجني.

الإيمـان. إنــه حقــاً أمــرٌ يُرثــى لــه؛ فمــا هــي الأشــياء التــي تسـتحق أن يستخدمها لسان وفم البشر على الأرض، مثل أشياء إله السماء؟

تكلـم. أنــا معجـب بـك للغايــة، فقولــك ملــيء بــالحق؛ وسأضــيف: مــا أجمـل ولا أنفـع مـن الحـديث عـن أمـور الله؟ مـا أجمـل مـن الحـديث عـن العجائــب؟ أي، إذا كـان الإنســان يجـد لـذة فــي الأمـور العجيبــة. فمـثلاً، إذا كـان الإنسـان يجد لـذة فـي الحـديث عـن التـاريخ أو أسـرار الأشـياء، أو إذا كــان يحــب الحــديث عــن المعجــزات والعجائــب والآيــات، فــأين سـيجد مـا هـو مكتـوب بمثـل هـذه الروعـة والجمـال كمـا فـي الكتـاب المقدس؟

الإيمـان. هـذا صـحيح؛ ولكـن ينبغـي أن يكـون هـدفنا هـو الاسـتفادة مـن مثل هذه الأمور في حديثنا.

ثرثار يخدع نفسه

تكلـم. هـذا مـا قلتـه؛ فالحـديث عـن هـذه الأمـور نــافعٌ للغايــة؛ إذ يُمكـن للمــرء مــن خلالــه أن يكتســب معرفــةً بــأمورٍ كثيــرة، كحماقــة الأمــور الدنيويــة، وفائـدة الأمـور السـماوية. إضــافةً إلـى ذلـك، يُمكـن للمـرء أن يـتعلم مـن خـلال هـذا معنـى التوبـة عـن الخطيئـة، والإيمـان، والصـلاة، والمعانــاة، ومـا شـابه ذلـك؛ كمـا يُمكنـه أن يـتعلم مـن خـلال هـذا مـا هـي وعــود الإنجيــل العظيمــة وراحتــه، ليتمتــع بهــا. عــلاوةً علــى ذلــك، يُمكنـه مـن خـلال هـذا أن يـتعلم كيـف يـرد علـى الآراء الباطلـة، ويُثبـت الحق، ويُعلّم الجاهل.

إيمان. كل هذا صحيح؛ ويسعدني أن أسمع هذه الأشياء منك.

الكـلام. للأسـف! إن الافتقـار إلـى هـذا هـو السـبب فـي أن قلـة قليلـة تفهـم الحاجــة إلــى الإيمــان، وضــرورة عمـل النعمــة فــي أرواحهـم، مـن أجـل الحياة الأبدية.

الإيمـان. ولكـن، بإذنـك، فـإن المعرفـة السـماوية بهـذه الأمـور هـي هبـة من الله؛ لا يصل إليها أحد بالعمل البشري، أو بمجرد الحديث عنها.

تكلـم. كـل هـذا أعرفــه جيـداً، لأن الإنســان لا يسـتطيع أن ينــال شــيئاً إلا إذا أُعطـي لــه مــن الســماء؛ ويمكننـــي أن أقــدم لــك مئــة آيــة مــن الكتــب المقدسة لتأكيد هذا.

الإيمـان. قـال المـؤمن: "حسـنًا إذن، مـا هـو الشـيء الـذي سـنبني عليـه حديثنا في هذا الوقت؟"

تكلـم. مـا شـئت. سـأتحدث عـن أمـور سـماوية أو أمـور أرضـية؛ أمـور فـي الحيـاة أو أمـور فـي الإنجيـل؛ أمـور مقدسـة أو أمـور دنيويـة؛ أمـور

ماضية أو أمور مستقبلية؛ أمور أجنبية أو أمور محلية؛ أمور ضرورية أو أمور عرضية، شريطة أن يكون كل ذلك لمنفعتنا.

الإيمان. الآن بدأ المؤمن يتساءل؛ وتقدم نحو المسيحي (لأنه كان يسير طوال هذا الوقت بمفرده)، وقال له بهدوء: "يا له من رفيق شجاع لدينا! بالتأكيد سيكون هذا الرجل حاجًا ممتازًا للغاية."

مُخلص، مُجادل، ثرثار

كريس. عند هذا ابتسم كريستيان بتواضع، وقال: "هذا الرجل الذي أعجبت به كثيراً سيخدع بلسانه عشرين شخصاً لا يعرفونه".

الإيمان. هل تعرفه إذن؟

كريس. هل تعرفه؟ نعم، أفضل مما يعرف نفسه.

الإيمان. صلِّ، ما هو؟

كريس. اسمه ثرثار؛ وهو يسكن في مدينتنا. أستغرب أنك غريب عنه: فقط لأنني أعتبر أن مدينتنا كبيرة.

الإيمان. ابن من هو؟ وأين يسكن؟

كريس. هو ابن شخص يُدعى ساي-ويل. كان يسكن في شارع براتينغ، ويُعرف لدى كل من يعرفه باسم ثرثار شارع براتينغ؛ وعلى الرغم من فصاحته، إلا أنه ليس سوى شخص بائس.

الإيمان. حسنًا، يبدو أنه رجل وسيم للغاية.

كريس. أي بالنسبة لمن لا يعرفونه معرفةً وثيقة، فهو في أبهى حالاته في الخارج؛ أما في الداخل فهو قبيح بما فيه الكفاية. قولك إنه رجل وسيم يذكرني بما لاحظته في أعمال الرسام، الذي تبدو لوحاته في أبهى صورها من بعيد، ولكنها تبدو أقل جاذبية من قريب.

الإيمان. لكنني مستعد للاعتقاد بأنك تمزح فقط، لأنك ابتسمت.

كريس، حاشا لله أن أمزح (مع أنني ابتسمت) في هذا الأمر، أو أن أتّهم أحدًا زورًا. سأكشف لك المزيد عنه. هذا الرجل لا يختلط بأحد، ولا يتحدث مع أحد. كما يتحدث معك الآن، سيتحدث حين يجلس على طاولة الجعة؛ وكلما ازداد شرابه، ازداد كلامه. لا مكان للدين في قلبه، ولا في بيته، ولا في حديثه: كل ما يملكه هو لسانه، ودينه هو التباهي به.

الإيمان. تقول ذلك؟ إذن هل أنا مخدوعٌ بهذا الرجل خداعاً كبيراً؟

كريس، أنت مخدوع! تأكد من ذلك. تذكر المثل القائل: "يقولون ولا يفعلون"، ولكن ملكوت الله ليس بالكلام بل بالقوة. يتحدث عن الصلاة، والرجوع إلى الله، والإيمان، والولادة الجديدة؛ ولكنه لا يعرف إلا الكلام. لقد عشتُ في بيته، ورأيته في الداخل والخارج، وأعلم أن ما أقوله عنه هو الحق. بيته خالٍ من الدين كما يخلو بياض البيض من النكهة. لا صلاة فيه ولا علامة على التوبة من الخطيئة؛ بل إن البهيمة، في مثله، تخدم الله أفضل منه بكثير. إنه وصمة عار وعار على الدين لكل من يعرفه. يكاد الدين لا يُذكر بخير في ذلك الطرف من المدينة الذي يسكنه، بسببه. هكذا يقول عامة الناس الذين يعرفونه: "قديس في الخارج، وشيطان في الداخل". تجد عائلته المسكينة الأمر كذلك: فهو كثير الانتقاد، كثير الشتائم، وغير منطقي مع خدمه، حتى أنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معه أو كيف يخدمونه. يقول من يتعاملون معه: من الأفضل التعامل مع تركي بدلاً منه، لأنهم سيجدون معاملة أكثر إنصافاً. هذا الثرثار، إن أمكن، سيتجاوزهم، ويخدعهم، ويغويهم، ويستغلهم. إضافة إلى ذلك، فهو يربي أبناءه على اتباع خطاه؛ وإذا وجد في أحدهم جبناً أحمق (فهو يسمي بذلك أول ظهور للضمير الرقيق)، وصفه بالحمقى والأغبياء، ولن يوظفه أبداً في عمل كثير، ولن يثني عليه أمام الآخرين. أما أنا، فأرى أنه، بحياته الشريرة، تسبب في تعثر وسقوط الكثيرين، وسيكون، إن لم يمنعه الله، سبباً في هلاك الكثيرين غيرهم.

الإيمان. حسنًا يا أخي، أنا مُلزمٌ بتصديقك، ليس فقط لأنك تقول إنك تعرفه، بل أيضًا لأنك، كمسيحي، تنقل أقوالك عن الناس. فلا أظن أنك تتحدث بهذه الأمور بسوء نية، بل لأن الأمر كما تقول.

كريس، لو لم أكن أعرفه أكثر منك، لربما فكرت فيه كما فكرت فيه أنت في البداية؛ بل لو كان قد تلقى هذا الكلام من أعداء الدين فقط، لظننته افتراءً، من تلك الأقاويل التي كثيرًا ما تصدر عن الأشرار على حساب الأخيار. لكن كل هذه الأمور، بل وأكثر منها بكثير، أستطيع أن أثبت إدانته بها بناءً على معرفتي الشخصية. إضافةً إلى ذلك، يخجل منه الأخيار: فلا يستطيعون أن ينادوه أخًا ولا صديقًا؛ حتى مجرد ذكر اسمه بينهم يُخجلهم إن كانوا يعرفونه.

الإيمان. حسناً، أرى أن القول والفعل شيئان، وسأحرص فيما بعد على ملاحظة الفرق بينهما بشكل أفضل.

كريس. هما شيئان مختلفان تمامًا، تمامًا كما يختلف الجسد عن الروح؛ فكما أن الجسد بلا روح ليس إلا جثة هامدة، كذلك *القول* وحده ليس إلا جثة هامدة أيضًا. روح الدين هي الجانب العملي. "الدين النقي الطاهر عند الله الآب هو هذا: أن تعودوا اليتامى والأرامل في ضيقتهم، وأن تحفظوا أنفسكم بلا دنس من العالم".

هذا ما يجهله الثرثار: فهو يظن أن السماع والكلام يكفيان لصنع مسيحي صالح، وهكذا يخدع نفسه. السماع ليس إلا زرعًا للبذرة؛ فالكلام وحده لا يكفي لإثبات أن الثمر موجود حقًا في القلب والحياة. ولنتأكد من أن الناس سيُحاسبون يوم القيامة على ثمار أعمالهم.

الإيمان. حسنًا، لم أكن أُحبّذ صحبته في البداية، لكنني سئمت منها الآن. ماذا نفعل للتخلص منه؟

كريس، خذ بنصيحتي، وافعل ما أقوله لك، وستجد أنه سيمل من صحبتك قريبًا أيضًا، إلا إذا لمس الله قلبه وقلبه.

يا إيمان، ماذا تريدني أن أفعل؟

كريس. لماذا لا تذهب إليه، وتخوض معه في محادثة جادة حول قوة الدين وتسأله بوضوح (عندما يوافق على ذلك، لأنه سيوافق) عما إذا كان هذا الأمر قد ترسخ في قلبه أو بيته أو سلوكه.

الإيمان. ثم تقدم المؤمن مرة أخرى، وقال للثرثار: "تعال، ما هو التشجيع؟ كيف حالك الآن؟"

الحديث. شكرًا لك، حسنًا: كنت أعتقد أنه كان ينبغي أن نتحدث كثيرًا بحلول هذا الوقت.

الإيمان. حسنًا، إذا شئت، فسنتناوله الآن؛ وبما أنك تركت لي مهمة طرح السؤال، فليكن هذا هو: كيف تظهر نعمة الله الخلاصية عندما تكون في قلب الإنسان؟

حديث. أدرك إذن أن حديثنا يجب أن يدور حول قوة الأشياء. حسنًا، إنه سؤال وجيه للغاية، وسأكون على استعداد للإجابة عليه. وخذ إجابتي بإيجاز على النحو التالي: أولًا، عندما تكون نعمة الله في القلب، فإنها تُثير فيه صرخة عظيمة ضد الخطيئة. ثانيًا،—

الإيمان. كلا، مهلاً؛ دعونا نتأمل في أحدهما دفعة واحدة. أعتقد أنه من الأنسب أن نقول إنه يتجلى في جعل النفس تميل إلى كراهية خطيئتها.

تكلم. لماذا، ما الفرق بين التنديد بالخطيئة وكرهها؟

الإيمان. يا له من أمر عظيم! قد يصرخ المرء ضد الخطيئة ليظهر بمظهر الصالح، لكنه لا يستطيع كرهها إلا بكراهية حقيقية لها. لقد سمعتُ كثيرين يصرخون ضد الخطيئة من على المنابر، ومع ذلك يستطيعون تحملها في قلوبهم وبيوتهم وحياتهم. بعضهم يصرخ ضد الخطيئة كما تصرخ الأم على طفلتها في حضنها حين تصفها بالفتاة المشاغبة، ثم تستسلم لاحتضانها وتقبيلها.

تكلم. أظن أنك تحاول الإيقاع بي.

الإيمان. كلا، لستُ أنا؛ أنا فقط أُصلح الأمور. ولكن ما هو الشيء الثاني الذي تُثبت به اكتشاف عمل الله في القلب؟

الحديث. معرفة واسعة بالأمور الصعبة في الكتاب المقدس.

شركة قطع غيار ثرثارة

الإيمان. كان ينبغي أن تكون هذه العلامة الأولى؛ ولكن، سواء كانت الأولى أو الأخيرة، فهي خاطئة أيضاً؛ إذ يمكن اكتساب المعرفة، بل المعرفة العظيمة، في أسرار الإنجيل، ومع ذلك لا يُثمر ذلك أي عمل من أعمال النعمة في النفس. بل إن الإنسان، حتى لو امتلك كل المعرفة، قد لا يكون شيئاً، وبالتالي لا يكون ابناً لله. عندما سأل المسيح: "أتعلمون كل هذه الأمور؟" فأجاب التلاميذ: "نعم"، أضاف: "طوبى لكم إن عملتم بها". فهو لا يضع البركة في المعرفة، بل في العمل بها. فهناك معرفة لا تقترن بالعمل: "من يعرف إرادة سيده ولا يعمل بها". قد يعرف الإنسان كالملاك، ومع ذلك لا يكون مسيحياً؛ لذلك فإن علامتك على ذلك ليست صحيحة. في الواقع، المعرفة شيء يُرضي المتحدثين والمتباهين؛ أما العمل فهو ما يُرضي الله.

تكلم. أنت تحاول الإيقاع بي مجدداً: هذا ليس مربحاً.

الإيمان. حسنًا، إذا سمحت، اذكر علامة أخرى تُظهر بها هذه النعمة نفسها حيثما وُجدت.

تكلم. ليس أنا؛ لأني أرى أننا لن نتفق.

الإيمان. حسنًا، إن لم تفعل ذلك، فهل تسمح لي بفعله؟

تكلم. يمكنك أن تقول ما تشاء.

الإيمان. يتجلى عمل الله في النفس إما لمن يملكه أو لمن يقف بجانبه. لمن يملكه، يتجلى بجعله يرى ويشعر بذنوبه. أما للآخرين الواقفين، فيتجلى بحياته، حياة فعل الخير في نظر الله. والآن، سيدي، بخصوص هذا العرض الموجز لعمل النعمة، وكذلك تجلياتها، إن كان لديك اعتراض، فاعترض؛ وإن لم يكن، فاسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً ثانياً.

تكلم. كلا، ليس دوري الآن الاعتراض، بل الاستماع؛ لذا دعني أطرح سؤالك الثاني.

الإيمان. هو هذا: هل شعرتَ بذنوبك، وهل تبتَ عنها؟ وهل يُظهر سلوكك وحياتك ذلك؟ أم أن دينك كلامٌ لا فعلٌ ولا صدق؟ أرجوك،

إن أردتَ الإجابة، فلا تقل إلا ما تعلم أن الله سيوافقه، ولا تقل إلا ما يُرضي ضميرك؛ فليس من يُثني على نفسه يُرضي، بل من يُثني عليه الرب. ثم إن قولك كذا وكذا، بينما سلوكك وجيراني يُثبتون كذبك، لهو إثمٌ عظيم.

تكلم. ثم احمرّ وجه الثرثار خجلاً في البداية، لكنه استعاد رباطة جأشه، فأجاب قائلاً: "لم أتوقع هذا النوع من الحديث، ولستُ مستعداً للإجابة على مثل هذه الأسئلة، لأنني لا أعتبر نفسي ملزماً بذلك، إلا إذا اعتبرتَ نفسك سائلاً، وحتى لو فعلتَ ذلك، فقد أرفض أن أجعلك قاضياً. ولكن، أرجوك، هلّا أخبرتني لماذا تسألني مثل هذه الأسئلة؟"

إيماني. لأني رأيتك متلهفًا للحديث، ولأني لم أكن أعلم أن لديك شيئًا سوى الوهم. إضافةً إلى ذلك، لأكون صريحًا معك، فقد سمعت عنك أنك رجل دينه مجرد كلام، وأن حياتك تُفند ادعاءاتك. يقولون إنك وصمة عار بين المسيحيين، وأن الدين يتضرر بسبب سلوكك الفاسق؛ وأن البعض قد ضلوا بالفعل بسبب طرقك الشريرة، وأن المزيد معرضون لخطر الهلاك بسببها: دينك، وحانة، وجشع، ونجاسة، وحلف، وكذب، ومصاحبة رفاق باطلين، إلخ، ستظل قائمة. أنت عار على جميع أعضاء الكنيسة.

تكلم. بما أنك مستعد لتلقي التقارير، وللحكم بهذه السرعة، فلا يسعني إلا أن أستنتج أنك رجل متذمر أو سريع الغضب، لا يصلح للتحدث معه؛ وهكذا إلى اللقاء.

كريس. ثم تقدم كريستيان وقال لأخيه: "لقد أخبرتك كيف سيحدث ذلك؛ لم تتوافق كلماتك مع قلبه. لقد فضل مغادرة صحبتكم على إصلاح حياته. لكنه رحل، كما قلت: دعه يرحل؛ الخسارة ليست لأحد سواه: لقد وفر علينا عناء الابتعاد عنه؛ لأنه لو استمر (كما أظن أنه سيفعل) على ما هو عليه، لكان وصمة عار في صحبتنا. إضافة إلى ذلك، يقول الرسول: "ابتعد عن أمثال هؤلاء".

الإيمان. لكني سعيد لأننا أجرينا هذا الحديث القصير معه؛ قد يحدث أن يفكر في الأمر مرة أخرى: ومع ذلك، فقد تعاملت معه بوضوح، وبالتالي فأنا بريء من دمه، إذا هلك.

كريس، أحسنتَ صنعًا بالتحدث إليه بهذه الصراحة. قلّما نجد اليوم هذا التعامل الأمين مع الناس، وهذا ما يجعل الدين موضع ازدراء الكثيرين؛ فهم هؤلاء الثرثارون الحمقى، الذين دينهم مجرد كلام، وهم دنيئون ومتعجرفون في حياتهم، والذين، مع كل هذا القبول في جماعة الأتقياء، يُحيّرون العالم، ويُشوّهون صورة المسيحية، ويُحزنون المخلصين. أتمنى لو أن جميع الناس يتعاملون مع

أمثالك كما فعلتَ؛ فحينها إما أن يُصبحوا أكثر ملاءمةً للدين، أو أن تكون صحبة القديسين مُرهقةً لهم.

الإيمان. ثم قال المؤمن:

"يا له من ثرثار يرفع ريشه في البداية! يا له من شجاعة يتحدث بها! يا له من جرأة يتجرأ على إخضاع كل من يقف في طريقه! ولكن ما إن يتحدث المخلص عن العمل القلبي، حتى يصبح كالقمر الذي تجاوز اكتماله، في طريقه إلى التناقص؛ وهكذا سيكون حال الجميع إلا من يعرف العمل القلبي."

وهكذا استمروا في الحديث عما رأوه على طول الطريق، فسهلوا الطريق الذي كان بلا شك سيكون مملاً بالنسبة لهم لولا ذلك؛ لأنهم الآن كانوا يمرون عبر برية.

الفصل السادس

ولما كادا يخرجان من تلك البرية، التفت المؤمن صدفةً فرأى من يتبعه، فعرفه. فقال المؤمن لأخيه: "من هناك؟" فنظر المسيحي وقال: "إنه صديقي المبشر". فقال المؤمن: "أجل، وهو صديقي المقرب أيضًا، فقد دلّني على الطريق إلى البوابة". ثم أقبل إليهم المبشر، فسلم عليهم قائلاً:

إيفان. السلام عليكم أيها الأحبة، والسلام على من يعينونكم.

كريس. أهلاً وسهلاً، أيها المبشر الصالح: إن رؤية وجهك تذكرني بلطفك السابق وعملك الدؤوب من أجل خيري الأبدي.

الإيمان. "وألف مرة مرحباً بك،" قال المؤمن الصالح: "صحبتك يا أيها المبشر الحلو، كم هي مرغوبة لنا نحن الحجاج المساكين!"

الإنجيلي : "كيف حالكم يا أصدقائي منذ وقت فراقنا الأخير؟ ما الذي واجهتموه، وكيف تصرفتم؟"

ثم أخبره كريستيان وفيثفول بكل ما حدث لهما في الطريق؛ وكيف وصلا إلى ذلك المكان، وبأي صعوبة.

الإنجيلي : "أنا سعيدٌ للغاية، ليس لأنكم واجهتم تجارب، بل لأنكم انتصرتم، ولأنكم، رغم ضعفكم، واصلتم المسير حتى يومنا هذا. أقول، أنا سعيدٌ للغاية بهذا الأمر، وذلك من أجلي ومن أجلكم. أنا زرعتُ وأنتم حصدتم، وسيأتي اليوم الذي يفرح فيه الزارعون والحاصدون معًا، إن لم تضعفوا. الإكليل أمامكم، وهو إكليلٌ لا يفنى، فاجتهدوا لتنالوه. هناك من يسعى وراء هذا الإكليل، وبعد أن

يقطع شوطًا طويلًا، يأتي آخر ويأخذه منه. فتمسكوا إذًا بما عندكم، ولا تدعوا أحدًا يأخذ إكليلك."

ثم شكره كريستيان على كلماته، لكنه أخبره مع ذلك أنهم يرغبون في أن يُكمل حديثه معهم، ليساعدهم في بقية الطريق؛ لا سيما وأنهم يعلمون جيدًا أنه نبي، ويمكنه أن يُخبرهم بالأمور التي قد تحدث لهم، وكيف يمكنهم مقاومتها والتغلب عليها. وافق فيثفول على هذا الطلب أيضًا. وهكذا بدأ المبشر على النحو التالي:

مبشر يحث المسيحيين

يا إيفان، يا أبنائي، لقد سمعتم، في كلمات حقيقة الإنجيل، أنه يجب عليكم "باجتياز العديد من التجارب" أن تدخلوا ملكوت السماوات؛ وأيضًا، أنه "في كل مدينة تنتظركم قيود ومصائب"؛ ولذلك لا تتوقعوا أن تطول رحلتكم دون أن تواجهوها بشكل أو بآخر. لقد لمستم شيئًا من حقيقة هذه الكلمات بالفعل، وسيتبع ذلك المزيد قريبًا؛ لأنكم الآن، كما ترون، على وشك الخروج من هذه البرية، ولذلك ستصلون قريبًا إلى مدينة سترونها أمامكم؛ وفي تلك المدينة ستواجهون أعداءً سيبذلون قصارى جهدهم حتى يقتلوكم؛ وكونوا على يقين أن أحدكم أو كلاكما سيختم الحقيقة التي تتمسكون بها بالدم: ولكن كونوا أمناء حتى الموت، وسيعطيكم الملك إكليل الحياة. من سيموت هناك، وإن كانت وفاته غير طبيعية، وربما كان ألمه عظيمًا، فسيكون مع ذلك أقوى من رفيقه؛ ليس فقط لأنه سيصل إلى المدينة السماوية أسرع من غيره، بل لأنه سينجو من مصائب كثيرة سيواجهها الآخر في بقية رحلته. ولكن عندما تصلون إلى المدينة، وتجدون ما ذكرته قد تحقق، فتذكروا صديقكم، وتصرفوا كرجال، وأوكلوا أمركم إلى الله في فعل الخير، كما لو كنتم توكلون خالقًا أمينًا.

الحجاج في معرض فانيتي فير

ثم رأيت في منامي أنه عندما خرجوا من البرية، رأوا أمامهم مدينة، واسم تلك المدينة باطل؛ وفيها سوق يُقام يُسمى سوق الباطل. يُقام هذا السوق طوال العام. سُمي سوق الباطل لأن المدينة التي يُقام فيها أخف من الباطل، ولأن كل ما يُباع فيها، أو ما يأتي إليها، هو باطل؛ كما يقول الحكيم: "كل ما يأتي باطل".

هذا ليس مشروعاً حديثاً، بل هو مشروع عريق ذو مكانة مرموقة. سأريك أصله.

قبل ما يقارب خمسة آلاف عام، كان هناك حجاج يسيرون إلى المدينة السماوية، كما هو حال هذين الشخصين الصادقين؛ ورأى بعلزبول وأبوليون وليجيون، مع رفاقهم، من خلال الطريق الذي

سلكه الحجاج أن طريقهم إلى المدينة يمر عبر هذه المدينة الباطلة، فدبروا أمرهم لإقامة سوق هنا؛ سوق تُباع فيه كل أنواع الترف، ويستمر طوال العام. ولذلك، تُباع في هذا السوق كل الأشياء كالمنازل والأراضي والحرف والمناصب والألقاب والبلدان والممالك والشهوات والملذات والمتع من كل نوع، كالزوجات والأزواج والأطفال والسادة والخدم والأرواح والدم والأجساد والنفوس والفضة والذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة، وغير ذلك الكثير.

وعلاوة على ذلك، في هذا المعرض يمكن رؤية كل أنواع العروض، من التلاعب بالأشياء، والغش، والألعاب، والمسرحيات، والحمقى، والقرود، والأوغاد، والمحتالين، وكل أنواع الأشياء الأخرى.

وهنا أيضاً، ودون مقابل، السرقات والقتل والشهود الكاذبين، وذلك بلون أحمر قانٍ.

وكما هو الحال في المعارض الأخرى الأقل أهمية، توجد صفوف وشوارع عديدة تحمل أسماءها الخاصة، حيث تُباع سلعٌ معينة؛ كذلك هنا توجد الأماكن والصفوف والشوارع المناسبة (أي البلدان والممالك)، حيث يمكن العثور على سلع هذا المعرض بسهولة. هنا صف بريطانيا، وصف فرنسا، وصف إيطاليا، وصف إسبانيا، وصف ألمانيا، حيث تُباع أنواعٌ مختلفة من التحف. ولكن، كما هو الحال في المعارض الأخرى، تُهيمن سلعةٌ واحدة على المعرض بأكمله، كذلك تُروَّج سلع روما وبضائعها بشكلٍ كبير في هذا المعرض؛ إلا أن شعبنا الإنجليزي، وبعض الشعوب الأخرى، لم يُعجبهم ذلك.

وكما قلتُ، فإن الطريق إلى المدينة السماوية يمرّ عبر هذه البلدة حيث يُقام هذا السوق البهيج؛ ومن أراد الذهاب إلى المدينة دون المرور بهذه البلدة، "فهو محكوم عليه بالخروج من الدنيا". حتى أمير الأمراء نفسه، عندما كان هنا، مرّ بهذه البلدة إلى بلاده، وكان ذلك في يومٍ من أيام السوق أيضًا؛ بل وأظنّ أن بعلزبول، سيد هذا السوق، هو من دعاه لشراء بعضٍ من بضائعه؛ بل كان سيجعله سيد السوق لو أنه أبدى له الاحترام أثناء مروره بالبلدة. نعم، ولأنه كان شخصًا ذا مكانةٍ رفيعة، اصطحبه بعلزبول من شارعٍ إلى شارع، وأراه جميع ممالك العالم في وقتٍ وجيز، لعله يُغري ذلك المبارك ليطلب ويشتري بعضًا من بضائعه؛ لكنه لم يُعر اهتمامًا للبضائع، ولذلك غادر البلدة دون أن ينفق قرشًا واحدًا على هذه البضائع. لذا، فإن هذا المعرض شيء قديم ذو تاريخ طويل، وهو معرض عظيم للغاية.

والآن، كما قلت، كان لا بدّ لهؤلاء الحجاج من المرور بهذا المعرض. وبالفعل، مروا به؛ ولكن، ها هو ذا، حتى ما إن دخلوا المعرض، حتى تأثر جميع الناس فيه، وعمّت المدينة بأكملها ضجة كبيرة، وذلك لعدة أسباب؛ لأن،

أولاً، كان الحجاج يرتدون ملابس مختلفة عن ملابس أي تاجر في ذلك المعرض. ولذلك، حدق بهم رواد المعرض ملياً: قال بعضهم إنهم حمقى، وقال آخرون إنهم مجانين، وقال غيرهم إنهم رجال غريبون.

ثانيًا، وكما تعجبوا من ملابسهم، تعجبوا أيضًا من كلامهم؛ إذ لم يفهم الكثيرون ما يقولون. كانوا يتحدثون لغة كنعان، لكن القائمين على المعرض كانوا من أهل الدنيا. حتى أنهم بدوا من طرف المعرض إلى طرفه الآخر كبرابرة.

ثالثًا، ـ لكن ما أثار دهشة أصحاب المتاجر هو استخفاف هؤلاء الحجاج ببضائعهم. لم يكلفوا أنفسهم عناء النظر إليها، وإذا ما نادوا عليهم للشراء، كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم ويصرخون: "أصرفوا أعينكم عن النظر إلى الباطل"، وينظرون إلى السماء، دلالةً على أن تجارتهم ومعاملاتهم في السماء.

صادف أحدهم، ساخرًا، أن رأى تصرفات الرجال، فسألهم: "ماذا ستشترون؟" لكنهم نظروا إليه بجدية، وقالوا: "نشتري الحقيقة". عندئذٍ، ازداد احتقار الرجال: فمنهم من سخر منهم، ومنهم من استهزأ بهم، ومنهم من تكلم بعبارات نابية، ومنهم من دعا إلى ضربهم. وفي النهاية، عمّت الفوضى والاضطراب أرجاء المعرض، حتى اختلّ النظام تمامًا. وسرعان ما وصل الخبر إلى صاحب المعرض، فحضر مسرعًا، وأرسل بعضًا من أقرب أصدقائه لمحاكمة هؤلاء الرجال الذين كادوا أن يُقلبوا المعرض رأسًا على عقب. وهكذا، أُحضر الرجال للمحاكمة، وسألهم الحاضرون عن مصدر قدومهم، وإلى أين ذهبوا، وماذا فعلوا هناك بهذا الزي الغريب. أخبرهم الرجال أنهم غرباء في هذه الدنيا، وأنهم ذاهبون إلى وطنهم، أورشليم السماوية، وأنهم لم يمنحوا أهل المدينة، ولا التجار، أي فرصة للإساءة إليهم أو عرقلة رحلتهم، إلا لأنهم، عندما سُئلوا عما يريدون شراءه، أجابوا أنهم سيشترون الحقيقة. لكن الذين عُيّنوا لفحصهم لم يصدقوا أنهم إلا مجانين، أو من أولئك الذين جاؤوا لإثارة الفوضى في السوق. لذلك أخذوهم وضربوهم ولطخوهم بالتراب، ثم وضعوهم في القفص، ليصبحوا عبرة لجميع رجال السوق. وهكذا، بقوا هناك لبعض الوقت، وأصبحوا مادة للتسلية أو الحقد أو الانتقام، بينما كان كبير السوق يضحك على كل ما أصابهم. لكن الرجال، بصبرهم، و"عدم ردّهم الإساءة بالإساءة، بل بالثناء"، وإيجابتهم بالكلمات الطيبة، ولطفهم بالإساءة، بدأ

بعض الرجال في المعرض، ممن كانوا أكثر انتباهاً وأقل معارضة من غيرهم، في محاسبة هؤلاء الرجال ولومهم على إساءاتهم المتكررة لهم. ولذلك، انفجروا غضباً في وجههم، معتبرين إياهم سيئين كالرجال في القفص، ومتهمين إياهم بالتواطؤ معهم، وأنهم يستحقون أن يكونوا شركاءهم في مصائبهم. فأجابهم الآخرون، قائلين إن الرجال، على حد علمهم، هادئون ورصينون، ولا ينوون إلحاق الأذى بأحد؛ وأن هناك الكثيرين ممن يتاجرون في معرضهم ممن هم أجدر بالسجن، بل وحتى بالتعليق في المِقصلة، من الرجال الذين أساءوا إليهم. وهكذا، بعد تبادل كلمات حادة بين الطرفين (مع التزام الرجال بالحكمة والرزانة طوال الوقت)، تشاجروا وألحقوا الأذى ببعضهم. ثم أُحضر الرجلان المسكينان أمام المحكمة مرة أخرى، واتُهما بالتسبب في الفوضى التي حدثت في المعرض. فقاموا بضربهما ضربًا مبرحًا، وعلقوا عليهما الأغلال، وساقوهما مكبلين بالسلاسل جيئة وذهابًا في أرجاء المعرض، ليكونوا عبرة للآخرين، خشية أن يدافع عنهما أحد أو ينضم إليهما. لكن كريستيان وفيثفول تصرفا بحكمة أكبر، وتقبلا الظلم والعار اللذين لحقا بهما بصبر وجلد، مما أكسبهما (وإن كان عددهما قليلًا مقارنة بالآخرين) عددًا من الرجال في المعرض. أثار هذا غضب الطرف الآخر أكثر، حتى عزموا على قتل هذين الرجلين. ولذلك هددوا بأنه لن يخدمهم القفص ولا الأغلال، بل سيموتون بسبب الإساءة التي ارتكبوها، ولخداعهم رجال المعرض.

الحجاج في الأغلال

ثم أُعيدوا إلى القفص مرة أخرى، إلى حين صدور أمر آخر بحقهم. فوضعوهم فيه، وثبتوا أقدامهم في الأغلال.

وهنا، تذكروا مجددًا ما سمعوه من صديقهم الوفي المبشر، فازدادوا ثباتًا في طريقهم ومعاناتهم، لما أخبرهم به عما سيحدث لهم. وعزّى بعضهم بعضًا، فمن قُدِّر له أن يعاني، سينال أفضل ما في الأمر؛ ولذلك تمنى كل واحد منهم سرًا أن ينال تلك النعمة. ولكن، إذ سلّموا أنفسهم لتدبير الله الحكيم الذي يُدبّر كل شيء، رضوا بما هم عليه، إلى أن يُدبّر لهم أمر آخر.

الرب هيت-جود

ثم حُدِّد موعد مناسب، وأُحضروا للمحاكمة لإدانتهم. ولما حان الوقت، مُثِّلوا أمام أعدائهم، ووُضِعوا أمام المحكمة. وكان اسم القاضي اللورد هيت-جود: وكانت التهم الموجهة إليهما واحدة في جوهرها، وإن اختلفت في بعض الصيغ؛ ومضمونها كالتالي: "أنهم أعداء ومُخرِّبون لتجارتهم؛ وأنهم أحدثوا شغبًا وانقسامات

في المدينة، واستقطبوا فصيلًا إلى آرائهم الأكثر خطورة، في ازدراء لقانون أميرهم."

ثم بدأ المؤمن يجيب قائلاً إنه لم يقف إلا في وجه من وقف في وجه من هو أعلى من الأعلى. وأضاف: "أما بالنسبة للاضطرابات، فأنا لا أفتعلها، فأنا رجل سلام؛ والأحزاب التي انضمت إلينا، انضمت إلينا برؤية صدقنا وبراءتنا، ولم تزد حالتها إلا سوءًا. أما الملك الذي تتحدث عنه، فهو بعلزبول، عدو ربنا، وأنا أتحدى جميع ملائكته".

محاكمة الحجاج

ثم أُعلن أنه على من لديهم ما يقولونه لصالح سيدهم الملك ضد المتهم أن يحضروا فورًا ويدلوا بشهادتهم. فحضر ثلاثة شهود: الحسد، والخرافة، وبيكثانك. ثم سُئلوا إن كانوا يعرفون المتهم، وماذا يقولون لصالح سيدهم الملك ضده.

ثم تقدم الحسد، وقال في هذا الصدد: "يا سيدي، لقد عرفت هذا الرجل منذ زمن طويل، وسأشهد بقسمي أمام هذه المحكمة الموقرة بأنه—"

أيها القاضي، انتظر! أعطه اليمين.

حسد. فأقسموا له. ثم قال: "يا سيدي، هذا الرجل، على الرغم من اسمه، المخلص، هو من أحطّ الرجال في بلادنا. لا يبالي لا بالأمير ولا بالشعب، ولا بالقانون ولا بالعرف، بل يفعل كل ما في وسعه ليُسيطر على جميع الناس ببعض أفكاره الخائنة، التي يُسميها عمومًا مبادئ الإيمان والقداسة. وعلى وجه الخصوص، سمعته ذات مرة يُؤكد أن المسيحية وعادات مدينتنا، مدينة الغرور، مُتناقضتان، ولا يُمكن التوفيق بينهما. بهذا القول، يا سيدي، لا يُدين فقط جميع أعمالنا الجديرة بالثناء، بل يُديننا نحن أيضًا في القيام بها."

القاضي. ثم قال له القاضي: "هل لديك ما تقوله بعد؟"

الحسد. يا سيدي، أستطيع أن أقول المزيد، لكنني لا أريد أن أثقل على المحكمة. ومع ذلك، إذا لزم الأمر، بعد أن يدلي السادة الآخرون بشهادتهم، فبدلاً من أن ينقصني شيءٌ يُنهي أمره، سيكون لديّ المزيد لأقوله ضده. لذلك أُمر بالانتظار.

ثم نادوا على خرافة، وأمروه أن ينظر إلى السجين. وسألوه أيضًا عما يمكنه قوله دفاعًا عن سيدهم الملك ضده. ثم أقسموا له، فبدأ:

يـا سـيدي، لـيس لـي معرفـة كبيـرة بهـذا الرجـل، ولا أرغـب فـي معرفـة المزيـد عنـه. مـع ذلـك، أعلـم أنـه شـخص بغـيض للغايـة، مـن حـديث دار بينـي وبينـه فـي هـذه المدينـة قبـل أيـام؛ إذ سـمعته يقـول إن ديننـا باطـل، ولا سـبيل لإرضـاء الله بـه. وهـذا القـول، يـا سـيدي، يعلـم صـاحب السـمو جيـدًا مـا سـيترتب عليـه حتمًـا؛ أي أننـا مـا زلنـا نعبـد عبـادة باطلـة، ومـا زلنـا غـارقين فـي خطايانـا، وسـنهلك فـي النهايـة. وهـذا مـا أود قوله.

ثـم أقسـم بيكثانـك، وأُمـر أن يقـول مـا يعرفـه، نيابـة عـن سـيدهم الملـك، ضد السجين أمام المحكمة.

يـا سـيدي، ويـا جميـع السـادة، هـذا الرجـل أعرفـه منـذ زمـن طويـل، وقـد سـمعته يتفـوه بكـلام لا يليـق، فقـد شـتم أميرنـا النبيـل بعلزبـول، واحتقـر أصـدقاءه الكـرام، وهـم : السـيد العجـوز، وسـيد المتعـة الجسـدية، وسـيد التـرف، وسـيد الرغبـة فـي المجـد الزائـف، وسـيد الشـهوة القـديم، والسـيد الجشـع، وبقيـة نبلائنـا. بـل قـال أيضًـا إنـه لـو كـان جميـع النـاس علـى رأيـه، لمـا بقـي لأحـد مـن هـؤلاء النـبلاء وجـود فـي هـذه المدينـة. إضـافة إلـى ذلـك، لـم يتـردد فـي شـتمك يـا سـيدي، أنـت الـذي عُينـت الآن قاضـيًا لـه، فوصـفك بـالوغـد الفاسـق، مسـتخدمًا عبـارات مسـيئة أخـرى مماثلـة، وهـي العبـارات التـي أطلقهـا علـى معظـم وجهاء مدينتنا.

أيهـا القاضـي. عنـدما روى بيكثانـك قصـته، وجـه القاضـي خطابـه إلـى المـتهم فـي قفـص الاتهـام قـائلاً: "أيهـا الهـارب، أيهـا الزنـديق، أيهـا الخائن! هل سمعت ما شهد به هؤلاء السادة الشرفاء ضدك؟"

إيمان. هل لي أن أقول بضع كلمات دفاعاً عن نفسي؟

أيهـا القاضـي، يـا سـراه، يـا سـراه، أنـت لا تسـتحق أن تعـيش بعـد الآن، بـل أن تُقتـل فـي الحـال؛ ومـع ذلـك، لكـي يـرى جميـع النـاس لطفنـا تجاهك، دعنا نسمع ما لديك لتقوله أيها الهارب الحقير.

الإيمـان. 1. أقـول إذن، ردًا علـى مـا قالـه السـيد إنفـي، لـم أقـل قـط إلا هـذا: إن أي قاعـدة أو قـانون أو عـرف أو شـعب يتعـارض تمامًـا مـع كلمـة الله، فهـو منـاقض للمسـيحية. فـإن كنـت قـد أخطـأت فـي هـذا، فـأقنعوني بخطئـي، وأنـا علـى اسـتعداد هنـا أمـامكم للتراجـع عـن كلامي.

٢. أمـا بخصـوص النقطـة الثانيـة، وهـي اتهـام السـيد الخرافـة لـي، فقـد قلـتُ فقـط إن عبـادة الله تتطلـب إيمانًـا صـادقًا. ولكـن لا يمكـن أن يكـون هنـاك إيمـان صـادق دون معرفـة إرادة الله. لـذلك، فـإن كـل مـا يُضـاف إلى عبادة الله ولا يوافق كلامه لن يُؤدي إلى الحياة الأبدية.

3. أما بخصوص ما قاله السيد بيكثانك، فأقول (متجنباً استخدام عبارات مسيئة، مثل اتهامي بالسب والشتم وما شابه)، إن أمير هذه البلدة، مع كل حاشيته من العامة، الذين ذكرهم هذا الرجل بالاسم، هم أجدر بالوجود في جهنم من التواجد في هذه البلدة وهذا البلد. فليغفر لي الله!

ثم نادى القاضي على هيئة المحلفين (الذين كانوا واقفين طوال الوقت ليستمعوا ويراقبوا)، قائلاً: "أيها السادة المحلفون، ترون هذا الرجل الذي أثيرت حوله ضجة كبيرة في هذه المدينة؛ وقد سمعتم أيضاً ما شهد به هؤلاء السادة الكرام ضده؛ كما سمعتم رده واعترافه. والآن يقع على عاتقكم القرار بين إعدامه أو إنقاذ حياته؛ ومع ذلك، أرى أنه من المناسب أن أطلعكم على قانوننا."

كان هناك قانونٌ صدر في عهد فرعون، خادم أميرنا العظيم، يقضي بأنه خشية أن يتكاثر أتباع الديانات الأخرى ويصبحوا أقوى منه، يُلقى بذكورهم في النهر. وكان هناك قانونٌ آخر صدر في عهد نبوخذنصر الكبير، خادمه الآخر، يقضي بأنه يُلقى في أتون النار كل من يرفض السجود لصورة الإله الذهبي. وكان هناك قانونٌ آخر صدر في عهد داريوس، يقضي بأنه يُلقى في جب الأسود كل من يدعو إلهاً غيره لفترة من الزمن. والآن، فقد خالف هذا المتمرد جوهر هذه القوانين، ليس فقط فكراً (وهو أمرٌ لا يُطاق)، بل قولاً وفعلاً، وهو أمرٌ لا يُحتمل. ها هو ذا يُجادل ضد ديننا؛ ولأنه اعترف بذلك، فهو يستحق الموت.

يموت أحد المؤمنين على الخازوق

ثم خرجت هيئة المحلفين، وكان من بينهم السيد أعمى، والسيد شرير، والسيد حقد، والسيد شهوة، والسيد طائش، والسيد متهور، والسيد متغطرس، والسيد عدوان، والسيد كاذب، والسيد قسوة، والسيد كراهية، والسيد لا يلين، وقد أدلى كل منهم بشهادته سرًا ضده فيما بينهم، ثم اتفقوا بالإجماع على إدانته أمام القاضي. وكان أول من قال بينهم السيد أعمى، رئيس المحلفين: "أرى بوضوح أن هذا الرجل زنديق". ثم قال السيد شرير: "أبعدوا مثل هذا الرجل عن الأرض!". فقال السيد حقد: "أجل، فأنا أكره حتى مجرد رؤيته". ثم قال السيد شهوة: "لا أطيقه أبدًا". فقال السيد طائش: "ولا أنا، لأنه سيظل دائمًا ينتقد طريقي". فقال السيد متهور: "شنقوه، شنقوه!". قال السيد ذو العقل الراجح: "يا له من وغد حقير!". وقال السيد العداوة: "قلبي يثور عليه!". وقال السيد الكاذب: "إنه محتال!". وقال السيد القسوة: "الإعدام شنقاً لا يكفيه!". وقال السيد الكراهية: "دعونا نتخلص منه!". ثم قال السيد الذي لا يلين: "لو مُنحتُ العالم كله، لما استطعتُ أن

أصـالحه؛ لـذلك دعونـا نُحضـره فـوراً إلـى العدالـة ونُحكـم عليـه بالإعدام!".

وهكذا فعلوا: لذلك حُكم عليه على الفور بأن يُنقل من المكان الذي كان فيه إلى المكان الذي أتى منه، وأن يُقتل هناك بأبشع طريقة يمكن تخيلها.

فأخرجوه ليفعلوا به ما يقتضيه شرعهم؛ فجلدوه أولًا، ثم ضربوه، ثم شقوا جسده بالسكاكين؛ وبعد ذلك رجموه بالحجارة، ثم طعنوه بسيوفهم، وأخيرًا أحرقوه على الخازوق حتى صار رمادًا. وهكذا كانت نهاية فيفتفول.

ثم رأيتُ خلف الجموع عربةً وحصانين ينتظران المؤمن، الذي ما إن قتله أعداؤه حتى رُفع إليها، وصعد بها على الفور عبر السحاب مصحوبًا بصوت البوق إلى أقرب طريق إلى البوابة السماوية. أما المسيحي، فقد تأخر قليلًا، وأُعيد إلى السجن، فمكث هناك فترة. لكن الذي يُسيطر على كل شيء، وله سلطان غضبهم بيده، دبّر الأمر بحيث أفلت المسيحي منهم في تلك اللحظة، ومضى في طريقه. وبينما هو ماضٍ، أنشد قائلًا:

"أيها المؤمن، لقد أقسمت بصدق لربك الذي ستنعم معه، بينما الكافرون، بكل ملذاتهم الزائفة، يصرخون تحت وطأة محنتهم الجهنمية. أنشد أيها المؤمن، أنشد، وليخلد اسمك؛ فمع أنهم قتلوك، فأنت لا تزال حيًا."

الفصل السابع

رأيتُ في حلمي أن كريستيان لم يخرج وحيدًا؛ فقد كان معه رجلٌ يُدعى هوبفول (وقد سُمّي كذلك لرؤيته كريستيان وفيثفول في أقوالهما وسلوكهما أثناء معاناتهما في المعرض)، فانضمّ إليه، وعقد معه عهدًا أخويًا بأن يكون رفيقه. وهكذا مات أحدهما ليُظهر إخلاصه للحق، وقام آخر من رماده ليكون رفيقًا لكريستيان في رحلته. وأخبر هوبفول كريستيان أيضًا أن هناك العديد من الرجال الآخرين في المعرض سيأخذون وقتهم ويتبعونه.

بنهاية حرية التعبير

فرأيت أنه بعد خروجهم من المعرض مباشرة، لحقوا برجل كان يسير أمامهم، واسمه باي-إندز؛ فقالوا له: "من أي بلد أنت يا سيدي؟ وإلى أين أنت ذاهب في هذا الطريق؟" فأخبرهم أنه قادم من بلدة فير-سبيتش، وأنه ذاهب إلى المدينة السماوية؛ لكنه لم يخبرهم باسمه.

كـريس: "مـن منظمــة "فيــر-ســبيتش!"، هـل هنـــاك أي شـخص جيـد يعيش هناك؟"

باي -إندز: "نعم، آمل ذلك".

كريس. من فضلك يا سيدي، كيف أناديكَ؟

غريـب عنـك، وأنـت غريـب عنـي: إذا كنـت سـتذهب فـي هـذا الطريـق، فسأكون سعيدًا بصحبتك؛ وإذا لم تكن كذلك، فيجب أن أكون راضيًا.

كـريس. هـذه البلـدة المسـماة فيـر-سـبيتش، لقـد سـمعت عنهـا؛ وكمـا أتذكر، يقولون إنها مكان ثري.

نعم ، أؤكد لك ذلك؛ ولدي هناك العديد من الأقارب الأثرياء.

كريس ، من هم أقاربك هناك؟ إن جاز لي أن أقول ذلك.

بواسـطة. تقريبًـا كـل المدينــة؛ ولكـن علــى وجــه الخصـوص اللــورد تيـرن أبــاوت، واللــورد تــايم سـيرفر، واللــورد فيـر سـبيتش، الـذين اسـتمدت المدينــة اسـمها مـن أسـلافهم؛ وكـذلك السـيد سـموث مــان، والسـيد فيسـينغ بـوث وايـز، والسـيد أنيثينـغ؛ وقـس رعيتنـا، السـيد تـو تـونغز، كـان شـقيق أمـي مـن جهـة أبـي؛ ولأكـون صـادقًا، لقـد أصـبحت رجلاً ذا مكانـة جيـدة؛ ومـع ذلـك، كـان جـدي الأكبـر مجـرد بحـار، ينظـر فـي اتجـاه ويجـدف فـي اتجـاه آخـر، وحصـلت علـى معظـم ثروتـي مـن نفس المهنة.

كريس، هل أنت رجل متزوج؟

نعـم ، وزوجتــي امـرأة فاضـلة للغايـة، ابنـة امـرأة فاضـلة؛ كانـت ابنـة السـيدة فينينـغ؛ لـذا فهـي تنتمـي إلـى عائلـة مرموقـة، وقـد بلغـت مـن التربيــة درجــة عاليــة مــن الرقــي، حتــى أنهــا تعــرف كيــف تعامــل الجميـع، حتـى الأمـراء والفلاحـين. صـحيح أننـا نختلـف قلـيلاً فـي الـدين عـن أتبـاع المـذهب الأكثـر تشـدداً، ولكـن فـي نقطتـين صـغيرتين فقـط: أولاً، لا نقـــاوم التيـــار ولا نعارضـــه؛ ثانيـــاً، نكـــون فـــي أوج حماســـنا عنـدما يكـون الـدين فـي أبهـى حللـه: فـنحن نحـب كثيـراً أن نسـير معـه في الشارع إذا أشرقت الشمس وأثنى عليه الناس.

ثـم تنحـى كريسـتيان جانبًـا قلـيلًا نحـو زميلـه هوبفـول، قـائلًا: "يخطـر ببــالي أن هــذا هــو بــاي-إنــدز، صــاحب الكــلام المعسـول؛ وإن كــان هــو، فلــدينا فــي مجموعتنــا محتــالٌ لا مثيــل لــه فــي هــذه الأنحــاء." فقــال هوبفـول: "اسـأله؛ أظـن أنـه لا ينبغـي أن يخجـل مـن اسـمه." فعـاد كريســتيان إليــه وقــال: "يــا ســيدي، تتحــدث وكأنــك تعلــم أكثــر ممــا يعلمـه العـالم أجمـع؛ وإن لـم أكـن مخطئـًا ، فـأظن أننـي قـد خمنتـك جيـدًا. أليس اسمك السيد باي-إندز، صاحب الكلام المعسول؟"

يا إلهي. هذا ليس اسمي؛ ولكنه في الواقع لقب أطلقه عليّ بعض الذين لا يطيقونني، ويجب أن أتقبله كعار، كما تحمله رجال صالحون آخرون من قبلي.

كريس. لكن ألم تُعطي الرجال فرصةً قط لينادوكِ بهذا الاسم؟

لا ، أبداً! أسوأ ما فعلته لأستحق هذا اللقب هو أنني كنت محظوظاً دائماً بمواكبة تقلبات العصر، مهما كانت، وكان ذلك مكسباً لي. ولكن إن كان هذا مصيري، فليكن نعمة، ولا يدع الحاقدون يلومونني.

كريس. لقد ظننت بالفعل أنك الرجل الذي سمعت عنه؛ ولأخبرك بما أعتقد، أخشى أن هذا الاسم يناسبك أكثر مما تعتقد.

حسناً ، إذا تخيلت ذلك، فلا حيلة لي: ستجدني رفيقاً جيداً إذا سمحت لي بمرافقتك.

كريس. إذا كنت ستذهب معنا، فعليك أن تسير عكس التيار والريح؛ وهو ما أراه مخالفاً لرأيك؛ وعليك أيضاً أن تعترف بالدين في ثيابه الرثة، كما هو الحال عندما يكون في نعاله الفضية؛ وأن تقف إلى جانبه أيضاً، سواء كان مقيداً بالأغلال، أو عندما يسير في الشوارع وسط التصفيق.

رأيك أو تسيطر عليه فيما يتعلق بمعتقداتي؛ دعها لحريتي، ودعني أذهب معك.

كريس. لن أتقدم خطوة أخرى، إلا إذا فعلت ما أعلنه كما نفعل.

باي -إندز: "لن أتخلى أبداً عن مبادئي القديمة، لأنها غير ضارة ومفيدة. إذا لم أستطع الذهاب معك، فيجب أن أفعل كما كنت أفعل قبل أن تلحق بي، حتى أذهب بمفردي، إلى أن يلحق بي شخص يسعد بصحبتي."

مبادئ المال والحب

رأيتُ في حلمي أن كريستيان وهوبفول قد هجراه، وابتعدا عنه؛ لكن أحدهما التفت فرأى ثلاثة رجال يتبعون السيد باي-إندز؛ ولما اقتربوا منه، انحنى لهم انحناءة عميقة، فأثنوا عليه بدورهم. كان الرجال يُدعون السيد هولد-ذا-وورلد، والسيد ماني-لوف، والسيد سيف-أول؛ رجالٌ كان السيد باي-إندز يعرفهم سابقًا؛ فقد كانوا زملاء دراسة في صغرهم، وتلقوا تعليمهم على يد السيد غريب-مان، وهو مُعلّم في لوف-غين، وهي بلدة سوقية في مقاطعة كوفيتينغ، شمالًا. علّمهم هذا المُعلّم فنّ الكسب، سواءً بالعنف، أو الغش، أو التملق، أو الكذب، أو التظاهر بالتدين؛ وقد تعلّم هؤلاء

الرجال الأربعة الكثير من فنّ مُعلّمهم، حتى أن كل واحد منهم كان قادرًا على إدارة مدرسة مماثلة.

حسناً، عندما قاموا، كما قلت، بتحية بعضهم البعض، قال السيد موني لوف للسيد باي إندز: "من هؤلاء الذين يقفون على الطريق أمامنا؟" لأن كريستيان وهوبفول كانا لا يزالان في مرمى البصر.

البعيد ، والذين، وفقًا لأسلوبهم، ذاهبون في رحلة حج.

المال. يا للأسف! لماذا لم يبقوا، لنحظى بصحبتهم الطيبة؟ فهم، ونحن، وأنت يا سيدي، آمل، جميعنا ذاهبون في رحلة حج.

نحن كذلك بالفعل؛ لكن الرجال الذين سبقونا متشددون للغاية، ويحبون أفكارهم الخاصة كثيراً، ولا يقدرون آراء الآخرين، حتى لو كان المرء متديناً للغاية، فإنهم يطردونه تماماً من صحبتهم إذا لم يتفق معهم في كل شيء .

حفظ. هذا أمر سيء؛ لكننا نقرأ عن بعض الذين يبالغون في التمسك بالتقوى، وتشدد هؤلاء الرجال يجعلهم يحكمون على الجميع ويدينونهم إلا أنفسهم. ولكنني أسأل، ما هي الأمور التي اختلفتم فيها، وكم عددها؟

؟ إنهم، بتعنتهم المعهودة، يستنتجون أن من واجبهم الإسراع في رحلتهم مهما كانت الأحوال الجوية؛ وأنا مع انتظار الريح والمد. إنهم مع المخاطرة بكل شيء في سبيل الله دون تردد؛ وأنا مع اغتنام كل فرصة لتأمين حياتي وممتلكاتي. إنهم مع التمسك بأفكارهم، حتى لو عارضها جميع الناس؛ أما أنا فمع الدين بقدر ما تسمح به الظروف وسلامتي. إنهم مع الدين حتى في أحلك الظروف وأشدها احتقارًا؛ أما أنا فمعه حتى في أوج مجده، تحت أشعة الشمس، وسط التصفيق.

انتظر. أجل، ابقَ مكانك يا سيد باي-إندز؛ فأنا أعتبره أحمق، كيف يُضيّع ما يملكه وهو حرّ في الاحتفاظ به؟ فلنكن حكماء كالحيات. من الأفضل استغلال الفرص ما دامت سانحة. انظر كيف تستريح النحلة طوال الشتاء، ولا تتحرك إلا عندما تجد نفعًا ومتعة. يُرسل الله أحيانًا المطر وأحيانًا الشمس؛ فإن كان من الحمقى أن يغامروا بالمطر، فلنرضَ نحن بالطقس الجميل. أنا شخصيًا أُفضّل الدين الذي يُحافظ على نعم الله علينا؛ فمن ذا الذي يُسيطر عليه عقله، وقد أنعم الله علينا بخيرات هذه الحياة، إلا ويريدنا أن نحافظ عليها من أجله؟ لقد ازداد إبراهيم وسليمان ثراءً بالدين؛ ويقول أيوب: "ينبغي للرجل الصالح أن يكنز الذهب كالغبار". لكن لا بد أنه ليس مثل الرجال الذين سبقونا، إذا كانوا كما وصفتهم.

حفظ. أعتقد أننا جميعًا متفقون على هذا الأمر، وبالتالي لا داعي لمزيد من الكلام بشأنه.

المال. لا، لا حاجة لمزيد من الكلام حول هذا الموضوع، في الواقع؛ لأن من لا يؤمن بالكتاب المقدس ولا بالعقل (وكما ترون، كلاهما في صفنا)، لا يعرف حريته ولا يسعى إلى سلامته.

وهكذا سار هؤلاء الرجال الأربعة، السيد باي-إندز، والسيد ماني-لوف، والسيد سيف-أول، والسيد العجوز هولد-ذا-وورلد، معًا، بينما كان كريستيان وهوبفول متقدمين عليهم بكثير.

مسيحي ومتفائل

ثم واصل كريستيان وهوبفول سيرهما حتى وصلا إلى سهلٍ هشٍّ يُدعى إيز، حيث سارا فيه في غاية الرضا؛ إلا أن ذلك السهل كان ضيقًا، فسرعان ما عبراه. وفي الجانب الآخر من ذلك السهل كان هناك تلٌّ صغير يُدعى لوكر، [4] وفي ذلك التل منجم فضة، انحرف بعض الذين سلكوا ذلك الطريق سابقًا لرؤيته لندرته؛ ولكن لما اقتربوا كثيرًا من حافة المنجم، انهار الأرض تحت أقدامهم، فقتلوا؛ كما أُصيب بعضهم بجروح بالغة، ولم يستطيعوا أن يعودوا رجالًا حتى مماتهم.

ثم رأيت في حلمي أنه على مسافة قصيرة من الطريق، مقابل منجم الفضة، وقف ديماس (الذي يشبه الرجل النبيل) لينادي على الركاب ليأتوا ويروا؛ فقال لكريستيان ورفيقه: "هيا! انحرفوا إلى هنا، وسأريكم شيئًا".

كريس. ما هو الشيء الذي يستحق أن يصرفنا عن الطريق؟

ديماس. هنا منجم فضة، وبعض التنقيب فيه عن الكنز؛ إذا أتيتم، فبقليل من الجهد يمكنكم أن توفروا لأنفسكم ثروة طائلة.

الأمل. ثم قال المتفائل: "دعنا نذهب لنرى".

: "ليس أنا. لقد سمعت بهذا المكان من قبل، وكم من الناس قُتلوا فيه؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الكنز فخ لمن يسعى إليه، لأنه يعيقهم في رحلتهم."

كريس. ثم نادى كريستيان ديماس قائلاً: "أليس هذا المكان خطيراً؟ ألم يعيق الكثيرين في حجهم؟"

ديماس. ليس خطيرًا جدًا، إلا على المهملين. ومع ذلك، احمرّ وجهه خجلًا وهو يتحدث.

كريس. ثم قال كريستيان لهوبفول: "دعونا لا نتحرك خطوة واحدة، بل نواصل طريقنا".

أمل. أضمن لك، عندما يأتي باي-إندز، إذا كانت لديه نفس الدعوة التي لدينا، فسوف يذهب إلى هناك ليرى.

كريس. لا شك في ذلك، لأن مبادئه تقوده إلى هذا الطريق؛ وواحد من مئة أنه سيموت هناك.

ديماس. ثم نادى ديماس مرة أخرى قائلاً: "ألا تأتي وتنظر؟"

كريس. فأجاب كريستيان بحزم قائلاً: "ديماس، أنت عدوٌّ لسبل الربّ المستقيمة في هذا الطريق، وقد أُدينتَ بالفعل لانحرافك أنت، من قِبَل أحد قضاة جلالته؛ فلماذا تسعى لإدانتنا نحن أيضاً؟ فضلاً عن ذلك، إذا انحرفنا ولو قليلاً، فسيسمع ربّنا الملك بذلك حتماً، وسيخزينا هناك حيث ينبغي أن نقف بشجاعة أمامه."

بكى ديماس مرة أخرى قائلاً إنه أيضاً واحد من رفاقهم، حاج مثلهم، وأنه إذا توقفوا قليلاً، فسيسير معهم أيضاً.

كريس. فقال كريستيان: "ما اسمك؟ أليس هو نفسه الاسم الذي دعوتك به؟"

ديماس. نعم، اسمي ديماس؛ أنا ابن إبراهيم.

كريس، أعرفك جيدًا: كان جحزي جدّك الأكبر، ويهوذا أباك، وقد سرتَ على خطاهما. إنها مجرد خدعة شيطانية ما تفعله: لقد شُنق والدك بتهمة الخيانة، ولا تستحق جزاءً أفضل. تأكد أننا عندما نأتي إلى الملك، سنخبره بسلوكك هذا. وهكذا انصرفوا.

في ذلك الوقت، عاد باي-إندز ورفاقه إلى الظهور، وعند أول منعطف ذهبوا إلى ديماس. الآن، لست متأكدًا مما إذا كانوا قد سقطوا في الحفرة بسبب النظر من حافتها، أو ما إذا كانوا قد نزلوا للحفر، أو ما إذا كانوا قد اختنقوا في القاع بسبب الرطوبة التي تنشأ عادةً؛ لكنني لاحظت أنهم لم يُروا مرة أخرى في الطريق. ثم غنى كريستيان:

"يتفق كل من ديماس وبقايا الفضة؛ أحدهما ينادي، والآخر يركض، ليكون شريكاً في ربحه؛ وهكذا يمضي هذان الاثنان في هذا العالم، ولا يذهبان أبعد من ذلك."

رأيتُ أن الحجاج، على الجانب الآخر من السهل، وصلوا إلى مكانٍ فيه نصبٌ تذكاريٌّ قديمٌ على جانب الطريق السريع. أثار منظره دهشتهم ودهشتهم لغرابة شكله، إذ بدا لهم كأنه امرأةٌ تحوّلت إلى عمود. وقفوا ينظرون إليه مطولًا، عاجزين عن فهم مغزاه. أخيرًا،

لمح هوبفول كتابةً بخطٍ غير مألوفٍ أعلى العمود، ولأنه لم يكن عالمًا، نادى كريستيان (الذي كان عالمًا) ليسأله إن كان بإمكانه فكّ رموزها. فأتى كريستيان، وبعد قليلٍ من تجميع الحروف، وجد أن العبارة هي: "تذكّر امرأة لوط". فقرأها على رفيقه، وبعد ذلك استنتجا أن هذا هو عمود الملح الذي تحوّلت إليه امرأة لوط، لأنها كانت تنظر إلى الوراء بقلبٍ طماعٍ وهي تغادر سدوم. هذا المشهد المفاجئ والمدهش دفعهم للقول:

كريس: آه يا أخي! إنه مشهدٌ في وقته تمامًا. لقد جاء إلينا في الوقت المناسب بعد دعوة ديماس لنا لنأتي ونشاهد تل لوكر؛ ولو ذهبنا كما طلب منا، وكما كنت تميل إلى فعله يا أخي، لكنا، على حد علمي، أصبحنا نحن أنفسنا، مثل هذه المرأة، مشهدًا لمن سيأتي بعدنا ليراه.

أمل. أنا آسفةٌ لغبائي، وأتساءل كيف لم أصبح الآن كزوجة لوط؛ فما الفرق بين خطيئتها وخطيئتي؟ لقد نظرت إلى الوراء فقط، ورغبتُ في الذهاب لأرى. فليُحمد الله على لطفه، وليخجلني أن يكون مثل هذا الأمر في قلبي.

كريس، دعونا نتأمل ما نراه هنا، لعله يعيننا في المستقبل. لقد نجت هذه المرأة من عقاب، لأنها لم تسقط بخراب سدوم؛ ومع ذلك فقد أهلكها عقاب آخر، كما نرى: فقد تحولت إلى عمود ملح.

يا للأمل! ما أعظم رحمة الله أننا لم نُتخذ مثله، لا أنت ولا أنا! وهذا يدعونا إلى شكر الله، وخشيته، وتذكر امرأة لوط دائمًا.

نهر ماء الحياة

رأيتُ حينها أنهم ساروا في طريقهم إلى نهرٍ عذب، سماه الملك داود "نهر الله"، وسماه يوحنا "نهر ماء الحياة". وكان طريقهم يمرّ بضفة هذا النهر، حيث سار كريستيان ورفيقه في غاية السرور، وشربا من مائه الذي كان منعشًا ومُحييًا لروحيهما المُنهكتين. وعلى ضفتي النهر أشجارٌ خضراء تُثمر شتى أنواع الفاكهة، وكانت أوراقها نافعةً في الطب، فكانوا يستمتعون بثمارها، ويأكلون أوراقها للوقاية من الأمراض، ولا سيما تلك التي تُصيب من يُرهقون أنفسهم بالسفر. وعلى ضفتي النهر أيضًا مرجٌ مُزدانٌ بزنابق الماء، وكان أخضرَ طوال العام، فاستلقوا فيه وناموا، حيث كان بإمكانهم أن يستريحوا بأمان. ولما استيقظوا، جمعوا من ثمار الأشجار مرة أخرى، وشربوا من ماء النهر مرة أخرى، ثم اضطجعوا ليناموا. وفعلوا ذلك أيامًا وليالٍ عديدة. ثم أنشدوا:

انظـروا كيـف تتـدفق هـذه الجـداول الصـافية، لتـريح الحجـاج علـى جانـب الطريـق السـريع؛ المـروج الخضـراء، إلـى جانـب رائحتهـا العطـرة، تُنـتج لهـم أشـهى المـأكولات؛ ومـن يستطيع أن يخبرنـا مـا هـي الثمـار اللذيـذة، بـل والأوراق، التـي تُنتجهـا هـذه الأشـجار، سـيبيع كـل شيء قريبًا، ليشتري هذا الحقل.

فلما رغبوا في مواصلة رحلتهم (لأنهم لـم يكونـوا قد وصلوا بعد إلى نهاية رحلتهم)، أكلوا وشربوا، ثم انصرفوا.

رأيتُ في منامي أنهم لـم يقطعوا مسافةً طويلـة، لكـن النهـر والطريـق افترقـا لـبعض الوقـت، فشـعروا بـالحزن الشـديد، ومـع ذلـك لـم يجـرؤوا علـى تغييـر مسـارهم. كـان الطريـق مـن النهـر وعـرًا، وأقـدامهم متعبـة مـن السـفر، ممـا أصـاب الحجـاج بالإحبـاط الشـديد بسـبب وعـورة الطريـق. ولـذلك، رغبـوا فـي طريـقٍ أفضـل أثنـاءِ سـيرهم. وقـبلهم بقليـل، علـى يسـار الطريـق، كـان هنـاك مـرجٌ، وسـلّمٌ خشـبيٌّ لعبـوره، ويُسـمى هـذا المـرج "مـرج الطريـق الجـانبي". فقـال كريسـتيان لرفيقـه: "إذا كـان هـذا المـرج يقـع بجانـب طريقنـا، فلنعبـره". ثـم ذهـب إلـى السـلّم ليـرى، وإذا بـه طريـقٌ يمتـد علـى الجانـب الآخـر مـن السـياج. فقـال كريسـتيان: "هـذا مـا أردت، هـذا هـو الطريـق الأسـهل. هيا يا صديقي، لنعبر".

الأمل. ولكن ماذا لو قادنا هذا الطريق إلى الخروج من المسار؟

الثقة المفرطة

كـريس: "هـذا غيـر مـرجح. ألا يمـر الطريـق بجانـب الطريـق؟" فأقنعـه رفيقـه، وتبعـه هوبفـول عبـر العتبـة. ولمـا عبـرا ودخـلا الطريـق، وجـداه سـهلاً للغايـة. وبينمـا همـا ينظـران أمامهمـا، رأيـا رجـلاً يسـير مثلهمـا، وكـان اسـمه فـين-كونفيـدنس (الثقـة المفرطـة). فناديـا عليـه وسـألاه إلـى أيـن يـؤدي هـذا الطريـق. فقـال: "إلـى البوابـة السماوية". فقـال كريسـتيان: "ألـم أقـل لكمـا ذلـك؟ مـن هـذا يتضـح أننـا علـى صـواب". فتبعـاه، وكـان يتقـدمهما. ولكـن، إذا بالليـل قـد حـل، واشـتدّ الظـلام، حتـى أن من كـانوا خلفـه لـم يـروا من كـان يتقـدمهم. لـذلك، فـإن الـذي كـان يسـير فـي المقدمـة (واسـمه الثقـة المفرطـة) لـم يـرَ الطريـق أمامـه، فسـقط فـي حفـرة عميقـة، والتـي صـنعها أميـر تلـك الأراضـي عمداً للإيقاع بالحمقى المهملين، وتحطمت إلى أشلاء عند سقوطه.

سـمع كريسـتيان ورفيقـه سـقوطه، فنـادوا عليـه ليستفسـروا، لكـن لـم يُجـبهم أحـد، بـل سـمعوا أنينًـا فقـط. فقـال هوبفـول: "أيـن نحـن الآن؟" فصمت رفيقـه، وكأنـه يشـك فـي أنـه أنقـذه مـن الطريـق، ثـم بـدأ المطـر يهطـل، والرعـد يتـردد، والبـرق يسـطع بشـكل مرعـب، وارتفـع منسوب المياه بشدة.

ثم تأوه هوبفول في نفسه قائلاً: "آه، ليتني واصلت طريقي!"

كريس. من كان ليظن أن هذا الطريق سيقودنا إلى الخروج من المأزق؟

أمل. كنتُ خائفًا في البداية، ولذلك حذرتكِ بلطف. كنتُ سأتحدث بصراحة أكبر، لكنكِ أكبر مني سنًا.

كريس، أخي العزيز، لا تغضب. أنا آسف جدًا لأني أبعدتك عن الطريق، ولأني عرّضتك لهذا الخطر الكبير. أرجوك يا أخي، سامحني: لم أفعل ذلك بنية سيئة.

أمل. اطمئن يا أخي، فأنا أسامحك، وأعتقد أيضاً أن هذا سيكون لخيرنا.

كريس. أنا سعيد لأن معي أخاً رحيماً؛ لكن يجب ألا نقف مكتوفي الأيدي: فلنحاول العودة مرة أخرى.

أمل. لكن يا أخي الكريم، دعني أرحل قبل ذلك.

كريس: لا، من فضلك؛ دعني أذهب أولاً، حتى إذا كان هناك أي خطر، أكون أول من يصل إليه، لأننا بواسطتي قد ابتعدنا عن الطريق.

الأمل. "لا، لن تذهبوا أولاً؛ لأن اضطراب عقولكم قد يُضلّكم عن الطريق مرة أخرى." ثم سمعوا صوتًا يقول لتشجيعهم: "اجعلوا قلوبكم متجهة نحو الطريق، الطريق الذي سلكتموه؛ ارجعوا." ولكن في ذلك الوقت، كانت المياه قد ارتفعت بشدة، مما جعل طريق العودة شديد الخطورة. (حينها فكرتُ أنه من الأسهل الخروج عن الطريق ونحن في الداخل، من الدخول ونحن في الخارج). ومع ذلك، قرروا العودة؛ ولكن كان الظلام دامسًا، والفيضان عاليًا جدًا، لدرجة أنهم كادوا يغرقون تسع أو عشر مرات في طريق عودتهم.

يأس هائل

لم يستطيعا، رغم كل مهاراتهما، العودة إلى المَعبر تلك الليلة. ولذلك، بعد أن لجأا أخيرًا إلى ظلٍّ صغير، جلسا هناك حتى بزوغ الفجر، لكنهما غلبهما التعب فغلبهما النعاس. كان هناك، ليس ببعيد عن المكان الذي رقدا فيه، قلعة تُدعى قلعة الشك، يملكها العملاق اليأس، وكانا ينامان في أرضه. فاستيقظ العملاق باكرًا في الصباح، وسار جيئة وذهابًا في حقوله، فوجد كريستيان وهوبفول نائمين في أرضه. ثم أيقظهما بصوتٍ جهوريٍّ فظّ، وسألهما من أين أتيا وماذا يفعلان في أرضه. فأخبراه أنهما حاجّان، وأنهما ضلا طريقهما. فقال العملاق: "لقد تعديتما عليّ هذه الليلة

بدخولكما أرضي والنوم فيها، ولذلك يجب عليكما الذهاب معي". فاضطرا للذهاب، لأنه كان أقوى منهما. ولم يكن لديهما الكثير ليقولاه، لأنهما كانا يدركان خطأهما . لذلك، طاردهم العملاق أمامه، وأدخلهم إلى قلعته، إلى زنزانة شديدة الظلام، كريهة الرائحة، تُثير اشمئزاز روحَي الرجلين. هناك، مكثوا من صباح الأربعاء حتى ليلة السبت، دون لقمة خبز أو قطرة شراب أو ضوء، ولا أحد يسأل عن حالهم؛ فكانوا في حالة يرثى لها، بعيدين عن أصدقائهم ومعارفهم. في هذا المكان، عانى كريستيان من حزن مضاعف، لأن تسرعه غير المبالي هو ما أوقعهم في هذه المحنة.

الحجاج في الزنزانة

كان لليأس العملاق زوجة تُدعى الخجل. ولما خلد إلى النوم، أخبر زوجته بما فعله؛ أي أنه أسر سجينين وألقى بهما في زنزانته لتعديهما على أرضه. ثم سألها عما يجب أن يفعله بهما. فسألته عن هويتهما، ومن أين أتيا، وإلى أين هما مقيدان؛ فأخبرها. فنصحته أن يضربهما ضربًا مبرحًا حين يستيقظ صباحًا. فلما استيقظ، أخذ عصا غليظة من خشب شجرة السلطعون، ونزل إلى الزنزانة حيث كانا، وهناك بدأ يسيء إليهما كما لو كانا كلبين، مع أنهما لم ينبسا ببنت شفة. ثم انقض عليهما وضربهما ضربًا مبرحًا، حتى لم يستطيعا الدفاع عن نفسيهما أو حتى قلبهما على الأرض. بعد ذلك، انسحب وتركهم هناك يغرقون في حزنهم على بؤسهم ويندبون حظهم العاثر. وهكذا أمضوا ذلك اليوم كله في التنهدات والحزن المرير. وفي الليلة التالية، تحدثت هي مع زوجها عنهم، ولما علمت أنهم ما زالوا على قيد الحياة، نصحته أن يأمرهم بالرحيل. فلما بزغ الصباح، ذهب إليهم عابسًا كما فعل من قبل، ولما رأى ألمهم الشديد من الضربات التي وجهها إليهم في اليوم السابق، قال لهم إنهم لن يخرجوا من ذلك المكان أبدًا، وأن سبيلهم الوحيد هو إنهاء حياتهم فورًا، إما بالسكين أو الحبل أو السم: "لماذا تختارون الحياة وهي مليئة بالمرارة؟" لكنهم طلبوا منه أن يتركهم يذهبون. عندها، نظر إليهم نظرةً حادة، واندفع نحوهم، وكان لا شك أنه سيقضي عليهم بنفسه، لولا أنه أصيب بنوبة (إذ كان يُصاب أحيانًا بنوبات في الطقس المشمس)، وفقد القدرة على استخدام يديه لفترة، فانسحب وتركهم كما كانوا يفكرون فيما يفعلون. ثم تشاور السجناء فيما بينهم، هل من الأفضل الأخذ بنصيحته أم لا؛ وهكذا بدأوا حديثهم.

كريس : "يا أخي، ماذا نفعل؟ الحياة التي نعيشها الآن بائسة. أما أنا، فلا أدري أيهما أفضل، أن أعيش هكذا أم أن أموت فجأة. روحي تفضل الموت خنقًا على الحياة، والقبر أهون عليّ من هذا السجن. هل سنخضع لحكم العملاق؟"

الأمل. حقًا، إن حالنا الراهن مروع، والموت أهون عليّ من البقاء على هذه الحال إلى الأبد. ولكن دعونا نتأمل: لقد قال سيد البلاد التي نحن ذاهبون إليها: "لا تقتل"، لا، ليس قتل إنسان آخر؛ فكيف لنا أن نأخذ بنصيحته بقتل أنفسنا؟ ثم إن من يقتل غيره لا يقتل إلا جسده، أما من يقتل نفسه فهو يقتل جسده وروحه معًا. وفوق ذلك يا أخي، أنت تتحدث عن الراحة في القبر، ولكن هل نسيت الجحيم، حيث يذهب القتلة حتمًا؟ فـ"لا حياة أبدية لقاتل". ولنتأمل مرة أخرى، أن القانون ليس كله بيد اليأس العملاق: فقد وقع آخرون، على حد علمي، في قبضته كما وقعنا نحن، ومع ذلك نجوا من قبضته. من يدري، لعل الله خالق العالم يُهلك اليأس العملاق؟ أو أنه قد ينسى في وقت ما أن يحبسنا؟ أو أنه قد يُصاب بنوبة أخرى قبلنا بقليل، فيفقد القدرة على استخدام أطرافه؟ وإذا حدث ذلك مرة أخرى، فأنا عازم على انتزاع قلبه، وبذل قصارى جهدي للتحرر من قبضته. لقد كنت أحمقًا لأني لم أحاول فعل ذلك من قبل. ولكن يا أخي، فلنصبر ونتحمل قليلًا: قد يأتي الوقت الذي يمنحنا الخلاص السعيد؛ ولكن دعونا لا نكون قتلة أنفسنا.

بهذه الكلمات، استطاع هوبفول في الوقت الحالي أن يهدئ من روع أخيه؛ وهكذا استمرا معاً في الظلام ذلك اليوم، في حالتهما الحزينة والمحزنة.

حسنًا، مع حلول المساء، نزل العملاق إلى الزنزانة مرة أخرى ليرى إن كان سجناؤه قد أخذوا بنصيحته. ولكن عندما وصل، وجدهم أحياء؛ وحقًا، كانوا أحياء؛ إذ لم يكن بوسعهم الآن، بسبب نقص الخبز والماء، وبسبب الجروح التي أصيبوا بها عندما ضربهم، سوى التنفس. ولكن، أقول، وجدهم أحياء؛ عندها استشاط غضبًا شديدًا، وأخبرهم أنهم، لعصيانهم نصيحته، سيكون مصيرهم أسوأ من لو لم يولدوا أبدًا.

عندها ارتجفوا بشدة، وأظن أن كريستيان قد أُغمي عليه؛ ولكن بعد أن استعادوا وعيهم قليلاً، استأنفوا حديثهم عن نصيحة العملاق وما إذا كان من الأفضل لهم الأخذ بها أم لا. الآن، بدا كريستيان مستعدًا للأخذ بها مرة أخرى؛ لكن هوبفول أجاب رده الثاني على النحو التالي:

الأمل. قال: "يا أخي، ألا تتذكر كم كنت شجاعًا من قبل؟ لم يستطع أبوليون أن يسحقك، ولا كل ما سمعته أو رأيته أو شعرت به في وادي ظل الموت. يا له من عناء ورعب وذهول مررت به! والآن لست سوى خوف؟ أنت ترى أنني في الزنزانة معك، رجل أضعف منك بكثير بطبيعته؛ وقد جرحني هذا العملاق كما جرحك، وقطع

عني الخبز والماء؛ ومعك، أبكي في الظلام. لكن دعنا نتحلى بمزيد من الصبر. تذكر كيف أظهرت شجاعتك في سوق الغرور، ولم تخف من السلاسل ولا من القفص ولا من الموت الدامي. لذلك، فلنتحلى بالصبر قدر استطاعتنا (على الأقل لتجنب العار الذي لا يليق بالمسيحي)."

ولما حلّ الليل من جديد، وكان العملاق وزوجته في فراشهما، سألته عن السجناء، وعما إذا كانوا قد أخذوا بنصيحته، فأجابها: «إنهم لصوص أشداء، يفضلون تحمل المشقة على الفرار». فقالت: «خذهم إلى ساحة القلعة غدًا، وأرهم عظام وجماجم من قتلتهم، وأوهمهم أنك ستمزقهم إربًا إربًا قبل انقضاء أسبوع، كما فعلت بإخوانهم من قبل».

فلما بزغ الصباح، عاد العملاق إليهما، وأخذهما إلى فناء القلعة، وأراهما كما أمرته زوجته. قال: "كان هذان حاجّين مثلكما في الماضي، وقد تعدّيا على أرضي كما فعلتما، وعندما رأيت ذلك مناسبًا، مزّقتهما إربًا إربًا، وهكذا سأفعل بكما في غضون عشرة أيام. اذهبا، انزلا إلى جحركما". ثم ضربهما ضربًا مبرحًا حتى وصلا إلى هناك. وهكذا، بقيا طوال يوم السبت في حالة يرثى لها، كما كانا من قبل. ولما حلّ الليل، ولما خلدت السيدة ديفيدنس وزوجها العملاق إلى الفراش، استأنفا حديثهما عن أسريهما، وفي غمرة ذلك، تعجب العملاق العجوز من أنه لم يستطع، لا بضرباته ولا بمشورته، أن يضع حدًا لهما. فأجابت زوجته قائلة: "أخشى أنهم يعيشون على أمل أن يأتي من ينقذهم، أو أنهم يملكون أدوات لفتح الأقفال، يأملون بها الهرب". فقال العملاق: "أتقولين هذا يا عزيزتي؟ سأفتشهم إذن في الصباح".

هروب الحجاج

حسناً، في يوم السبت حوالي منتصف الليل، بدأوا بالصلاة، واستمروا في الصلاة حتى مطلع الفجر تقريباً.

قبل بزوغ الفجر بقليل، انطلق المسيحي الطيب، وقد بدا عليه الذهول، في هذا الخطاب الجاد: "يا له من أحمق!" قال، "أنا أقبع في زنزانة كريهة الرائحة، بينما يمكنني أن أتجول بحرية! لدي مفتاح في صدري اسمه الوعد، وأنا متأكد من أنه سيفتح أي قفل في قلعة الشك." فقال له المتفائل: "هذه أخبار سارة يا أخي: أخرجه من صدرك، وجرّبه."

ثم أخرج كريستيان المفتاح من صدره، وبدأ يحاول فتح باب الزنزانة، فانفتح مزلاج الباب بسهولة عندما أدار المفتاح، وخرج كريستيان وهوبفول. ثم ذهب إلى الباب الخارجي المؤدي إلى

ساحة القلعة، وفتحه بمفتاحه أيضًا. بعد ذلك، ذهب إلى البوابة الحديدية، إذ كان لا بد من فتحها أيضًا؛ لكن القفل كان شديد الصلابة، ومع ذلك فتحه المفتاح. ثم دفعوا البوابة ليهربوا بسرعة؛ لكن البوابة، عندما فُتحت، أحدثت صريرًا أيقظ العملاق اليأس الذي نهض على عجل لمطاردة أسراه، فشعر بضعف في أطرافه؛ إذ عاودته نوباته، فلم يستطع اللحاق بهم. ثم تابعوا سيرهم، ووصلوا إلى طريق الملك مرة أخرى، فكانوا في أمان لأنهم كانوا خارج سيطرة العملاق اليأس.

ولما عبروا العتبة، شرعوا في التفكير فيما سيفعلونه عند تلك العتبة ليمنعوا من سيأتي بعدهم من الوقوع في قبضة عملاق اليأس. فاتفقوا على بناء عمود هناك، ونقش هذه العبارة على جانبه: "عبر هذه العتبة الطريق إلى قلعة الشك، التي يحرسها عملاق اليأس، الذي يحتقر ملك بلاد السماء، ويسعى إلى هلاك حجاجه الأطهار". فقرأ كثير ممن تبعوهم ما كُتب، ونجوا من الخطر. وبعد ذلك، أنشدوا ما يلي:

"ابتعدنا عن الطريق، ثم وجدنا ما معنى السير على أرض محرمة: وليحذر الذين يأتون بعدنا، لئلا يجعلهم الإهمال مثلنا؛ لئلا يكونوا بسبب التعدي على ممتلكاته أسرى له، قلعة الشك، واسمه اليأس."

الفصل الثامن.

الجبال الشهية

ثم ساروا حتى وصلوا إلى الجبال البهيجة ، وهي جبالٌ تابعةٌ لربّ ذلك التلّ الذي سبق أن ذكرناه. فصعدوا إلى الجبال ليتأملوا الحدائق والبساتين، والكروم والينابيع، حيث شربوا واغتسلوا، وأكلوا من الكروم. وكان على قمم هذه الجبال رعاةٌ يرعون قطعانهم، واقفين على جانب الطريق. فاقترب منهم الحجاج، واتكأوا على عصيهم (كما هي عادة الحجاج المرهقين حين يقفون للحديث مع أحدٍ على الطريق)، وسألوهم: "لمن هذه الجبال البهيجة، ولمن هذه الأغنام التي ترعى عليها؟"

شيب. هذه الجبال هي أرض عمانوئيل، وهي على مرأى من مدينته؛ والأغنام أيضاً له، وقد بذل حياته من أجلها.

كريس، هل هذا هو الطريق إلى المدينة السماوية؟

شيب، أنت فقط تعيق طريقك.

كريس، كم تبعد المسافة إلى هناك؟

شيب. بعيد جدًا على أي شخص إلا أولئك الذين سيصلون إلى هناك بالفعل.

كريس، هل الطريق آمن أم خطير؟

شيب. آمن لمن ينبغي أن يكون آمناً؛ أما الخطاة فسيقعون فيه.

كريس، هل يوجد في هذا المكان أي راحة للحجاج المرهقين والمنهكين في الطريق؟

شيب. لقد أوصانا رب هذه الجبال ألا ننسى الاهتمام بالغرباء؛ لذلك فإن خير المكان أمامكم.

رأيتُ في منامي أيضًا أنه عندما أدرك الرعاة أنهم مسافرون، سألوهم أسئلة (أجابوا عليها كما في أماكن أخرى)، مثل: "من أين أتيتم؟" و"كيف وصلتم إلى هذا الطريق؟" و"بأي وسيلة ثابرتم على هذا الدرب؟ فقليلٌ من الذين يبدأون المجيء إلى هنا يظهرون وجوههم على هذه الجبال." ولكن عندما سمع الرعاة إجاباتهم، سرّوا بها، ونظروا إليهم بمحبة بالغة، وقالوا: "مرحبًا بكم في الجبال البهيجة!"

أخذ الرعاة، الذين كانت أسماؤهم المعرفة والخبرة واليقظة والإخلاص، بأيديهم وأوصلوهم إلى خيامهم، وأطعموهم مما كان جاهزًا. وقالوا لهم: "نريدكم أن تبقوا هنا قليلًا لتتعرفوا علينا، ولتستمتعوا أكثر بجمال هذه الجبال البهيجة". ثم أخبروهم أنهم راضون بالبقاء. فذهبوا للراحة تلك الليلة، فقد كان الوقت متأخرًا جدًا.

يقودهم الرعاة

ثم رأيت في منامي أن الرعاة دعوا كريستيان وهوبفول في الصباح للسير معهم على الجبال. فخرجوا معهم وساروا قليلاً، وكان المنظر من حولهم خلاباً. ثم قال الرعاة لبعضهم: "هل نُري هذين الحاجين بعض العجائب؟" فلما قرروا ذلك، صعدوا بهما أولاً إلى قمة التل المسمى "الخطأ"، وكان شديد الانحدار من أقصى جانب، وأمروهما بالنظر إلى أسفله. فنظر كريستيان وهوبفول، فرأيا في الأسفل رجالاً كثيرين قد تناثروا إرباً إرباً جراء سقوطهم من القمة. فقال كريستيان: "ما معنى هذا؟" فأجابه الرعاة: "ألم تسمعوا عن الذين ضلّوا، إذ استمعوا إلى هيمينيوس وفيليتوس، بشأن الإيمان بالقيامة من الأموات؟" فأجابا: "بلى". ثم قال الرعاة: "هؤلاء الذين ترونهم ملقين محطمين إلى أشلاء في أسفل هذا الجبل هم أولئك الذين بقوا حتى يومنا هذا دون دفن، كما

ترون، ليكونوا عبرة للآخرين ليحذروا كيف يتسلقون إلى أعلى الجبل، أو كيف يقتربون كثيراً من حافته".

ثم رأيتُ أنهم صعدوا بهم إلى قمة جبل آخر، واسمه الحذر، وأمروهم أن ينظروا بعيدًا؛ فلما فعلوا، رأوا، كما ظنوا، رجالًا يمشون جيئة وذهابًا بين القبور الموجودة هناك؛ ولاحظوا أن الرجال كانوا عميانًا، لأنهم كانوا يتعثرون أحيانًا بالقبور، ولأنهم لم يتمكنوا من الخروج منها. فقال كريستيان: "ما معنى هذا؟"

فأجاب الرعاة: "ألم تروا أسفل هذه الجبال بقليل سلماً يؤدي إلى مرج على الجانب الأيسر من هذا الطريق؟" فأجابوا: "بلى". ثم قال الرعاة: "من ذلك المَعْبُورِ ينطلقُ دربٌ يؤدي مباشرةً إلى قلعةِ الشكِّ، التي يحرسها عملاقُ اليأس؛ وهؤلاء الرجال" (مشيرين إليهم بين القبور) "جاؤوا ذات مرةٍ في رحلةِ حجٍّ، كما تفعلون الآن، حتى وصلوا إلى ذلك المَعْبُورِ نفسه. ولأنَّ الطَّرِيقَ الصحيحَ كان وعرًا في ذلك المكان، اختاروا الخروجَ منه إلى ذلك المرج، وهناك أخذهم عملاقُ اليأس، وألقاهم في قلعةِ الشكِّ، حيثُ، بعد أن قضوا بعضَ الوقتِ في الزنزانة، فقأَ أعينَهم أخيرًا، وقادهم بين تلك القبور، حيثُ تركهم يتيهون إلى يومنا هذا، حتى يتمَّ قولُ الحكيم: "من يضلّ عن طريقِ المعرفةِ، يبقى في جماعةِ الموتى". ثمَّ نظرَ كريستيان وهوبفول إلى بعضهما البعض والدموعُ تنهمرُ من عينيهما، لكنهما لم يقولا شيئًا للرعاة.

ثم رأيت في منامي أن الرعاة اقتادوهم إلى مكان آخر في وادٍ، حيث كان هناك باب على جانب تل؛ ففتحوا الباب وأمروهم بالنظر إلى الداخل. فنظروا، ورأوا أن الداخل شديد الظلام والدخان؛ وظنوا أنهم سمعوا هناك صوت هدير كأنه نار، وصراخ معذب، وشموا رائحة كبريت. فقال كريستيان: "ما معنى هذا؟" فأجابهم الرعاة: "هذا طريق فرعي إلى جهنم، طريق يسلكه المنافقون: أولئك الذين يبيعون بكوريتهم، مثل عيسو؛ وأولئك الذين يبيعون سيدهم، مثل يهوذا؛ وأولئك الذين يجدفون على الإنجيل، مثل الإسكندر؛ وأولئك الذين يكذبون ويخدعون، مثل حنانيا وسفيرة زوجته."

الأمل. ثم قال الأمل للرعاة: "أرى أن هؤلاء كانوا، كل واحد منهم، يظهرون علامات الحج، كما هو الحال لدينا الآن؛ أليس كذلك؟"

شيب: نعم، وظل كذلك لفترة طويلة أيضاً.

الأمل. إلى أي مدى كانوا سيواصلون رحلتهم في أيامهم، بعد أن تم نبذهم بهذه الطريقة البائسة؟

شيب. بعضها أبعد من ذلك، وبعضها ليس بعيدًا مثل هذه الجبال.

ثم قال الحجاج بعضهم لبعض: "نحن بحاجة إلى أن نبكي إلى القوي طلباً للقوة".

شيب. أي، وستحتاج إلى استخدامه عندما يكون لديك أيضًا.

بوابة المدينة السماوية

في ذلك الوقت، كان لدى الحجاج رغبة في المضي قدمًا، وكان لدى الرعاة رغبة في أن يفعلوا ذلك؛ فساروا معًا نحو نهاية الجبال. ثم قال الرعاة لبعضهم البعض: "دعونا هنا نري الحجاج بوابة المدينة السماوية، إن كانوا قادرين على النظر من خلال منظارنا." فقبل الحجاج الاقتراح بمحبة؛ فأخذوهم إلى قمة تل عالٍ يُسمى كلير، وأعطوهم منظارهم لينظروا.

ثم حاولوا النظر، لكن تذكرهم للشيء الأخير الذي أراهم إياه الرعاة جعل أيديهم ترتجف، مما أعاقهم عن النظر بثبات عبر المرآة؛ ومع ذلك ظنوا أنهم رأوا شيئًا يشبه البوابة، وشيئًا من روعة المكان. وهكذا انصرفوا، وأنشدوا هذه الأغنية:

"وهكذا يكشف الرعاة الأسرار التي تُخفى عن جميع الناس. تعالوا إلى الرعاة إذن، إن أردتم أن تروا الأشياء العميقة، والأشياء الخفية، والأمور الغامضة."

عندما همّوا بالرحيل، أعطاهم أحد الرعاة ورقةً تدلّهم على الطريق. وحذّرهم آخر من المتملق. ونصحهم الثالث ألا يناموا على الأرض المسحورة. وتمنى لهم الرابع التوفيق.

فاستيقظت من حلمي.

الفصل التاسع.

إنهم يتغلبون على الجهل

ونمتُ، وحلمتُ ثانيةً، فرأيتُ الحاجّين نفسيهما ينزلان الجبال على الطريق السريع باتجاه المدينة. أسفل هذه الجبال بقليل، على اليسار، تقع بلاد الغرور؛ ومنها ينطلق الطريق الذي سلكه الحاجّان في زقاقٍ صغيرٍ متعرج. وهناك، التقيا بفتىً نشيطٍ قادمٍ من تلك البلاد، واسمه الجهل. فسأله كريستيان من أين أتى، وإلى أين هو ذاهب.

جاهل. سيدي، لقد ولدت في البلد الذي يقع هناك قليلاً إلى اليسار، وأنا ذاهب إلى المدينة السماوية.

كـريس. لكـن كيـف تعتقـد أنـك سـتدخل مـن البوابـة؟ فقـد تواجـه بعـض الصعوبة هناك.

تجاهل. كما يفعل الآخرون.

كـريس. ولكـن مـا الـذي لـديك لتقدمـه عنـد البوابـة، والـذي قـد يتسـبب في فتح البوابة لك؟

جاهـل. أعـرف إرادة ربـي، وكنـت صـالحاً فـي حيـاتي؛ أدفـع لكـل إنسـان حقـه؛ أصـلي، وأصـوم، وأدفـع المـال للكنيسـة وأتصـدق علـى الفقـراء، وقد تركت بلادي إلى حيث أنا ذاهب.

كـريس. لكنـك لـم تـدخل مـن البوابـة الصـغيرة الموجـودة فـي بدايـة هـذا الطريـق: لقـد دخلـت مـن خـلال ذلـك الزقـاق الملتـوي نفسـه؛ ولـذلك أخشـى، مهمـا كنـت تعتقـد عـن نفسـك، أنـه عنـدما يـأتي يـوم الحسـاب، سـتكون قـد اتهمـت نفسـك بأنـك لـص وسـارق، بـدلاً مـن الحصـول علـى إذن بالدخول إلى المدينة.

السـادة ، أنـتم غربـاء عنـي تمامًـا، لا أعـرفكم. اكتفـوا باتبـاع عـادات بلادكـم، وسـأتبع عـاداتي. آمـل أن يكـون كـل شـيء علـى مـا يـرام. أمـا بالنسـبة للبوابـة التـي تتحـدثون عنهـا، فالعـالم أجمـع يعلـم أنهـا بعيـدة جـدًا عـن بلادنـا. لا أظـن أن أحـدًا فـي منطقتنـا يعـرف الطريـق إليهـا، ولا يهـم إن كـانوا يعرفونـه أم لا، فلـدينا، كمـا تـرون، طريـق أخضـر جميل يمتد من بلادنا، الطريق التالي المؤدي إليها.

لمـا رأى كريسـتيان أن الرجـل حكـيم فـي نظـر نفسـه، قـال لهوبفـول هامسًـا: "إن الأمـل فـي الأحمـق أكبـر منـه". وأضـاف: "عنـدما يسـير الأحمـق فـي الطريـق، تتلاشـى حكمتـه، فيقـول للجميـع إنـه أحمـق. مـاذا! هـل نواصـل الحـديث معـه، أم نتركـه الآن، وندعـه يفكـر فيمـا سـمعه، ثـم نعـود إليـه لاحقًـا، ونـرى إن كـان بإمكاننـا أن ننفعـه شـيئًا فشيئًا؟"

ثم قال هوبفول:

"دع الجهـل يتأمـل قلـيلاً فيمـا قيـل، ولا يـرفض النصـيحة الحسـنة، لـئلا يبقـى جـاهلاً بـأعظم المكاسـب. يقـول الله: الـذين لا فهـم لهـم (مـع أنـه خلقهم)، فلن ينجيهم."

قـائلاً : "لـيس مـن الجيـد، فـي رأيـي، أن نقـول لـه كـل شـيء دفعـة واحـدة: دعونـا نتجـاوزه، إن شـئتم، ونتحـدث إليـه علـى فتـرات، حتـى يتمكن من تحمل ذلك".

فمضـيا كلاهمـا، ولحـق بهمـا الجهـل. ولمـا تجـاوزاه قلـيلاً، دخـلا زقاقـاً شـديد الظـلام، حيـث التقيـا برجـلٍ قيّـده سـبعة شـياطين بسـبعة حبـالٍ

متينة، وكانوا يحملونه عائدين إلى الباب الذي رأوه على جانب التل. فبدأ المسيحي الصالح يرتجف، وكذلك فعل رفيقه هوبفول؛ وبينما كان الشياطين يقودون الرجل، نظر كريستيان ليرى إن كان يعرفه؛ فظن أنه قد يكون أحد المرتدين، الذي يسكن بلدة الردة. لكنه لم يرَ وجهه بوضوح، فقد كان مطأطئ الرأس كاللص الذي يُقبض عليه؛ ولكن بعد أن تجاوزاه، نظر هوبفول إليه، فرأى على ظهره ورقةً كُتب عليها: "شخصٌ كان شريراً وهو يدّعي الصلاح، وقد ارتدّ عن الله".

ثلاثة محتالين أقوياء

ثم قال كريستيان لرفيقه: "أتذكر الآن ما قيل عن حادثة وقعت لرجل صالح من هنا. كان اسمه ليتل فيث، وكان رجلاً صالحاً، ويسكن في بلدة سينسير. والقصة هي: عند مدخل هذا الممر، ينحدر من بوابة برودواي زقاق يُسمى زقاق الرجل الميت؛ سُمي كذلك لكثرة جرائم القتل التي تُرتكب فيه؛ وكان ليتل فيث، ذاهباً في رحلة حج كما نفعل الآن، فجلس هناك ونام. وفي ذلك الوقت، نزل من ذلك الزقاق، من بوابة برودواي، ثلاثة لصوص أشداء، أسماؤهم فينت هارت، وميستراست، وجيلت، ثلاثة إخوة؛ ولما رأوا ليتل فيث، أقبلوا إليه مسرعين. وكان الرجل الصالح قد استيقظ لتوه من نومه، وكان يستعد لمواصلة رحلته. فاقتربوا منه جميعاً، وهددوه بكلمات جارحة، وأمروه بالوقوف." عندها، بدا ليتل-فيث شاحبًا كالميت، لا حول له ولا قوة. فقال فينت-هارْت: «أعطني محفظتك!». لكنه لم يُسرع في ذلك (لأنه كان يخشى فقدان ماله). ركض إليه ميستراست، وأدخل يده في جيبه، وأخرج منه كيسًا من الفضة. ثم صرخ: «لصوص! لصوص!». عندها، ضرب غيلت، بهراوية كبيرة كانت في يده، ليتل-فايث على رأسه، فسقط أرضًا ينزف بغزارة كمن سيموت. طوال هذا الوقت، وقف اللصوص مكتوفي الأيدي. ولكن عندما سمعوا أخيرًا أن هناك من يسير في الطريق، وخافوا أن يكون من بينهم غريت-غريس، ساكن مدينة غود-كونفيدنس، فروا هاربين، وتركوا هذا الرجل الطيب يدبّر أمره بنفسه. بعد حين، استعاد ليتل-فايث وعيه، ونهض، وانطلق في طريقه. هذه هي القصة.

الأمل. لكن هل سلبوه كل ما كان يملكه؟

كريس: لا، لم ينهبوا المكان الذي كانت فيه مجوهراته، فقد احتفظ بها. لكن كما قيل لي، كان الرجل الطيب حزينًا جدًا لخسارته، لأن اللصوص استولوا على معظم مصروفه. أما ما لم يستولوا عليه، كما قلت، فكانت مجوهراته؛ كما بقي معه بعض المال، لكنه بالكاد يكفيه حتى نهاية رحلته. بل، إن لم أكن مخطئًا، فقد اضطر للتسول

فـي طريقـه ليُبقـي علـى حياتـه، لأنـه لـم يكـن ليبيـع مجوهراتـه؛ لكنـه تسـول وفعـل مـا بوسـعه، ومضـى، كمـا نقـول، غالبًـا بـبطن جـائع فـي معظم ما تبقى من الطريق.

الأمـل. ولكـن ألـيس مـن المـدهش أنهـم لـم يحصـلوا منـه علـى شـهادته التـــي كـــان مـــن المفتـــرض أن تســـمح لـــه بالـــدخول إلـــى البوابـــة السماوية؟

كـريس. إنــه لأمـر عجيـب؛ لكـنهم لـم يحصـلوا علـى ذلـك، مـع أنهـم لـم يفوتـوه بسـبب أي مكـر مـن جانبـه؛ لأنـه، وقـد أذهـل مـن قـدومهم إليـه، لـم يكـن لديـه القـدرة ولا المهـارة لإخفـاء أي شـيء؛ لـذلك كـان الأمـر أقـرب إلـى العنايـة الإلهيـة منـه إلـى سـعيه، أنهـم أضـاعوا ذلـك الشـيء الجيد.

الأمـل. ولكـن لا بـد أن يكـون مـن دواعـي ارتياحـه أنهـم لـم يحصـلوا على مجوهراته منه.

كـريس. ربمـا كـان ذلـك مصـدر راحـة كبيـرة لـه لـو اسـتخدمه كمـا ينبغـي؛ لكـن مـن أخبرونـي بالقصـة قـالوا إنـه لـم يسـتخدمه إلا قلـيلاً طـوال بقيـة الرحلـة، وذلـك بسـبب الفـزع الـذي انتابـه عنـدما سُـلب منـه مالـه. فـي الواقـع، نسـيه معظـم مـا تبقـى مـن رحلتـه؛ إضـافة إلـى ذلـك، كلمـا خطـر ببالـه وبـدأ يشـعر بالراحـة بفضـله، كانـت تعـود إليـه أفكـار جديدة عن خسارته، فتستحوذ عليه تلك الأفكار تمامًا.

متفائل مرفوض

أمل. يا للأسف، مسكين! لا شك أن هذا سيسبب له حزناً عظيماً.

كـريس. حـزن! أجـل، حـزنٌ عظـيم. ألـم يكـن ليُصـيب أيٌّ منـا نفـس الشـعور لـو كنـا مكانـه، نُسـرق ونُجـرح، وفـي مكـان غريـب مثلـه؟ عجـبٌ أنـه لـم يمـت مـن الحـزن، يـا لـه مـن مسكين! قيـل لـي إنـه قضـى مـا تبقـى مـن الطريـق وهـو لا ينطـق إلا بالشـكوى الحزينـة والمريـرة، ويخبـر كـل مـن لحـق بـه، أو لحـق بـه فـي طريقـه، أيـن سُـرق، وكيـف، ومن فعل ذلك، وماذا فقد، وكيف جُرح، وكيف نجا بأعجوبة.

الأمـل. ولكـن مـن العجيـب أن حاجتـه لـم تدفعـه إلـى بيـع أو رهـن بعـض مجوهراته، حتى يتمكن من الحصول على ما يعينه في رحلته.

كـريس، تتحـدث كمـن لا يـزال رأسـه غليظًـا حتـى يومنـا هـذا. فمـاذا يرهنهـا، ولمـن يبيعهـا؟ فـي كـل تلـك الـبلاد التـي سُـرقت فيهـا مجوهراتـه، لـم تُحسب قيمتهـا؛ ولـم يكـن بحاجـة إلـى أي مسـاعدة تُقـدم لـه مـن هنـاك. عـلاوة علـى ذلـك، لـو فُقـدت مجوهراتـه عنـد بوابـة المدينـة السـماوية، لكـان قـد حُـرم (وهـو يعلـم ذلـك جيـدًا) مـن ميـراث هناك؛ وكان ذلك أسوأ عليه من قدوم عشرة آلاف لص ونهبهم.

أمل. لكن يا كريستيان، هؤلاء الثلاثة، أنا مقتنع في قرارة نفسي، ليسوا إلا جماعة من الجبناء: هل كانوا سيهربون لولا ذلك، كما فعلوا عند سماع صوت أحدهم قادمًا على الطريق؟ لماذا لم يتحلَّ ليتل-فايث بشجاعة أكبر؟ ربما كان بإمكانه، في رأيي، أن يتحمل مواجهة واحدة معهم، وأن يستسلم عندما لم يكن هناك مفر.

كريس. لقد قال كثيرون إنهم جبناء، لكن قليلين هم من وجدوا ذلك صحيحًا وقت المحنة. أما عن شجاعة القلب، فلم يكن لدى "قليل الإيمان" أي شجاعة؛ وأرى من خلالك يا أخي، لو كنت أنت المعني، لكنتَ مجرد أداة سهلة للاستسلام. والحق يُقال، بما أن هذه هي أقصى درجات شجاعتك الآن وهم بعيدون عنا، فلو ظهروا لك كما ظهروا له، لربما جعلوك تُعيد النظر في موقفك. لكن فكّر مرة أخرى، إنهم مجرد لصوص متجولين؛ يخدمون ملك الهاوية، الذي سيأتي لنجدتهم بنفسه عند الحاجة، وصوته كزئير الأسد. لقد مررتُ بنفس الموقف الذي مر به "قليل الإيمان"، ووجدتُه أمرًا فظيعًا. هاجمني هؤلاء الأشرار الثلاثة: وبدأتُ كمسيحي أقاوم، لكنهم ما إن نادوا حتى جاء سيدهم. كنتُ، كما يُقال، لأُضحّي بحياتي مقابل فلسٍ واحد، لولا أن الله شاءٍ أن أكون مُحصّنًا. أجل، ومع ذلك، ورغم حمايتي، وجدتُ صعوبةً في التصرّف كرجل. لا أحد يعلم ما يخبئه لنا هذا الصراع إلا من خاضه بنفسه.

إيمان قليل ونعمة عظيمة

الأمل. حسنًا، لكنهم هربوا، كما ترى، عندما ظنوا أن نعمة عظيمة واحدة كانت في طريقهم.

كريس. صحيح أنهم فرّوا مرارًا، هم وسيدهم، ما إن ظهر الله القدير؛ ولا عجب في ذلك، فهو بطل الملك. لكنني أظن أنك ستُفرّق بين قليل الإيمان وبطل الملك؟ ليس كل رعايا الملك أبطاله، ولا يستطيعون، عند اختبارهم، القيام بمثل هذه الأعمال الحربية. هل يُعقل أن يُواجه طفل صغير جليات كما فعل داود؟ أو أن تكون قوة طائر الشحرور كقوة ثور؟ بعضهم أقوياء، وبعضهم ضعفاء؛ بعضهم ذوو إيمان عظيم، وبعضهم ذوو إيمان قليل: كان هذا الرجل من الضعفاء، ولذلك لجأ إلى السور.

أمل. ليت الأمر كان نعمة عظيمة من أجلهم.

كريس. لو كان هو، لكان في ورطة كبيرة؛ لأني أقول لك إنه على الرغم من أن غريت غريس بارعٌ في استخدام أسلحته، ويملكها ويستطيع، ما دام يُبقيها حادة، أن يُحسن استخدامها؛ إلا أنه إذا تمكنوا من اختراقه، حتى لو كان ذلك من فينت هارت أو ميستراست أو غيرهما، فسيكون الأمر صعبًا للغاية، لكنهم

سيُهزمونه شر هزيمة. وعندما يضعف المرء، كما تعلم، ماذا عساه أن يفعل؟

من يُمعن النظر في وجه نعمة الله العظيمة سيرى تلك الندوب والجروح، التي ستُثبت كلامي بكل وضوح. نعم، سمعتُه ذات مرة يقول (وهو في المعركة): "كنا على وشك الموت". كيف جعل هؤلاء الأشرار الأقوياء ورفاقهم داود يئن ويبكي ويصرخ! نعم، هيمان وحزقيا أيضًا، رغم كونهما بطلين في زمانهما، اضطرا إلى النهوض عندما هاجمهما هؤلاء؛ ومع ذلك، فقد هُزما شر هزيمة. في يوم من الأيام، كان بطرس يُحاول أن يُجرب ما في وسعه؛ ولكن رغم أن البعض يقول عنه إنه أمير الرسل، فقد عاملوه بطريقة جعلته في النهاية يخاف من فتاة بائسة.

قلة الإيمان بين اللصوص

إضافةً إلى ذلك، فإن ملكهم حاضرٌ عند ندائهم، لا يغيب عن مسامعهم أبدًا؛ وإذا ما اشتدّت بهم الشدائد، فإنه، إن أمكن، يهرع لنجدتهم؛ وقد قيل عنه: «لا يصمد سيف من يطعنه، ولا الرمح، ولا السهم، ولا الدرع. إنه يعتبر الحديد كالقش، والنحاس كالخشب المتعفن. لا يُجبره السهم على الفرار؛ وتتحول حجارة المقلاع عنده إلى تبن. تُحسب السهام كالتبن: يسخر من ارتطام الرمح». فماذا عساه أن يفعل المرء في مثل هذه الحالة؟ صحيحٌ أنه لو كان بإمكان المرء أن يمتلك حصان أيوب في كل حين، وأن يمتلك المهارة والشجاعة لركوبه، لأمكنه أن يفعل أمورًا عظيمة. فعنقه مُغطى بالرعد. لن يخاف كالجرادة: "عظمة أنفه مرعبة. يحفر في الوادي، ويبتهج بقوته: يمضي لملاقاة الرجال المسلحين. يسخر من الخوف، ولا يرتعب، ولا يدير ظهره للسيف. يرتج الجعبة عليه، والرمح اللامع والدرع. يبتلع الأرض بشراسة وغضب؛ ولا يصدق أنه صوت البوق. يقول بين الأبواق: ها! ها! ويشم رائحة المعركة من بعيد، رعد القادة، والهتاف."

أما نحن، كخدمٍ عاديين مثلك ومثلي، فلا نرغب أبدًا في مواجهة عدو، ولا نتباهى بأننا أفضل حالًا عندما نسمع عن هزيمة آخرين، ولا ننخدع بأفكار رجولتنا؛ لأن مثل هؤلاء غالبًا ما ينالون أسوأ النتائج عند اختبارهم. شاهد بطرس، الذي ذكرته سابقًا: كان يتبختر، أجل، كان يفعل؛ كان، كما أوحى إليه غروره، يقول إنه أفضل من جميع الرجال وأكثر ولاءً لسيده؛ ولكن من ذا الذي أُحبط وهُزم على يد هؤلاء الأوغاد مثله؟

ثم غنى كريستيان:

"يا مسكين الإيمان الصغير! هل كنت بين اللصوص؟ هل سُرقت؟ تذكر هذا: من آمن وازداد إيمانه، فسيكون منتصراً على عشرة آلاف؛ وإلا، فبالكاد على ثلاثة."

فتابعوا سيرهم، وتبعهم الجهل. ثم ساروا حتى وصلوا إلى مكانٍ رأوا فيه طريقًا يتقاطع مع طريقهم، وبدا لهم مستقيمًا كالطريق الذي ينبغي عليهم سلوكه؛ وهنا لم يعرفوا أيّ الطريقين يسلكون، فكلاهما بدا مستقيمًا أمامهم؛ لذلك توقفوا هناك يفكرون. وبينما هم يفكرون في الطريق، إذا برجلٍ أسود البشرة، يرتدي رداءً خفيفًا جدًا، يقترب منهم ويسألهم عن سبب وقوفهم. فأجابوا أنهم ذاهبون إلى المدينة السماوية، لكنهم لا يعرفون أيّ الطريقين يسلكون. فقال الرجل: "اتبعوني، فأنا ذاهبٌ إلى هناك". فتبعوه إلى الطريق الذي سرعان ما انحرف بهم تدريجيًا عن المدينة التي كانوا يرغبون في الذهاب إليها، حتى أنهم بعد قليل انصرفوا عنها؛ ومع ذلك استمروا في اتباعه. لكن فجأة، وقبل أن يدركا ما يحدث، قادهما إلى داخل شبكة، حيث تشابكا فيها بشدة حتى لم يعرفا ماذا يفعلان؛ وعندها، سقط الرداء الأبيض عن ظهر الرجل الأسود. عندها فقط أدركا أين هما. ولذلك، بقيا هناك يبكيان لبعض الوقت، لأنهما لم يستطيعا الخروج.

كريس. ثم قال كريستيان لرفيقه: "الآن أرى نفسي مخطئاً. ألم يحذرنا الرعاة من المتملقين؟ كما يقول المثل، وجدناه اليوم: "من يتملق جاره، ينصب له فخاً".

يظهر شخص متألق

أمل. أعطونا أيضًا ملاحظةً تُشير إلى الطريق، لكي نجده بشكلٍ أدق؛ لكننا نسينا قراءتها، ولم نحفظ أنفسنا من دروب المُهلك. وهكذا استلقوا يبكون في الشبكة. وأخيرًا لمحوا شخصًا مُشرقًا قادمًا نحوهم وفي يده سوطٌ من حبلٍ رفيع. ولما وصل إلى المكان الذي كانوا فيه، سألهم من أين أتوا، وماذا يفعلون هناك. فأخبروه أنهم حجاجٌ فقراء ذاهبون إلى صهيون، لكن رجلًا أسود يرتدي ثيابًا بيضاء قادهم بعيدًا عن طريقهم، وقالوا: "أمرنا أن نتبعه، لأنه كان ذاهبًا إلى هناك أيضًا". فقال لهم وهو يحمل السوط: "إنه المُتملق، نبيٌ كاذب، الذي تنكر في زي ملاك نور". فمزق الشبكة، وأطلق سراح الرجال. ثم قال لهم: "اتبعوني، لأعيدكم إلى طريقكم". فأعادهم إلى الطريق الذي تركوه ليتبعوا المُتملق. ثم سألهم قائلاً: "أين نمتم الليلة الماضية؟" قالوا: "مع الرعاة في الجبال البهيجة". فسألهم إن كانوا قد أخذوا من الرعاة ورقةً إرشاديةً للطريق. فأجابوا: "بلى". فقال: "لكن ألم تُخرجوا ورقتكم وتقرأوها عندما كنتم في مكان ما؟" فأجابوا: "لا". فسألهم:

"لماذا؟" فقالوا إنهم نسوا. ثم سألهم أيضاً إن كان الرعاة قد حذروهم من المتملق. فأجابوا: "بلى، لكننا لم نتخيل أن هذا الرجل البليغ هو هو".

ثم رأيت في منامي أنه أمرهم بالاستلقاء، فلما فعلوا، جلدهم جلدًا مبرحًا ليعلمهم الطريق القويم الذي ينبغي أن يسلكوه، وبينما هو يجلدهم قال: «أنا أوبخ وأؤدب كل من أحب، فكونوا غيورين، وتُبوا». وبعد ذلك، أمرهم بالمضي في طريقهم، وأن ينتبهوا جيدًا لإرشادات الرعاة الأخرى. فشكروه على كل لطفه، وساروا بهدوء في الطريق القويم وهم يُنشدون.

"تعالوا إلى هنا أيها السائرون على الطريق، وانظروا كيف حال الحجاج الذين يضلون الطريق؛ لقد وقعوا في شباك متشابكة، لأنهم نسوا النصيحة الحسنة باستخفاف؛ صحيح أنهم نُقذوا؛ ولكن كما ترون، فقد جُلدوا أيضًا: فليكن هذا تحذيركم."

وبعد حين، لمحوا من بعيد رجلاً قادماً بهدوء ووحيداً على طول الطريق السريع، ليقابلهم. فقال كريستيان لرفيقه: "هناك رجلٌ ظهره إلى صهيون، وهو قادمٌ لمقابلتنا".

أمل. أراه: فلنحذر أنفسنا لئلا يثبت أنه متملق أيضاً.

يلتقون بملحد

فاقترب منهم أكثر فأكثر، حتى وصل إليهم في النهاية. وكان اسمه الملحد، وسألهم إلى أين هم ذاهبون.

كريس. سنذهب إلى جبل صهيون.

ثم انفجر الملحد في ضحك شديد.

كريس، ما معنى ضحكك؟

ملحد. أضحك عندما أرى مدى جهلكم، إذ تخوضون رحلة شاقة كهذه، ومع ذلك لن تحصلوا على شيء مقابل تعبكم سوى السفر.

كريس: لماذا يا رجل، تظن أننا لن نُستقبل؟

ملحد. تم قبولك! لا يوجد مكان مثل الذي تحلم به في هذا العالم كله.

كريس. ولكن هناك شيء آخر في العالم الآخر.

ملحد. عندما كنت في وطني، سمعت ما تؤكده الآن، ومن ذلك السمع، خرجت لأرى، وما زلت أبحث عن هذه المدينة منذ عشرين عامًا، لكنني لم أجد منها أكثر مما وجدته في اليوم الأول الذي انطلقت فيه.

كـريس. لقـد سـمعنا كلانــا ونعتقـد أن هنــاك مكانــاً كهـذا يمكـن العثـور عليه.

ملحد. لـو لـم أكن، وأنـا فـي بيتـي، أعتقـد أننـي لـم آتِ إلـى هنـا لأبحـث؛ ولكـن، بعـد أن لـم أجـد شـيئاً (ومـع ذلـك كنـت سـأجده لـو كـان هنــاك مكــان كهـذا، لأنــي ذهبـت لأبحــث عنـــه أبعـد منـك)، فسـأعود مـرة أخـرى، وسأسـعى إلـى إنعـاش نفسـي بالأشـياء التـي تخليـت عنهـا حينها أملاً فيما أرى الآن أنه ليس موجوداً.

كـريس. ثـم قـال كريسـتيان لزميلـه هوبفـول: "هـل مـا قالـه هـذا الرجـل صحيح؟"

أمـل. احـذروا؛ إنـه مـن المتملقـين. تـذكروا مـا دفعنـاه سـابقًا بسـبب تصـديقنا لأمثـال هـؤلاء. مـاذا! لا جبـل صـهيون؟ ألـم نـرَ مـن الجبـال البهيجـة بوابـة المدينـة؟ ألسـنا الآن نسـير بالإيمـان؟ فلـنمضِ قـدمًا، لـئلا يـدركنا الرجـل ذو السـوط مـرة أخـرى. أقـول يـا أخـي، كفّـوا عـن سماعه، ولنؤمن لنجاة أنفسنا.

كـريس، يـا أخـي، لـم أطـرح عليـك هـذا السـؤال لأنـي كنـت أشـك فـي صـدق معتقـدنا، بـل لأختبـرك وأتأكـد مـن صـدق قلبـك. أمـا هـذا الرجـل، فأنـا أعلـم أنـه أعمـى. فلنكمـل أنـا وأنـت، ونحـن علـى يقـين بأننـا نـؤمن بالحق، ولا كذب من الحق.

الرجاء. الآن أفرح برجاء مجد الله.

فانصرفوا عن الرجل، وهو يضحك عليهم، ثم مضى في طريقه.

ثـم رأيـت فـي حلمـي أنهـم سـاروا حتـى وصـلوا إلـى بلـدٍ مـا، كـان هـواءه يُشـعر الغريـب بالنعـاس. وهنـا بـدأ هوبفـول يشـعر بـالخمول الشـديد وثقـل النـوم، فقـال لكريسـتيان: "أشـعر الآن بنعـاسٍ شـديدٍ لدرجـة أنني بالكاد أستطيع رفع عينيّ، فلنستلقِ هنا ونأخذ قيلولة".

كريس: "بالتأكيد لا"، قال الآخر، "لئلا ننام ولا نستيقظ أبداً".

الأمـل. لمـاذا يـا أخـي؟ النـوم حلـو للعامـل: قـد نسـتعيد نشـاطنا إذا أخـذنا قيلولة.

كـريس، ألا تتـذكر أن أحـد الرعـاة حـذرنا مـن الأرض المسـحورة؟ كـان يقصـد بـذلك أن نحـذر مـن النـوم؛ لـذلك دعونـا لا ننـام مثـل الآخـرين، بـل دعونا نسهر ونكون متيقظين.

أمـل. أعتـرف بخطئـي؛ ولـو كنـت هنـا وحـدي، لكنـت، بنـومي، قـد عرّضـت نفسـي لخطـر المـوت. أرى أن قـول الحكـيم صـحيح: "اثنـان خيـر مـن واحـد". لقـد كانـت صـحبتك عونًـا لـي حتـى الآن؛ وسـيكون لـك جزاءٌ حسنٌ على عملك.

كريس: "حسنًا،" قال كريستيان، "ولمنع النعاس في هذا المكان، دعونا نتحدث عن شيء مربح."

أمل. من كل قلبي.

تحويل الروايات المتفائلة

كريس. من أين نبدأ؟

الأمل. حيث بدأ الله معنا. ولكن هل تبدأ أنت، إن شئت؟

كريس، سأغني لك هذه الأغنية أولاً:

"عندما يغلب النعاس على القديسين، فليأتوا إلى هنا، وليسمعوا كيف يتحدث هذان الحاجان معًا؛ بل ليتعلموا عنهما بأي طريقة كانت، حتى تبقى أعينهم النعسة مفتوحة. إن صحبة القديسين، إذا أُديرت بشكل جيد، تُبقيهم مستيقظين، وذلك على الرغم من الجحيم."

كريس. ثم بدأ كريستيان حديثه قائلاً: "سأسألك سؤالاً. كيف خطرت لك الفكرة في البداية أن تفعل ما تفعله الآن؟"

الأمل. هل تقصد، كيف بدأتُ في الاهتمام بمصلحة روحي؟

كريس. نعم، هذا ما أقصده.

الأمل. لقد استمررت لفترة طويلة في الاستمتاع بتلك الأشياء التي كانت تُرى وتُباع في معرضنا؛ أشياء أعتقد الآن أنها كانت ستغرقني في الخراب والدمار لو استمريت فيها.

كريس. ما هي تلك الأشياء؟

الأمل. كل كنوز الدنيا وثرواتها. كما أنني كنت أستمتع كثيراً بالعبث والمجون وشرب الخمر والسب والكذب والنجاسة وانتهاك حرمة السبت، وكل ما من شأنه أن يُهلك النفس. ولكنني وجدت في النهاية، من خلال سماعي وتأملي في الأمور المقدسة، التي سمعتها منكم، وكذلك من المؤمن الحبيب الذي قُتل من أجل إيمانه وحسن سيرته في مدينة الغرور، أن عاقبة هذه الأمور هي الموت؛ وأن غضب الله يحلّ على من يعصيه بسبب هذه الأمور.

كريس. وهل وقعت مؤخراً تحت تأثير هذا الشعور؟

الأمل. لا؛ لم أكن راغبًا في معرفة شر الخطيئة، ولا الدمار الذي يترتب على ارتكابها؛ بل حاولت، عندما بدأ عقلي يهتز بالكلمة، أن أغلق عيني عن نورها.

كريس. لكن ما سبب انتظارك كل هذا الوقت؟

الأمل. كانت الأسباب كالتالي: أولاً، كنتُ جاهلاً بأن هذا من فعل الله بي. ثانياً، كانت الخطيئة لا تزال تُغري نفسي، وكنتُ أكره تركها. ثالثاً، لم أكن أعرف كيف أفارق رفاقي القدامى، فقد كان وجودهم وأفعالهم مرغوباً فيه للغاية بالنسبة لي. رابعاً، كانت الساعات التي انتابتني فيها هذه المشاعر مُرهقة ومُخيفة للغاية، لدرجة أنني لم أستطع تحملها، بل لم أستطع حتى مجرد تذكرها.

كريس. إذن، كما يبدو، تخلصت من مشاكلك في بعض الأحيان؟

الأمل. نعم، بالتأكيد، لكنه سيعود إلى ذهني مرة أخرى، وحينها سأكون بنفس السوء، بل أسوأ مما كنت عليه من قبل.

كريس. لماذا، ما الذي جعلك تتذكر ذنوبك مرة أخرى؟

الأمل. أشياء كثيرة؛ مثل،

1. لو أنني صادفت رجلاً صالحاً في الشوارع؛ أو

2. لو أنني سمعت أحدهم يقرأ في الكتاب المقدس؛ أو

3. لو أنني شعرت بألم في رأسي؛ أو

4. لو أنني علمت أن بعض جيراني مرضى؛ أو

5. لو أنني سمعت أجراس الموتى تدق ؛ أو

6. لو أنني فكرت في الموت؛ أو

7. لو أنني سمعت أن الموت المفاجئ قد أصاب آخرين؛

8. ولكن خصوصاً عندما أفكر في نفسي، فسأضطر إلى المثول أمام الله سريعاً.

كريس. وهل يمكنك في أي وقت التخلص بسهولة من ذنب الخطيئة، عندما أصابتك بأي من هذه الطرق؟

الأمل. لا، ليس أنا؛ لأنهم حينها سيسيطرون على ضميري بشكل أسرع؛ وحينها، إذا فكرتُ فقط في العودة إلى الخطيئة (على الرغم من أن عقلي كان ضدها)، فسيكون ذلك عذابًا مضاعفًا لي.

كريس. وكيف كان أداؤك حينها؟

أمل. ظننت أنه يجب عليّ أن أسعى لإصلاح حياتي؛ وإلا، كما فكرت، فأنا متأكد من أنني سأضيع إلى الأبد.

كريس. وهل حاولت إصلاح الأمر؟

الأمل. نعم، وهربت ليس فقط من ذنوبي، بل من صحبة الذنوب أيضاً، وانصرفت إلى أداء الواجبات الدينية، كالصلاة والقراءة والبكاء على الذنوب وقول الحق لجيراني، وما إلى ذلك. لقد فعلت هذه الأشياء، مع كثيرين غيري، أكثر مما أستطيع ذكره هنا.

كريس. وهل كنت تعتقد أنك بخير حينها؟

الأمل. نعم، لفترة من الوقت؛ ولكن في النهاية، عادت مشاكلي لتتراكم عليّ مرة أخرى، وذلك فوق كل محاولاتي لفعل الصواب.

كريس. كيف حدث ذلك، بما أنك كنت تفعل الصواب الآن، على حد علمك؟

الأمل. لقد غمرني هذا الشعور بعدة أمور، ولا سيما أقوالٌ مثل: "كل برنا كخرق بالية"، و"لا يُبرَّر أحدٌ بأعمال الناموس"، و"إذا فعلتم كل ما أُمرتم به، فقولوا: نحن لا ننفع شيئًا"، وغيرها الكثير من الأقوال المشابهة. ومن هنا بدأتُ أُحاور نفسي قائلًا: إذا كان برّي كله كخرق بالية، وإذا لم يُبرَّر أحدٌ بأعمال الناموس، وإذا كنا لا ننفع شيئًا بعد أن نفعل *كل شيء* ، فمن الحماقة أن نظن الجنة بالناموس. وفكرتُ أيضًا: إذا دَين رجلٌ مئة جنيه لصاحب متجر، ثم سدد ثمن كل ما سيشتريه، فإن دينه القديم يبقى في السجل دون شطب، فيحق لصاحب المتجر مقاضاته وسجنه حتى يسدد الدين.

كريس: حسناً، وكيف طبقت هذا على نفسك؟

أمل. فكرتُ في نفسي: لقد قطعتُ شوطًا كبيرًا في كتاب الله بسبب ذنوبي، ولن يُجدي توبتي الحالية نفعًا في التكفير عن هذا الذنب. لذلك، ما زلتُ أفكر، رغم كل ما أمرّ به الآن. ولكن كيف لي أن أتخلص من هذا العقاب الذي عرّضتُ نفسي لخطره بسبب ذنوبي السابقة؟

كريس. تطبيق جيد جداً؛ لكن أرجو أن تستمر.

الأمل. أمر آخر أزعجني منذ توبتي الأخيرة عن الخطيئة هو أنه إذا نظرت بدقة إلى أفضل ما أفعله الآن، ما زلت أرى الخطيئة، خطيئة جديدة، تختلط بأفضل ما أفعله؛ لذلك أنا الآن مضطر للاستنتاج بأنه، على الرغم من رأيي السابق الإيجابي في نفسي وواجباتي، فقد ارتكبت خطيئة كافية في واجب واحد لإرسالي إلى الجحيم، على الرغم من أن حياتي السابقة كانت خالية من العيوب.

كريس. وماذا فعلت بعد ذلك؟

أمل. افعل! لم أكن أعرف ماذا أفعل حتى استشرتُ فيفتفول، فقد كنا نعرف بعضنا جيدًا. فقال لي: ما لم أحصل على برّ رجل لم يرتكب ذنبًا قط، فلن يُنقذني لا برّي ولا كلّ برّ العالم.

كريس. وهل تعتقد أنه قال الحقيقة؟

الأمل. لو أخبرني بذلك عندما كنت راضياً ومستمتعاً بمحاولتي، لكنت وصفته بالأحمق لجهوده؛ ولكن الآن، بما أنني أرى ضعفي والخطيئة التي تعيق أفضل أداء لي، فقد اضطررت إلى أن أكون على رأيه.

كريس. لكن هل فكرت، عندما اقترح عليك ذلك في البداية، أنه يوجد رجل كهذا يمكن القول عنه بحق أنه لم يرتكب الخطيئة قط؟

أمل. يجب أن أعترف أن الكلمات بدت غريبة في البداية؛ ولكن بعد مزيد من الحديث والرفقة معه، أصبحت على يقين تام بشأنها.

كريس. وهل سألته من هو هذا الرجل، وكيف يجب أن تُبرَّر به؟

الأمل. نعم، وأخبرني أنه الرب يسوع، الجالس عن يمين العلي. وقال: هكذا يجب أن تُبرَّر به، حتى بالثقة بما فعله بنفسه في أيام جسده، وما تألم به حين عُلِّق على الصليب. سألته أيضًا: كيف يكون لبرّ ذلك الإنسان تلك القوة لمساعدة الآخرين أمام الله؟ فأجابني أنه هو الله القدير، وأنه فعل ما فعل، ومات أيضًا، لا من أجل نفسه، بل من أجلي؛ لي أُعطي أعماله، وجدارتها، إن آمنتُ به.

كريس. وماذا فعلت بعد ذلك؟

أمل. لقد اعترضت على إيماني، لأنني ظننت أنه غير راغب في إنقاذي.

كريس. وماذا قال لك المخلص حينها؟

أمل. طلب مني أن أذهب إليه وأرى. فقلتُ له إن هذا كثيرٌ عليّ. لكنه قال: لا، لأنني مدعوٌّ للمجيء. ثم أعطاني كتابًا من كتابات يسوع نفسه ليشجعني على المجيء بحرية أكبر؛ وقال عن ذلك الكتاب إن كل كلمة وحرف فيه أقوى من السماء والأرض. ثم سألته عما يجب عليّ فعله عندما آتي؛ فقال لي أن أتضرع على ركبتيّ، بكل قلبي وروحي، إلى الآب أن يكشف لي عنه. ثم سألته أيضًا كيف أدعوه؛ فقال: اذهب، وستجده على عرش الرحمة، حيث يجلس طوال العام ليمنح الغفران والمغفرة لمن يأتي إليه. قلتُ له إني لا أعرف ماذا أقول عندما آتي؛ فأمرني أن أقول: يا الله،

ارحمني أنا الخاطئ، واجعلني أعرف يسوع المسيح وأؤمن به. لأني أرى أنه لولا بره، أو لو لم أؤمن به، لكنتُ ضائعًا تمامًا. يا رب، لقد سمعتُ أنك إله رحيم، وأنك جعلت ابنك يسوع المسيح مخلصًا للعالم؛ بل وأكثر من ذلك، أنك راغب في أن تهبه لخاطئ مثلي. وأنا خاطئ حقًا. يا رب، اغتنم هذه الفرصة، وأظهر نعمتك في خلاص نفسي، من خلال ابنك يسوع المسيح. آمين.

كريس. وهل فعلت ما طُلب منك؟

الأمل. نعم، مراراً وتكراراً.

كريس: وهل أراك الأب ابنه؟

الأمل. ليس في المرة الأولى، ولا الثانية، ولا الثالثة، ولا الرابعة، ولا الخامسة؛ لا، ولا في المرة السادسة أيضاً.

كريس، ماذا فعلت بعد ذلك؟

أمل. ماذا! لماذا، لم أكن أعرف ماذا أفعل.

كريس، ألم يخطر ببالك التوقف عن الصلاة؟

الأمل. نعم؛ قيل مئة مرة مرتين.

كريس. وما هو السبب الذي منعك من ذلك؟

أمل. آمنتُ بصحة ما قيل لي؛ أي أنه لولا برّ المسيح، لما استطاع العالم أجمع أن يخلصني؛ ولذلك فكرتُ في نفسي، إن توقفتُ عن الصلاة فمتُّ، ولن أموت إلا عند عرش النعمة. وخطر ببالي: "وإن تأخر، فانتظره؛ لأنه سيأتي لا محالة، ولن يتأخر". فواصلتُ الصلاة حتى أراني الآب ابنه.

كريس. وكيف ظهر لك؟

الأمل. لم أره بعيني، بل بعين قلبي، وهكذا كان: في أحد الأيام كنت حزينًا جدًا، أظن أنني كنت أكثر حزنًا من أي وقت مضى في حياتي؛ وكان هذا الحزن نابعًا من رؤية جديدة لعظمة ذنوبي وقبحها. وبينما كنت حينها لا أرى سوى الجحيم وضياع روحي الأبدي، فجأة، كما ظننت، رأيت الرب يسوع ينظر إليّ من السماء، ويقول: "آمن بالرب يسوع المسيح، فتخلص".

فأجبته: "يا رب، أنا خاطئ عظيم، بل خاطئ عظيم جدًا". فأجابني: "تكفيك نعمتي". فقلت: "لكن يا رب، ما هو الإيمان؟". ثم رأيت من قوله: "من يأتي إليّ لا يجوع أبدًا، ومن يؤمن بي لا يعطش أبدًا"، أن الإيمان والمجيء شيء واحد؛ وأن من يأتي، أي من

يسعى بقلبه ورغبته إلى الخلاص بالمسيح، هو حقًا من آمن بالمسيح. فغرقت عيناي بالدموع، وسألته: "لكن يا رب، هل يُقبل مني خاطئ عظيم مثلي، ويُخلص بواسطتك؟". فسمعته يقول: "ومن يأتي إليّ لا أطرده أبدًا". فقلت: "لكن كيف يا رب، كيف يجب أن أضع في اعتباري قدومي إليك، حتى يكون إيماني بك صحيحًا؟" ثم قال: "جاء المسيح يسوع إلى العالم ليخلص الخطاة. هو غاية الناموس للبر لكل من يؤمن. مات من أجل خطايانا، وقام من أجل برنا. أحبنا، وغسلنا من خطايانا بدمه. هو الوسيط بيننا وبين الله. وهو حيٌّ دائمًا ليشفع لنا." من كل هذا استنتجتُ أنه يجب عليّ أن أبحث عن البر في شخصه، وعن كفارة خطاياي بدمه؛ وأن ما فعله طاعةً لشريعة أبيه، وخضوعًا لعقوبتها، لم يكن لنفسه، بل لمن يقبله لخلاصه ويشكره. حينها امتلأ قلبي فرحًا، ودمعت عيناي، وفاضت مشاعري حبًا لاسم يسوع المسيح وشعبه ونهجه.

كريس، لقد كان هذا بمثابة كشفٍ عن المسيح لروحك حقًا. لكن أخبرني بالتحديد ما هو الأثر الذي تركه هذا على روحك.

الأمل. لقد جعلني أدرك أن العالم بأسره، على الرغم من كل ما فيه من صلاح، في حالة إدانة. لقد جعلني أدرك أن الله الآب، مع كونه عادلاً، قادر على أن يغفر للخاطئ القادم. لقد جعلني أشعر بخجل شديد من دناءة حياتي السابقة، وأربكني شعوري بجهلي؛ إذ لم يسبق لي أن فكرت في شيء يُظهر لي جمال يسوع المسيح بهذا الشكل. لقد جعلني أحب الحياة المقدسة، وأتوق إلى فعل شيء من أجل شرف ومجد اسم الرب يسوع. نعم، فكرت أنه لو كان لدي الآن ألف جالون من الدم في جسدي، لتمكنت من سفكها كلها في سبيل الرب يسوع.

الفصل العاشر.

رأيتُ حينها في حلمي أن هوبفول نظر إلى الوراء، فرأى إغنورانس، الذي تركوه خلفهم، قادماً خلفهم. قال لكريستيان: "انظر، كم يبتعد ذلك الشاب الصغير".

كريس: أجل، أجل، أراه: إنه لا يكترث بصحبتنا.

أمل. لكنني أعتقد أنه ما كان ليضره لو أنه حافظ على وتيرته معنا حتى الآن.

كريس. هذا صحيح؛ لكنني أضمن لك أنه يفكر بشكل مختلف.

أمل. أعتقد أنه يملكه؛ ولكن، على أي حال، فلننتظره. وهكذا فعلوا.

كريس. ثم قال له كريستيان: "تعال يا رجل، لماذا تبقى هنا؟"

تجاهل. أستمتع بالمشي بمفردي، أكثر بكثير من المشي بصحبة الآخرين، إلا إذا كنت أفضل ذلك.

ثم قال كريستيان لهوبفول (بصوت خافت): "ألم أقل لك إنه لا يكترث بصحبتنا؟ ولكن، على أي حال،" قال، "تعالَ ودعنا نتحدث ونقضي الوقت في هذا المكان المنعزل." ثم وجّه حديثه إلى إغنانس قائلاً: "كيف حالك الآن؟ ما هو حال الله بينك وبين روحك الآن؟"

أجهل. آمل أن يكون كل شيء على ما يرام؛ فأنا دائماً مليء بالأفكار الطيبة التي تخطر ببالي لتريحني وأنا أسير.

كريس، ما هي الحركات الجيدة؟ أخبرنا من فضلك.

أجهل. لماذا، أفكر في الله والجنة.

كريس. وكذلك تفعل الشياطين والأرواح الضالة.

أتجاهلهم. لكنني أفكر بهم وأرغب بهم.

كريس. وكذلك يفعل الكثيرون ممن لا يرغبون أبداً في المجيء إلى هناك. "نفس الكسول تشتهي ولا تملك شيئاً".

أتجاهلهم. لكنني أفكر بهم، وأترك كل شيء من أجلهم.

كريس. أشك في ذلك، فترك كل شيء أمرٌ عسير للغاية؛ بل هو أصعب مما يدركه الكثيرون. ولكن لماذا، أو بأي شيء، أنت مقتنع بأنك تركت كل شيء من أجل الله والجنة؟

تجاهل. قلبي يقول لي ذلك.

كريس. يقول الحكيم: "من يثق بقلبه فهو أحمق".

الجهل. هذا كلامٌ يدل على قلبٍ شرير، أما قلبي فطيب.

كريس. لكن كيف تثبت ذلك؟

الجهل. إنه يُريحني في أمل الجنة.

كريس. قد يكون ذلك من خلال خداعه؛ لأن قلب الرجل قد يمنحه الراحة على أمل شيء ليس لديه أساس للأمل فيه.

أجهل. لكن قلبي وحياتي متفقان؛ ولذلك فإن أملي راسخ.

كريس، من قال لك إن قلبك وحياتك متفقان؟

تجاهل. قلبي يقول لي ذلك.

كريس، اسأل رفيقي إن كنت لصاً! قلبك يقول لك ذلك! ما لم يخبرك كلام الله في هذا الأمر، فلا قيمة لأي شهادة أخرى.

جاهل. أليس القلب الطيب هو الذي يحمل أفكاراً طيبة؟ أليست الحياة الطيبة هي التي تتوافق مع وصايا الله؟

كريس. نعم، إنه قلب طيب يحمل أفكاراً طيبة، وهذه حياة طيبة تتوافق مع وصايا الله؛ ولكن من المؤكد أن امتلاك هذه الأشياء شيء، وأن مجرد التفكير بها شيء آخر.

تجاهل. صلِّ، ما قيمة أفكارك الصالحة، وحياة وفقًا لوصايا الله؟

كريس. هناك أفكار جيدة من أنواع عديدة: بعضها يتعلق باحترام أنفسنا، وبعضها يتعلق بالله، وبعضها يتعلق بالمسيح، وبعضها يتعلق بأشياء أخرى.

تجاهلني. أنت تسير بسرعة كبيرة، لا أستطيع مجاراتك. هل تسبقني؟ عليّ أن أتأخر قليلاً.

ثم قالوا:

حسنًا، أيها الجهل، هل ستظل أحمقًا، مستهينًا بالنصيحة الصالحة التي قُدِّمت لك عشر مرات؟ وإن رفضتها، فستعرف قريبًا شر فعلك. تذكر يا إنسان، في الوقت المناسب، انحني ولا تخف؛ فالنصيحة الصالحة، إذا أُخذت على محمل الجد، تُنجي؛ لذلك استمع: ولكن إن استهنت بها، فستكون الخاسر، أيها الجهل، أضمن لك ذلك.

ثم خاطب كريستيان زميله قائلاً:

كريس: حسنًا، هيا يا صديقي العزيز، أدرك أنه يجب علينا أن نسير بمفردنا مرة أخرى.

يواصل الحاجان سيرهما

فرأيت في منامي أنهم كانوا يتقدمون بخطى سريعة، ثم جاء الجهل يتعثر خلفهم. فقال كريستيان لرفيقه: "أشفق كثيراً على هذا المسكين، فمصيره سيكون سيئاً لا محالة في النهاية".

الأمل. يا للأسف! هناك وفرة في مدينتنا في حالته، عائلات بأكملها، بل شوارع بأكملها، وحتى الحجاج أيضاً؛ وإذا كان هناك الكثيرون في منطقتنا، فكم برأيك يجب أن يكون هناك في المكان الذي ولد فيه؟

كريس. في الواقع، يقول الكتاب المقدس: "لقد أعمى أعينهم لئلا يبصروا".

أمل. أحسنتِ القول؛ أعتقد أنكِ قلتِ الحقيقة. هل اقتربنا الآن من تجاوز الأرض المسحورة؟

كريس، لماذا مللت من حديثنا؟

الأمل. لا، بل حقاً؛ ولكنني أريد أن أعرف أين نحن.

كريس، لم يتبقَّ لنا سوى ميلين تقريبًا. حسنًا، سنترك جارنا الجهل وشأنه الآن، وننتقل إلى موضوع آخر.

أمل. من كل قلبي؛ لكنك ستبدأ على أي حال.

كريس. حسنًا، ألم تكن تعلم، قبل حوالي عشر سنوات، أن أحد الموظفين المؤقتين في منطقتك كان رجلاً متقدمًا في الدين آنذاك؟

هوب. أعرفه! نعم؛ لقد سكن في بلدة غريسليس، وهي بلدة تبعد حوالي ميلين عن هونستي، وكان يسكن بجوار منزل تيرنباك.

كريس. صحيح، لقد سكن معه تحت سقف واحد. حسناً، لقد استيقظ ذلك الرجل ذات مرة: أعتقد أنه أدرك حينها بعضاً من ذنوبه، والعقاب الذي يستحقه.

أمل. أنا أتفق معك؛ فمع أن بيتي لا يبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال، كان يأتي إليّ كثيرًا، ودموعه تنهمر. حقًا، أشفقْتُ عليه، ولم أفقد الأمل فيه تمامًا؛ ولكن كما يُرى، ليس كل من يصرخ "يا رب! يا رب!"

كريس. أخبرني ذات مرة أنه كان مصمماً على الذهاب في رحلة حج كما نفعل الآن؛ ولكن فجأة تعرف على شخص يدعى سيف-سيلف، ثم أصبح غريباً عني، لأنه في ذلك الوقت تخلى عن الذهاب في رحلة الحج.

الفصل الحادي عشر.

أرض بيولا

رأيتُ في حلمي أن الحجاج قد اجتازوا الأرض المسحورة ودخلوا بلاد بيولا، التي كان هواؤها عذبًا وجميلًا، وكان الطريق يمرّ بها مباشرةً، فاستمتعوا فيها لبعض الوقت. نعم، كانوا يسمعون تغريد الطيور باستمرار، ويرون الزهور تتفتح على الأرض كل يوم، ويسمعون صوت السلحفاة في تلك الأرض. في هذه البلاد، تشرق الشمس ليلًا ونهارًا، ولذلك كانت هذه البلاد وراء وادي ظل

الموت، وبعيدة عن متناول اليأس العملاق، ولم يكن بإمكانهم من هذا المكان رؤية قلعة الشك. كانوا هنا على مرأى من المدينة التي كانوا ذاهبين إليها، والتقوا أيضًا ببعض سكانها، لأن الكائنات النورانية كانت تتجول في هذه الأرض عادةً، لأنها كانت على حدود السماء. لم يكن ينقصهم القمح والنبيذ، فقد وجدوا في هذا المكان وفرة مما كانوا يبحثون عنه طوال رحلتهم. وهنا سمعوا أصواتاً من خارج المدينة، أصواتاً عالية، تقول: "قولوا لابنة صهيون: ها هو خلاصك قادم! ها هو أجره معه!" وهنا دعاهم جميع سكان البلاد "الشعب المقدس، ومفديّ الرب، المختارين"، إلخ.

وبينما كانوا يسيرون في هذه الأرض، غمرتهم سعادةٌ تفوق ما غمرهم في أرجاء أبعد من المملكة التي كانوا مرتبطين بها؛ ولما اقتربوا من المدينة، ازداد جمالها وروعتها. كانت مبنية من اللؤلؤ والأحجار الكريمة، وشوارعها مرصوفة بالذهب؛ حتى أن كريستيان، من شدة جمال المدينة وانعكاس أشعة الشمس عليها، مرض من شدة الشوق؛ وأصيب هوبفول أيضاً بنوبة أو اثنتين من نفس المرض، ولذلك استلقى كلاهما بجانبها لبعض الوقت، يصرخان من شدة ألمهما: "إن رأيتم حبيبي، فأخبروه أنني مريضٌ بالحب".

وبعد أن استعادوا عافيتهم قليلاً، وأصبحوا أكثر قدرة على تحمل مرضهم، واصلوا طريقهم، واقتربوا أكثر فأكثر من البساتين والكروم والحدائق، وكانت أبوابها تفتح على الطريق الرئيسي. ولما وصلوا إلى هذه الأماكن، وجدوا البستاني واقفاً في طريقهم، فسأله الحجاج: "لمن هذه الكروم والحدائق الجميلة؟" فأجاب: "إنها للملك، وقد غُرست هنا لمتعته، ولراحة الحجاج أيضاً". فأخذهم البستاني إلى الكروم، وأمرهم أن يستريحوا من أطايب الطعام. كما أراهم هناك ممرات الملك، والمظلات التي كان يرتادها، وهناك مكثوا وناموا.

رأيت في حلمي أنهم يتحدثون في نومهم في هذا الوقت أكثر مما تحدثوا طوال رحلتهم؛ وبينما كان البستاني يفكر في الأمر، قال لي: "لماذا تفكر في الأمر؟ إن طبيعة ثمار عنب هذه الكروم أن تكون حلوة المذاق لدرجة تجعل شفاه النائمين تتكلم".

فرأيتُ حين استيقظوا أنهم شرعوا في الصعود إلى المدينة. ولكن، كما قلتُ، كان انعكاس الشمس على المدينة (لأنها كانت من ذهب خالص) شديد البهاء، فلم يستطيعوا بعدُ رؤيته بوضوح، بل من خلال مرآة صُنعت لهذا الغرض. فرأيتُ حين ساروا، أنهم لاقوا رجلين يرتديان ثيابًا تلمع كالذهب، ووجوههما تشعّ كالنور.

سأل هؤلاء الرجال الحجاج من أين أتوا، فأخبروهم. وسألوهم أيضًا أين نزلوا، وما هي الصعوبات والمخاطر، وما هي وسائل الراحة والملذات التي واجهوها في الطريق، فأخبروهم. ثم قال لهم الرجال الذين استقبلوهم: "لم يتبقَّ لكم سوى صعوبتين، وبعد ذلك ستكونون في المدينة".

ثم طلب كريستيان ورفيقه من الرجال مرافقتهم، فأجابوه بالإيجاب. فقالوا: "لكن عليكما الحصول عليه بإيمانكما". فرأيت في منامي أنهم ساروا معًا حتى وصلوا إلى مشارف البوابة.

يتدخل نهر

ثم رأيتُ أيضًا أن نهرًا يجري بين الحجاج والبوابة، ولكن لم يكن هناك جسرٌ لعبوره، وكان النهر عميقًا جدًا. ولذلك، عند رؤية هذا النهر، ذُهل الحجاج كثيرًا، لكن الرجال الذين كانوا معهم قالوا: "يجب عليكم المرور، وإلا فلن تتمكنوا من الوصول إلى البوابة".

ثم بدأ الحجاج يسألون إن كان هناك طريق آخر إلى البوابة، فأجابوهم: "بلى، ولكن لم يُسمح لأحدٍ إلا اثنين، وهما إينوخ وإيليا، أن يسلكا هذا الطريق منذ بدء الخليقة، ولن يُسمح لأحدٍ بذلك حتى يُنفخ في البوق الأخير". عندئذٍ، بدأ القلق يساور الحجاج، ولا سيما كريستيان، فنظروا في كل اتجاه، لكنهم لم يجدوا سبيلًا للنجاة من النهر. ثم سألوا الرجال إن كانت المياه عميقة، فقالوا: "لا"، لكنهم لم يستطيعوا مساعدتهم في هذا الأمر، فقالوا: "ستجدونها أعمق أو أقل عمقًا بحسب إيمانكم بملك المكان".

ثم توجهوا نحو الماء؛ ودخل كريستيان، وبدأ يغرق، وصرخ إلى صديقه المقرب هوبفول قائلاً: "أغرق في المياه العميقة؛ الأمواج تعلو رأسي؛ كل أمواجه تعلو فوقي".

ثم قال الآخر: "تشجع يا أخي، لقد لمستُ القاع، وهو جيد". فقال كريستيان: "آه! يا صديقي، لقد أحاطت بي أحزان الموت، ولن أرى الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا". ومع ذلك، خيّم ظلامٌ دامسٌ ورعبٌ شديدٌ على كريستيان، حتى أنه لم يعد يرى ما أمامه. وفقد وعيه إلى حدٍ كبير، فلم يعد يتذكر أو يتحدث بوضوح عن أيٍ من تلك المأكولات الشهية التي تناولها في طريق حجه. لكن كل الكلمات التي نطق بها كانت تُظهر رعبًا شديدًا في نفسه، وخوفًا عميقًا من أن يموت في ذلك النهر، ولا يدخل من البوابة أبدًا. وهنا أيضًا، كما لاحظ الواقفون، كان غارقًا في أفكارٍ مُقلقةٍ عن الذنوب التي ارتكبها، سواءً قبل أو بعد أن بدأ حجه. ولوحظ أيضًا أنه كان يُعاني من رؤية الشياطين والأرواح الشريرة؛ فكان يُلمّح إلى ذلك مرارًا وتكرارًا بكلماته.

لذلك، بذل هوبفول جهدًا كبيرًا لإنقاذ أخيه من الغرق؛ بل كان أحيانًا يغرق تمامًا، ثم ما هي إلا لحظات حتى يعود إلى الحياة. وكان هوبفول يحاول مواساته قائلًا: "يا أخي، أرى البوابة، ورجالًا ينتظروننا". لكن كريستيان كان يجيب: "إنهم ينتظرونك أنت، أنت من ينتظرونك: لقد كنتَ متفائلًا منذ أن عرفتك". فقال له كريستيان: "وأنت كذلك". فقال كريستيان: "آه يا أخي، لو كنتُ على حق، لنهض الله الآن لمساعدتي؛ ولكن بسبب ذنوبي، أوقعني في هذا الفخ، وتركني". فقال هوبفول: "يا أخي، إن هذه المصائب والشدائد التي تمر بها في هذه المياه ليست دليلًا على أن الله قد تخلى عنك؛ بل هي مُرسلة لاختبارك، لترى إن كنت ستتذكر ما تلقيته من فضله، وتعتمد عليه في محنتك".

ثم رأيت في حلمي أن كريستيان كان شارد الذهن لبعض الوقت. فأضاف هوبفول: "تشجع، يسوع المسيح يشفيك". عندئذٍ، صرخ كريستيان بصوت عالٍ: "أوه، أراه مرة أخرى! ويقول لي: "عندما تجتاز المياه، سأكون معك؛ ولن تغمرك الأنهار". عندها تشجعا كلاهما، وبعد ذلك، ظل العدو ساكنًا كالحجر حتى عبرا النهر. وهكذا، وجد كريستيان أرضًا يقف عليها، فكان ما تبقى من النهر ضحلًا. وهكذا عبرا.

رجلان متألقان

ثم على ضفة النهر، على الجانب الآخر، رأوا الرجلين النورانيين مرة أخرى، اللذين كانا ينتظرانهم هناك. فلما خرجوا من النهر، سلموا عليهما قائلين: "نحن أرواح سماوية، أُرسلنا لمساعدة ورثة الخلاص". وهكذا مضوا نحو البوابة. والجدير بالذكر أن المدينة كانت قائمة على تلة شاهقة؛ لكن الحجاج صعدوا تلك التلة بسهولة، لوجود هذين الرجلين اللذين قاداهم؛ كما أنهم تركوا ثيابهم الفانية في النهر؛ فمع أنهم دخلوا بها، إلا أنهم خرجوا بدونها. لذلك صعدوا بنشاط وسرعة، مع أن أساس المدينة كان أعلى من السحاب. وهكذا صعدوا عبر طبقات السماء، يتحدثون بكلمات عذبة وهم يصعدون، مطمئنين لأنهم عبروا النهر بسلام، ولأنهم كانوا بصحبة هذين الرفيقين المباركين.

جبل صهيون

كان حديثهم مع الكائنات النورانية يدور حول عظمة المكان، فأخبروهم أن جماله وجلاله يفوقان الوصف. قالوا: "هناك جبل صهيون، أورشليم السماوية، وحشد لا يُحصى من الملائكة، وأرواح الصالحين الذين بلغوا كمالهم. أنتم ذاهبون الآن إلى فردوس الله، حيث سترون شجرة الحياة، وتأكلون من ثمارها التي لا تذبل. وعندما تصلون إلى هناك، ستُمنحون ثيابًا بيضاء،

وسيكون سيركم وحديثكم مع الملك كل يوم، طوال أيام الحياة الأبدية. هناك لن تروا ثانيةً ما رأيتموه وأنتم في العالم السفلي على الأرض، أي الحزن والمرض والشقاء والموت، لأن الأمور الأولى قد زالت." ستذهبون الآن إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأنبياء، رجالٌ رفعهم الله من الشر الآتي، وهم الآن يستريحون على مضاجعهم، كلٌّ يسير في بره. فسأل الرجال: ماذا نفعل في المكان المقدس؟ فأُجيبَ: «هناك ستنالون راحة تعبكم، وفرحًا بدل حزنكم؛ ستحصدون ما زرعتم، ثمرة صلواتكم ودموعكم ومعاناتكم في سبيل الملك. هناك سترتدون تيجانًا من ذهب، وتتمتعون برؤية القدوس ورؤاه الدائمة؛ لأنكم هناك سترونه كما هو. هناك أيضًا ستعبدونه دائمًا بالتسبيح والهتاف والشكر، الذي رغبتم في عبادته في الدنيا، رغم صعوبة ذلك بسبب ضعف أجسادكم. هناك ستُسرّ عيونكم برؤية القدير، وآذانكم بسماع صوته العذب. هناك ستلتقون بأصدقائكم الذين سبقوكم إلى هناك؛ وهناك ستستقبلون بفرح كل من يأتي بعدكم إلى القدس. هناك أيضًا ستُلبسون المجد والجلال، وتُهيّأون لمرافقة ملك المجد. حين يأتي بصوت البوق في السحاب، كما في السماء...» بأجنحة الريح، ستأتون معه؛ وعندما يجلس على عرش القضاء، ستجلسون بجانبه؛ بل وعندما يُصدر حكمه على جميع فاعلي الشر، سواء كانوا ملائكة أو بشرًا، سيكون لكم صوت في ذلك القضاء لأنهم كانوا أعداءه وأعداءكم. كذلك، عندما يعود إلى المدينة، ستذهبون معه أيضًا، مصحوبين بصوت البوق، وستكونون معه دائمًا.

وبينما كانوا يتقدمون نحو البوابة، إذا بجماعة من الملائكة تخرج لاستقبالهم، فقال لهم النجمان الآخران: «هؤلاء هم الذين أحبوا ربنا في الدنيا، وتركوا كل شيء من أجل اسمه القدوس، وقد أرسلنا لنحضرهم، فأوصلناهم إلى هنا في رحلتهم المنشودة، لكي يدخلوا وينظروا إلى وجه فاديهم بفرح». ثم هتفت الملائكة هتافًا عظيمًا قائلة: «طوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الخروف». وفي ذلك الوقت، خرج أيضًا لاستقبالهم عدد من عازفي أبواق الملك، يرتدون ثيابًا بيضاء لامعة، وعزفوا بأصوات عذبة مدوية، حتى أن السماء ترددت في آذانهم. رحب هؤلاء العازفون بكريستيان ورفيقه ترحيبًا حارًا من العالم أجمع، وفعلوا ذلك بالهتاف ونفخ الأبواق.

المدينة السماوية

بعد ذلك، أحاطوا بهم من كل جانب؛ بعضهم يتقدمهم، وبعضهم يتأخرهم، وبعضهم على اليمين، وبعضهم على اليسار (وكأنهم يحرسونهم في المناطق العليا)، وهم يعزفون باستمرار، بألحان عذبة، بنغمات عالية: حتى بدا المشهد لمن استطاع رؤيته وكأن

السماء نفسها نزلت للقائهم. وهكذا، ساروا معًا؛ وبينما كانوا يسيرون، كان هؤلاء العازفون على البوق، بأصواتهم المبهجة، يمزجون موسيقاهم بنظراتهم وإيماءاتهم، ليُظهروا لكريستيان وشقيقه مدى ترحيبهم بهما، وبمدى سعادتهم بقدومهما. وشعر الرجلان وكأنهما في السماء قبل مجيئهما، وقد غمرتهما رؤية الملائكة، وسماع نغماتهم العذبة. وهنا أيضًا كانت المدينة نفسها نصب أعينهم، وظنوا أنهم سمعوا جميع أجراسها تدق، مرحبةً بهما. لكن، قبل كل شيء، الأفكار الدافئة والمبهجة التي راودتهم بشأن إقامتهم هناك بصحبة هؤلاء الأشخاص، وإلى الأبد، يا إلهي! بأي لسان أو قلم يمكن التعبير عن فرحتهم المجيدة؟ وهكذا وصلوا إلى البوابة. ولما وصلوا إلى البوابة، وجدوا مكتوباً عليها بأحرف من ذهب: " طوبى لمن يحفظون وصاياه، فيكون لهم الحق في شجرة الحياة، ويدخلون من الأبواب إلى المدينة " . ثم رأيت في حلمي أن الرجال النورانيين أمروهم أن يدعوا عند البوابة، فلما فعلوا، نظر إليهم بعضٌ من السماء، مثل إينوخ وموسى وإيليا وغيرهم، وقيل لهم: «هؤلاء الحجاج قد أتوا من مدينة الخراب، لمحبتهم لملك هذا المكان». ثم قدم الحجاج لكل واحد منهم شهادته التي استلموها في البداية، فحملت إلى الملك، فلما قرأها سأل: «أين الرجال؟» فأجابوه: «إنهم واقفون خارج البوابة». فأمر الملك بفتح البوابة، «ليدخل الشعب الصالح»، قال، «الذي يحفظ الحق».

رأيتُ في منامي رجلين يدخلان من البوابة، فإذا بهما ما إن دخلا حتى تغيّرت ملامحهما فأشرقت وجوههما، وارتديا ثيابًا تلمع كالذهب. وكان في استقبالهما قيثارات وتيجان، فأعطوهما إياها، القيثارات للتسبيح والتيجان رمزًا للتكريم. ثم سمعتُ في منامي أجراس المدينة تدقّ فرحًا، وقيل لهما: «ادخلا فرح ربكما». وسمعتُ الرجلين نفسيهما يُنشدان بصوت عالٍ: «البركة والكرامة والمجد والقدرة لمن يجلس على العرش، وللحمل، إلى أبد الآبدين!».

والآن، عندما فُتحت البوابات لدخول الرجال، نظرت خلفهم، وإذا بالمدينة تتألق كالشمس؛ والشوارع مرصوفة بالذهب؛ وفيها يسير رجال كثيرون على رؤوسهم تيجان، وفي أيديهم سعف النخيل، ويحملون قيثارات ذهبية ليغنوا بها التسبيح.

وكان من بينهم أيضاً من له أجنحة، وكانوا يجيبون بعضهم بعضاً بلا انقطاع قائلين: "قدوس، قدوس، قدوس الرب!" وبعد ذلك أغلقوا الأبواب، فلما رأيت ذلك تمنيت لو كنت بينهم.

الجهل لا يدخل

وبينما كنتُ أتأمل كل هذه الأشياء، التفتُّ إلى الوراء، فرأيتُ الجهلَ يصعد إلى ضفة النهر؛ لكنه سرعان ما عبر، وبسهولةٍ بالغةٍ لم يواجهها الرجلان الآخران. فقد كان هناك في ذلك المكان رجلٌ يُدعى الأملُ الكاذب، وهو مُشغِّلُ عبّارة، ساعده بقاربه على العبور؛ فصعد هو، كما فعل الآخرون الذين رأيتهم، التلَّ ليقترب من البوابة؛ إلا أنه جاء وحيدًا، ولم يستقبله أحدٌ بأدنى تشجيع. ولما وصل إلى البوابة، نظر إلى الكتابة التي كانت في الأعلى، ثم بدأ يطرق، ظانًّا أنه سيُفتح له الباب سريعًا؛ لكن الرجال الذين كانوا يُطلُّون من أعلى البوابة سألوه: "من أين أتيت؟ وماذا تريد؟" فأجاب: "لقد أكلتُ وشربتُ في حضرة الملك، وقد علَّم في شوارعنا." ثم طلبوا منه شهادته ليدخلوا ويُظهروها للملك، فبحث في صدره عن واحدة فلم يجد. فقالوا له: "أليس لديك واحدة؟" لكنه لم يُجب بكلمة. فأخبروا الملك، لكنه لم ينزل لرؤيته، بل أمر النوران اللذين كانا يُرافقان كريستيان وهوبفول إلى المدينة أن يخرجا ويأخذا الجهل، ويُوثقا يديه ورجليه، ويأخذاه بعيدًا. فأخذاه وحملاه في الهواء إلى الباب الذي رأيته في جانب التل، ووضعاه هناك. ثم رأيت أن هناك طريقًا إلى الجحيم، حتى من أبواب السماء، كما هو الحال من مدينة الهلاك!

فاستيقظت، وإذا به حلم.

خاتمة.

أيها القارئ، لقد أخبرتك حلمي، فانظر إن كنت تستطيع تفسيره لي، أو لنفسك أو لجيرانك؛ ولكن احذر من سوء التفسير؛ فبدلاً من أن يكون ذلك خيراً، لن يؤدي إلا إلى إلحاق الضرر بنفسك: فسوء التفسير يجلب الشر. احذر أيضاً من المبالغة في التلاعب بظاهر حلمي؛ ولا تدع صورتي أو تشبيهي يجعلك تضحك أو تثير عداوة. اترك هذا للصبيان والحمقى؛ أما أنت، فانظر إلى جوهر ما أقول. ارفع الستائر، وانظر داخل حجابي؛ اكشف استعاراتي، ولا تخيب، فهناك، إن بحثت عنها، ستجد ما يفيد العقل النزيه. وما تجده من شوائب في حلمي، فكن جريئاً في التخلص منها؛ لكن مع ذلك احتفظ بالذهب. ماذا لو كان ذهبي ملفوفًا في خام؟ - لا أحد يرمي التفاحة من أجل لبها. لكن إذا تخلصت من كل شيء باعتباره عبثًا، فلا أدري ما الذي سيجعلني أحلم مرة أخرى.

تقدم الحجاج

الجزء الثاني.

الفصل الأول.

رفقاء مهذبون،—

منذ مدة، سررتُ وسعدتُ وأفدتكم بقصيدي عن حلمي الذي رأيته عن كريستيان الحاج، ورحلته المحفوفة بالمخاطر نحو بلاد السماء. أخبرتكم حينها أيضًا بما رأيته بخصوص زوجته وأولاده، وكيف كانوا يكرهون الذهاب معه في الحج، حتى اضطر إلى مواصلة رحلته بدونهم؛ لأنه لم يجرؤ على مواجهة خطر الهلاك

الذي كان يخشاه بالبقاء معهم في مدينة الهلاك؛ ولذلك، كما بينت لكم حينها، تركهم ورحل.

لقد حالت كثرة الأعمال دون قيامي برحلاتي المعتادة إلى تلك المناطق التي ذهب إليها، ولذلك لم أتمكن حتى الآن من الحصول على فرصة للاستفسار أكثر عن ذريته لأخبركم بأحوالهم. ولكن، بعد أن انشغلت ببعض الأمور هناك مؤخرًا، عدت أدراجي إلى هناك. والآن، بعد أن استقرت بي الحال في غابة تبعد حوالي ميل عن المكان، حلمت مرة أخرى وأنا نائم.

المؤلف والسيد ساجاسيتي

وبينما كنتُ في حلمي، رأيتُ رجلاً مسناً يمرّ بجانبي، ولأنه كان سيقطع جزءاً من الطريق الذي كنتُ أسلكه، نهضتُ وسرتُ معه. وبينما كنا نسير، وكما يفعل المسافرون عادةً، دار بيننا حديث، وكان حديثنا يدور حول كريستيان وأسفاره، وهكذا بدأتُ الحديث مع الرجل العجوز.

قلت: "سيدي، ما اسم تلك المدينة التي تقع في الأسفل، على الجانب الأيسر من طريقنا؟"

ثم قال السيد ساغاسيتي (لأن هذا كان اسمه): "إنها مدينة الدمار؛ مكان مكتظ بالسكان، ولكنه يضم نوعًا من الناس سيئي الحالة وعاطلين عن العمل للغاية".

قلت: "كنت أعتقد أن تلك هي تلك المدينة، لقد مررت بنفسي بتلك المدينة مرة واحدة، ولذلك أعلم أن هذا التقرير الذي تقدمه عنها صحيح".

برج الدلو. صحيح تماماً! أتمنى لو أستطيع قول الحقيقة والثناء على من يسكنون هناك.

قلتُ: "حسنًا يا سيدي، أرى أنك رجلٌ حسن النية، وبالتالي تستمتع بسماع ما هو خير والتحدث عنه. ألم تسمع قط بما حدث لرجلٍ من هذه البلدة (اسمه كريستيان) منذ زمنٍ مضى، عندما ذهب في رحلة حجٍ إلى المناطق المرتفعة؟"

ساج. هل سمعت عنه؟ أجل، لقد سمعتُ أيضًا عن الصعوبات والمتاعب والحروب والأسر والصراخ والأنات والفزع الذي واجهه في رحلته. علاوة على ذلك، يجب أن أخبركم أن بلدنا كله يتحدث عنه: فقلما تجد بيتًا سمع عنه وعن أفعاله إلا وسعى للحصول على سجل رحلته. نعم، أعتقد أنه يمكنني القول إن رحلته المحفوفة بالمخاطر قد جلبت الكثير من المتمنين له الخير؛ فمع أنه كان أحمق في نظر الجميع عندما كان هنا، إلا أنه الآن بعد رحيله يُثنى

عليه الجميع. إذ يُقال إنه يعيش بشجاعة حيث هو: نعم، كثيرون ممن عزموا على عدم خوض مخاطره يسيل لعابهم على مكاسبه.

قلتُ: "قد يظنون، إن كانوا يظنون شيئاً صحيحاً، أنه يعيش حياةً رغيدةً حيث هو؛ فهو الآن يعيش عند ينبوع الحياة، ويملك ما يملك دون عناء أو حزن؛ إذ لا يختلط به أي حزن. ولكن، يا تُرى، ما الذي يقوله الناس عنه؟"

يا للعجب! يتحدث الناس عنه بغرابة: يقول البعض إنه يمشي الآن بثوب أبيض، وأن لديه سلسلة من الذهب حول عنقه، وأن تاجًا من الذهب مرصعًا باللؤلؤ على رأسه. ويقول آخرون إن الكائنات النورانية، التي ظهرت له أحيانًا في رحلته، أصبحت رفاقه، وأنه على معرفة وثيقة بهم في المكان الذي هو فيه، كما يعرف الجار جاره. علاوة على ذلك، يُقال عنه بثقة إن ملك المكان الذي هو فيه قد منحه بالفعل مسكنًا فخمًا وجميلًا في البلاط، وأنه يأكل ويشرب ويمشي معه كل يوم، وينال ابتسامات ونعم من هو قاضي كل شيء هناك. ويتوقع البعض أيضًا أن أميره، سيد تلك البلاد، سيأتي قريبًا إلى هذه الأنحاء، وسيعرف السبب، إن وجد، وراء استخفاف جيرانه به وسخريتهم منه عندما علموا أنه سيكون حاجًا. لأنهم يقولون إنه الآن مغرم جداً بأميره، وأن سيده مهتم جداً بالظلم الذي لحق بكريستيان عندما أصبح حاجاً، لدرجة أنه سينظر إلى كل شيء كما لو كان قد حدث له شخصياً؛ ولا عجب في ذلك، لأنه كان بدافع الحب الذي يكنه لأميره هو الذي خاطر كما فعل.

الحكمة تتحدث عن المسيحية

قلتُ: "أظنّ أنني سعيدٌ بذلك؛ سعيدٌ لأجل هذا الرجل المسكين، لأنه الآن ينعم بالراحة من عناء عمله، ولأنه يجني ثمار دموعه بفرح، ولأنه نجا من رصاص أعدائه، وأصبح في مأمنٍ من كراهية من يكرهونه. كما أنني سعيدٌ لانتشار هذه الأخبار في البلاد: فمن يدري، ربما يكون لها أثرٌ طيبٌ على بعض من تبقى؟ ولكن أرجوك يا سيدي، ما دامت هذه الأخبار حاضرةً في ذهني، هل سمعتَ شيئًا عن زوجته وأولاده؟ يا لحالهم! أتساءل في قرارة نفسي ماذا يفعلون."

ساج. من؟ كريستيانا وأبناؤها؟ من المرجح أن يفعلوا مثل كريستيان نفسه؛ لأنه على الرغم من أنهم تظاهروا بالغباء في البداية، ولم يقتنعوا بأي حال من الأحوال بدموع كريستيان أو توسلاته، إلا أن التفكير الثاني قد أثر عليهم بشكل عجيب، فحزموا أمتعتهم وذهبوا خلفه.

قلت: "أفضل وأفضل، ولكن ماذا! زوجة وأطفال وكل شيء؟"

ساج. هذا صحيح: يمكنني أن أقدم لك شرحاً للأمر، لأنني كنت في الموقع في تلك اللحظة، وكنت على دراية تامة بالأمر برمته.

قلت: "إذن، يبدو أن الرجل قد يبلغ عنها باعتبارها حقيقة؟"

يا سيد، لا داعي للخوف من إعلان ذلك. أعني أنهم جميعًا ذهبوا في رحلة حج، المرأة الصالحة وأبناؤها الأربعة. وبما أننا (كما أرى) نسير معًا مسافة طويلة، فسأشرح لك الأمر برمته.

كريستيانا (هذا ما كان اسمها منذ اليوم الذي اختارت فيه مع أطفالها حياة الترحال) بعد أن رحل زوجها عبر النهر، وانقطعت أخباره عنها، بدأت الأفكار تتزاحم في ذهنها. أولًا، لأنها فقدت زوجها، ولأن رابطة المحبة التي كانت تربطهما قد انقطعت تمامًا. وكما تعلمين (قال لي)، من الطبيعي أن تراود الأحياء أفكار حزينة كثيرة عند تذكر فقدان الأحبة. لذلك، ذرفت كريستيانا دموعًا غزيرة بسبب زوجها. ولكن لم يكن هذا كل شيء؛ فقد بدأت كريستيانا أيضًا تتساءل عما إذا كان سلوكها غير اللائق تجاه زوجها سببًا في انقطاع علاقتها به، وفي تلك الظروف التي رحل فيها عنها. وعلى إثر ذلك، غمرتها ذكريات معاملتها القاسية وغير الطبيعية وغير اللائقة لصديقها العزيز، مما أثقل ضميرها وأشعرها بالذنب. كانت، علاوة على ذلك، محطمة تمامًا وهي تستذكر أنين زوجها المضطرب ودموعه المالحة ونحيبه على نفسه، وكيف قست قلبها في وجه كل توسلاته وإلحاحه عليها وعلى أبنائها بالذهاب معه؛ بل لم يكن هناك شيء قاله لها كريستيان أو فعله أمامها، طوال الوقت الذي كان فيه عبئه يثقل كاهله، إلا وعاد إليها كبرق خاطف، فمزق قلبها إربًا. وخاصة صرخته المريرة: "ماذا أفعل لأنجو؟" التي رنّت في أذنيها بألم شديد.

ثم قالت لأولادها: "يا أبنائي، لقد هلكنا جميعاً. لقد أخطأت وأودت بحياة أبيكم، وقد رحل؛ كان يريدنا أن نكون معه، لكنني لم أرد أن أذهب بنفسي؛ لقد منعتكم أنتم أيضاً من الحياة".

عندها انهمرت دموع الأولاد جميعاً، وصرخوا مطالبين باللحاق بوالدهم.

قالت كريستيانا: "آه، ليت نصيبنا كان الذهاب معه! لكان حالنا حينها أفضل بكثير مما هو عليه الآن. فمع أنني كنتُ قد توهمتُ سابقًا، بسذاجة، أن متاعب والدك نابعة من وهمٍ سخيفٍ كان يُراوده، أو أنه كان مُثقلًا بمزاجٍ كئيب؛ إلا أنني الآن لا أستطيع أن أستبعد أنها نبعت من سببٍ آخر؛ وهو أن نور الحياة مُنح له، وبفضله، كما أرى، نجا من براثن الموت."

ثـم بكـوا جميعـاً مـرة أخـرى، وصـرخوا قـائلين: "يـا لـه مـن يـوم بائس!"

فـي الليلـة التاليـة، رأت كريسـتيانا حلمًـا؛ وإذا بهـا تـرى كـأنّ رقًـا كبيـرًا قد فُتح أمامهـا، كُتب فيـه مجمـل أعمالهـا؛ وبـدا لهـا الـزمن، كمـا ظنّـت، قاتمًـا للغايـة. ثـم صـرخت بصـوت عـالٍ فـي نومهـا: "يـا رب، ارحمنـي أنا الخاطئة!" وسمعها الأطفال الصغار.

بعـد ذلـك، ظنـت أنهـا رأت امـرأتين قبيحتـي المظهـر تقفـان بجانـب سـريرها، وتقـولان: "مـاذا نفعـل بهـذه المـرأة؟ إنهـا تسـتغيث فـي يقظتهـا ونومهـا، فـإن تركتهـا علـى حالهـا، سـنفقدها كمـا فقـدنا زوجهـا. لـذلك، يجـب علينـا، بـأي طريقـة كانـت، أن نسـعى لإبعادهـا عـن التفكيـر في الآخرة، وإلا فستصبح في نظر العالم أجمع حاجّة."

اسـتيقظت وهـي غارقـة فـي العـرق، وترتجـف، لكنهـا سـرعان مـا عـادت إلـى النـوم. ثـم ظنـت أنهـا رأت زوجهـا كريسـتيان فـي مكـان مـن النعـيم، بـين العديـد مـن الخالـدين، يحمـل قيثـارة، واقفًـا يعـزف عليهـا أمام من يجلس على عرش، وقوس قزح يحيط برأسه.

ورأت أيضًـا، كمـا لـو أنـه انحنـى برأسـه ووجهـه نحـو الرصـيف المرصـوف الـذي كـان تحـت قـدمي الأميـر، قـائلاً: "أشـكر سـيدي وملكـي مـن كـل قلبـي علـى إحضـاري إلـى هـذا المكـان". ثـم صـاحت مجموعـة مـنهم كـانوا يقفـون حولـه، وعزفـوا علـى قيثـاراتهم؛ ولكـن لـم يسـتطع أحـد مـن الأحيـاء أن يعـرف مـا قـالوه، إلا كريسـتيان ورفاقه.

فـي صـباح اليـوم التـالي، عنـدما اسـتيقظت، وبعـد أن صـلت إلـى الله وتحـدثت مـع أطفالهـا قلـيلاً، طـرق أحـدهم البـاب بقـوة؛ فخاطبتـه قائلـة: "إن كنـتَ قادمًـا باسـم الله، فادخـل". فقـال: "آمـين"، وفـتح البـاب، وسلّم عليهـا قـائلاً: "السـلام علـى هـذا البيـت!". ثـم قـال: "كريسـتيانا، هـل تعلمـين لمـاذا أتيـت؟". فـاحمرّ وجههـا وارتجفـت، وبـدأ قلبهـا يشـتعل رغبـةً فـي معرفـة مـن أيـن أتـى، ومـا هـي مهمتـه معهـا. فقـال لهـا: «اسـمي سرّ، أسـكن مـع الـذين فـي العُلـى. يُقـال عـن مكـان سكنِي، كأنـكِ تـرغبين فـي الـذهاب إليـه؛ وهنـاك أيضًـا خبـرٌ بأنـكِ تُـدركين الشـرّ الـذي فعلتيـه سـابقًا بزوجـكِ، إذ قسـتِ قلبـكِ علـى سـبيله، وأبقيـتِ أطفالـكِ هـؤلاء فـي جهلهـم. كريسـتيانا، أرسـلني الـرحيم لأُخبـركِ أنـه إلـهٌ غفـور، وأنـه يُسـرّ بمغفـرة الـذنوب. ويريـد أيضًـا أن تعلمـي أنـه يـدعوكِ للـدخول إلـى حضـرته، إلـى مائدتـه، وأنـه سـيُطعمكِ مـن شـحم بيته، ومن ميراث يعقوب أبيكِ».

"ها هو كريستيان، زوجك السابق، ومعه جحافل أخرى من رفاقه، انظروا دائماً إلى ذلك الوجه الذي يمنح الحياة للناظرين؛ وسيفرحون عندما يسمعون صوت قدميك تخطو فوق عتبة أبيك."

تم إرسال كريستيانا في طلب

شعرت كريستيانا بالخجل الشديد من نفسها عند هذا الأمر، وانحنت برأسها إلى الأرض.

تقدمت الزائرة وقالت: "كريستيانا، إليكِ رسالةٌ أيضًا، أحضرتها من ملك زوجكِ". فأخذتها وفتحتها، لكن رائحتها كانت كأفخر العطور، ومكتوبة بأحرفٍ من ذهب. وكان مضمون الرسالة: "أن الملك يريد منها أن تفعل كما فعل زوجها كريستيان، لأن هذه هي الطريقة للوصول إلى مدينته، والإقامة في حضرته بفرحٍ أبدي".

عند هذا غمرت المرأة الصالحة مشاعر جياشة، فصرخت في وجه زائرها قائلة: "سيدي، هل ستأخذني أنا وأولادي معك، حتى نتمكن نحن أيضاً من عبادة هذا الملك؟"

ثم قال الزائر: "يا كريستيانا، المرارة تسبق الحلاوة. عليكِ أن تجتازي المصاعب، كما فعل من سبقكِ، لتدخلي المدينة السماوية. لذلك أنصحكِ أن تفعلي كما فعل زوجكِ كريستيان: اذهبي إلى البوابة الصغيرة هناك عبر السهل، فهي تقع في بداية الطريق الذي عليكِ صعوده؛ وأتمنى لكِ كل التوفيق. كما أنصحكِ أن تضعي هذه الرسالة في صدركِ، وأن تقرئيها لنفسكِ ولأطفالكِ حتى تحفظوها عن ظهر قلب: فهي إحدى الأناشيد التي يجب أن تغنّيها وأنتِ في هذا المكان الذي تُقام فيه رحلتكِ. ويجب عليكِ أيضًا تسليم هذه الرسالة عند البوابة الأخرى."

رأيت في حلمي أن هذا الرجل العجوز، وهو يروي لي القصة، بدا متأثراً بها بشدة. ثم تابع قائلاً:

فدعت كريستيانا أبناءها، وبدأت تخاطبهم قائلة: "يا أبنائي، كما تعلمون، كنتُ في الآونة الأخيرة أعاني من حزنٍ شديدٍ على وفاة والدكم، ليس لشكي في سعادته، فأنا مطمئنة الآن أنه بخير. وقد تأثرتُ كثيراً بحالتي وحالكم، التي أعتقد جازمةً أنها بائسة بطبيعتها. كما أن معاملتي لوالدكم في محنته تُثقل ضميري، فقد قستُ قلبي وقلبكم عليه، ورفضتُ مرافقته في الحج."

"إنّ مجرد التفكير في هذه الأمور كان سيقتلني الآن لولا حلم رأيته الليلة الماضية، ولولا التشجيع الذي منحني إياه هذا الغريب هذا الصباح. هيا يا أبنائي، لنحزم أمتعتنا ونذهب إلى البوابة المؤدية

إلـى بـلاد السـماء، لنـرى والـدكم، ونكـون معـه ومـع رفاقـه فـي سـلام، وفقًا لقوانين تلك البلاد."

ثـم انهمـرت دمـوع أطفالهـا فرحـاً بميـل أمهـم إلـى هـذا الحـد. فـودعتهم ضيفتهم، وبدأوا يستعدون للرحيل.

السيدة تيموروس وكريستيانا

وبينمـا كـانوا علـى وشـك المغـادرة، اقتربـت اثنتـان مـن جـارات كريسـتيانا مـن المنـزل وطرقتـا البـاب. فقالـت لهمـا كمـا فـي السـابق: "إن كنتمـا تأتيـان باسـم الله، فـادخلا". فـذهلت المرأتـان، إذ لـم تكونـا معتـادتين علـى سـماع هـذا الكـلام أو سـماعه مـن كريسـتيانا. ومـع ذلـك دخلتا، فوجدتا المرأة الصالحة تستعد للمغادرة.

فبدأوا وقالوا: "يا جاري، ما هو قصدك من هذا؟"

أجابـت كريسـتيانا وقالـت لأكبـرهن سـناً، والتـي كـان اسـمها السـيدة تيموروس: "أنا أستعد لرحلة".

كانـت هـذه الفتـاة التيموريـة ابنـة لـه التـي التقـت كريسـتيان علـى التـل الصعب، وكانت ستجعله يعود خوفًا من الأسود.

تيم، لأي رحلة ترجوك؟

حتى أنني ذهبت وراء زوجي الصالح. وعندها انهمرت دموعها.

تـيم، آمـل ألا يكـون الأمـر كـذلك يـا جـاري الكـريم. أرجـوك، مـن أجـل أطفالك المساكين، لا تتخلى عن نفسك بهذه الطريقة غير اللائقة.

المسـيح: كـلا، سـيذهب أولادي معـي؛ لـيس واحـد مـنهم مسـتعداً للبقاء.

تيم، أتساءل في قرارة نفسي ما الذي أوصلك إلى هذه الفكرة!

جـاري ، كنـت أعرفـك، ولكـن بقـدر مـا أعرفـك، لا أشـك فـي أنـك سـتذهب معي.

تـيم، مـن فضـلك، مـا هـي المعرفـة الجديـدة التـي اكتسـبتها والتـي تشـغل بالك عن أصدقائك، والتي تغريك بالذهاب إلى مكان لا يعلمه أحد؟

كريسـتيانا : "لقـد عانيـتُ كثيـرًا منـذ رحيـل زوجـي، ولا سـيما بعـد رحيلـه. لكـن أكثـر مـا يـؤرقني هـو قسـوتي عليـه حـين كـان فـي محنتـه. ثـم إننـي الآن كمـا كـان هـو حينهـا: لا شـيء يُعيننـي سـوى الـذهاب فـي رحلـة حـج. لقـد حلمـتُ الليلـة الماضـية أننـي رأيتـه. يـا ليـت روحـي كانـت معـه! إنـه يسـكن فـي حضـرة ملـك الـبلاد، يجلـس ويأكـل معـه علـى مائدتـه، وقـد صـار رفيقًـا للخالـدين، ولـه الآن بيـتٌ يسـكنه، تبـدو لـي

أفضل قصور الأرض، إذا ما قورنت به، كأنها مزبلة. وقد استدعاني أمير المكان أيضًا، ووعدني بالضيافة إن أتيتُ إليه؛ وكان رسوله هنا الآن، وقد أحضر لي رسالة تدعوني للمجيء." ثم أخرجت الرسالة وقرأتها، وقالت لهم: "ماذا ستقولون الآن؟"

ميرسي ترغب أيضاً في الرحيل

تيم، يا للجنون الذي تملكك أنتِ وزوجك، أن تُقدما على هذه الصعاب! لا شك أنكِ سمعتِ ما واجهه زوجكِ، حتى ولو كان ذلك منذ الخطوة الأولى التي خطاها في طريقه، كما يشهد جارنا العنيد، فقد سار معهما، بل ومع بليبل أيضًا؛ إلى أن خافوا، كالحكماء، من المضي قدمًا. وسمعنا أيضًا، علاوة على ذلك، كيف واجه الأسود، وأبوليون، وظل الموت، وأشياء أخرى كثيرة. ولا تنسي الخطر الذي واجهه في سوق الغرور. فإذا كان هو، وهو رجل، قد تعرض لمثل هذه المحنة، فماذا يمكنكِ أنتِ، وأنتِ امرأة فقيرة، أن تفعلي؟ تذكري أيضًا أن هؤلاء الأطفال الأربعة هم أبناؤكِ، لحمكِ ودمكِ. لذلك، حتى وإن كنتِ متسرعة لدرجة أن تُلقي بنفسكِ، فابقي في المنزل من أجل أطفالكِ.

لكن كريستيانا قالت لها: "لا تُغريني يا جارتي. لديّ الآن فرصة سانحة، وسأكون في غاية الحماقة إن لم أغتنمها. ولأنكِ تُخبرينني بكل هذه المصاعب التي قد أواجهها، فهي لا تُثبط عزيمتي، بل تُؤكد لي أنني على صواب. لا بدّ أن يأتي المُرّ قبل الحلو، وهذا بدوره يزيد الحلو حلاوة. لذلك، بما أنكِ لم تأتي إلى بيتي باسم الله كما قلت، فأرجو منكِ أن تذهبي ولا تُقلقيني أكثر."

ثم شتمها تيموروس، وقال لرفيقتها: "هيا يا جارتي ميرسي، دعيها وشأنها، فهي تستهزئ بنصيحتنا ورفقتنا". لكن ميرسي كانت مترددة، ولم تستطع أن تُذعن لجارتها بسهولة، وذلك لسببين: أولهما، أن قلبها كان متعلقًا بكريستيانا؛ فقالت في نفسها: "إن كانت جارتي مُصرّة على الرحيل، فسأرافقها قليلًا وأساعدها". وثانيهما، أن قلبها كان متعلقًا بنفسها؛ فقد أثّر كلام كريستيانا في نفسها. ولذلك قالت في نفسها مرة أخرى: "سأُجري المزيد من الحديث مع كريستيانا، فإن وجدتُ في كلامها صدقًا وفائدة، فسأرافقها أنا أيضًا". وهكذا بدأت ميرسي تُجيب جارتها تيموروس:

يا جاري العزيز، لقد جئت معك بالفعل لرؤية كريستيانا هذا الصباح؛ وبما أنها، كما ترى، تودع بلدها للمرة الأخيرة، أعتقد أنني سأسير معها قليلاً في هذا الصباح المشمس، لمساعدتها في طريقها.

لكنها لم تخبرها بالسبب الثاني، بل احتفظت به لنفسها.

تيم، حسنًا، أرى أن لديك نية للمزاح أيضًا؛ لكن انتبه في الوقت المناسب، وكن حكيمًا. ما دمنا بعيدين عن الخطر، فنحن بعيدون؛ أما إذا دخلنا فيه، فنحن في خطر.

فعادت السيدة تيموروس إلى منزلها، وانطلقت كريستيانا في رحلتها. ولما وصلت تيموروس إلى منزلها، استدعت بعض جاراتها، وهنّ: السيدة ذات العيون الخفاشية، والسيدة عديمة التفكير، والسيدة خفيفة العقل، والسيدة عديمة المعرفة. فلما حضرن إلى منزلها، بدأت تيموروس تروي قصة كريستيانا ورحلتها المُرتقبة. وهكذا بدأت حكايتها:

جيران السيدة تيموروس

تيم: أيها الجيران، بما أنني لم أكن مشغولاً كثيراً هذا الصباح، ذهبتُ لزيارة كريستيانا؛ وعندما وصلتُ إلى الباب، طرقتُ كما تعلمون، فهذه عادتنا؛ فأجابتني: "إن كنتَ قادماً باسم الله، تفضل بالدخول". فدخلتُ وأنا أظن أن كل شيء على ما يرام؛ ولكن عندما دخلتُ وجدتها تُهيئ نفسها لمغادرة المدينة، هي وأطفالها أيضاً. فسألتها عن مغزى ذلك. فأخبرتني باختصار أنها تُفكر الآن في الذهاب للحج، كما يُريد زوجها. وأخبرتني أيضاً بحلم رأته، وكيف أن ملك البلد الذي يُقيم فيه زوجها قد أرسل إليها رسالة دعوة للقدوم إلى هناك.

ثم قالت السيدة التي لا تعرف شيئاً: "وماذا! هل تعتقد أنها ستذهب؟"

تيم: أجل، ستذهب مهما حدث؛ وأظن أنني أعرف ذلك من هذا: لأن السبب الرئيسي الذي دفعني لإقناعها بالبقاء في المنزل (أي المصاعب التي كانت ستواجهها في الطريق) هو نفسه سبب رئيسي يدفعني لتشجيعها على السفر. فقد قالت لي بوضوح: "المرّ يسبق الحلو؛ بل إن ذلك يجعل الحلو أحلى".

السيدة باتس-آيز : "يا لهذه المرأة العمياء والحمقاء! ألن تتعظ من محن زوجها؟ أما أنا، فأرى أنه لو كان هنا مرة أخرى، لكان قد استراح راضياً في جلده السليم، ولما خاطر بكل هذه المخاطر عبثاً."

أجابت السيدة غير المبالية قائلةً: "فليذهب هؤلاء الحمقى الخياليون من المدينة! تخلصنا منها، في رأيي! لو بقيت حيث تسكن، واحتفظت بهذا الرأي، فمن ذا الذي يستطيع العيش بسلام بجوارها؟ فهي إما ستكون ثرثارة، أو غير ودودة، أو تتحدث

بـأمور لا يطيقهـا أي عاقـل. لـذلك، لـن أحـزن أبـدًا علـى رحيلهـا: فلتـذهب، وليـأتِ مـن هـو أفضـل منهـا. لـم يكـن العـالم يومًـا مكانًـا جيـدًا منذ أن سكنه هؤلاء الحمقى المتقلبون."

ثـم أضـافت السـيدة لايـت ماينـد قائلـةً: "هيـا، دعونـا نتوقـف عـن هـذا الكـلام. كنـتُ بـالأمس عنـد مـدام وانتـون، حيـث كنـا فـي غايـة المـرح. فمـن تتوقعـون أن يكـون هنـاك سـوى أنـا والسـيدة لـوف ذا فلـيش، وثلاثـة أو أربعـة آخـرين، مـع السـيد ليتشـري والسـيدة فيلـث وآخـرين؟ لقـد اسـتمتعنا بالموسـيقى والـرقص، ومـا الـذي يُضـاهي ذلـك فـي إضـفاء البهجـة علـى هـذه الأمسـية؟ وأجـرؤ علـى القـول إن سـيدتي نفسها سيدة نبيلة ومهذبة، والسيد ليتشري رجل وسيم للغاية."

الفصل الثاني.

بوابة الويكيت.

فـي ذلـك الوقـت، كانـت كريسـتيانا قـد انطلقـت فـي طريقهـا، ورافقتهـا ميرسـي. وبينمـا كانتـا تسـيران، وكـان أطفالهـا حاضـرين أيضـاً، بـدأت كريسـتيانا تتحـدث قائلـة: "يـا ميرسـي، أعتبـر هـذا معروفـاً غيـر متوقـع منـكِ، أن تخرجـي معـي فـي هـذه الرحلـة، لترافقينـي قلـيلاً فـي طريقي".

ميـر. ثـم قالـت ميرسـي الصـغيرة (لأنهـا كانـت صـغيرة): "لـو كنـت أعتقـد أن الـذهاب معـك سـيكون لـه غـرض جيـد، لمـا اقتربـت مـن المدينة بعد الآن".

كريسـتيانا : "حسـنًا يـا ميرسـي، انضـمي إلـيّ فـي هـذا المصـير. أعـرف جيـدًا مـا سـتكون عليـه نهايـة رحلتنـا: زوجـي فـي مكـانٍ لا يرغـب فيـه

أبـدًا مقابـل كـل الـذهب فـي منـاجم إسـبانيا. ولـن تُـردّي، حتـى لـو ذهبـتِ بنـاءً علـى دعـوتي. الملـك الـذي اسـتدعاني أنـا وأولادي هـو ملـكٌ يُسـرّ بالرحمــة. إضــافةً إلــى ذلــك، إن شــئتِ، فســأوظفكِ، وســتذهبين معــي كخادمــة؛ ومــع ذلــك، ســيكون بيننــا كــل شــيء مشــترك، فقـط اذهبـي معي."

لكـن كيـف لـي أن أتأكـد مـن أننـي سأُسـتقبل أيضـاً؟ لـو كـان لـدي هـذا الأمـل مـن شـخصٍ قـادرٍ علـى التنبـؤ، لمـا تـرددت لحظـة، بـل لـذهبت، مستعيناً بمن يقدر على العون، وإن كان الطريق وعراً.

المسـيح: حسـناً، يـا رحمـة المحبـة، سـأخبرك بمـا يجـب عليـك فعلـه: اذهبـي معـي إلـى البوابـة الصـغيرة، وهنـاك سأسـأل عنـك أكثـر؛ وإذا لـم تجـدي هنـاك تشـجيعاً، فسـأكتفي بـأن تعـودي إلـى مكانـك: وسـأكافئك أيضـاً علـى لطفـك الـذي تظهرينــه لــي ولأولادي، بمرافقتـك لنــا فــي طريقنا كما تفعلين.

الرحمة تتماشى مع المسيحية

ميـر. حينهـا سـأذهب إلـى هنـاك، وسـأتقبل مـا سـيأتي؛ وليمنحنـي الـرب أن يقع نصيبي هناك، كما لو أن ملك السماء يولي قلبي لي!

شـعرت كريسـتيانا حينهـا بسـعادة غـامرة، لـيس فقـط لأنهـا وجـدت رفيقـة، بـل لأنهـا اسـتطاعت أن تُقنـع هـذه الفتـاة المسـكينة بـالوقوع فـي حب خلاصها. وهكذا مضتا معًا، وبدأت ميرسي بالبكاء.

فقالت كريستيانا: "لماذا تبكي أختي هكذا؟"

ميـر: "يـا للأسـف! مـن ذا الـذي لا يحـزن، ومـن ذا الـذي لا يتأمـل فـي حـال أقـاربي المسـاكين، الـذين مـا زالـوا يعيشـون فـي مـدينتنا الآثمـة؟ ومـا يزيـد حزنـي ثقـلاً هـو أنـه لـيس لـديهم مـن يعلمهـم أو يخبـرهم بمـا سيأتي."

يـا مـريم، الحنـان يليـق بالحجـاج، وأنـتِ تفعلـين ذلـك لأصـدقائكِ كمـا فعـل مسـيحيّ الصـالح معـي حـين فـارقني: لقـد حـزن لأنـي لـم أعـرْه اهتمامًـا، لكــن ربــه وربنــا جمعــا دموعــه ووضــعاها فــي قارورتــه، والآن أنــا وأنــتِ وهــؤلاء أطفــالي الأعــزاء نحصــد ثمارهــا ونفعهــا. أرجــو يــا رحمــة ألا تضــيع دموعــكِ هــذه، لأن الحــق قــد قــال: "الــذين يزرعــون بالــدموع يحصــدون بــالفرح"، و"الــذي يخــرج باكيًــا حــاملًا بــذارًا ثمينًا، سيعود حتمًا مبتهجًا حاملًا حزمه".

ثم قالت ميرسي:

"لـيكن الله المبـارك دليلـي، إن كانـت هـذه مشـيئته المباركـة، إلـى بابـه، إلى حظيرته، إلى جبله المقدس."

"ولا تدعه يسمح لي أبدًا بالانحراف أو الانعطاف عن نعمته المجانية وطرقه المقدسة، مهما حدث لي."

"وليجمع من تركتهم ورائي يا رب، اجعلهم يصلّون أن يكونوا لك، بكل قلوبهم وعقولهم."

ثم تابع صديقي القديم قائلاً: "لكن عندما وصلت كريستيانا إلى مستنقع اليأس، توقفت فجأة؛ وقالت: "لأن هذا هو المكان الذي كاد زوجي الحبيب أن يُغطى فيه بالطين". ولاحظت أيضاً أنه على الرغم من أمر الملك بجعل هذا المكان صالحاً للحجاج، إلا أنه أصبح أسوأ حالاً مما كان عليه سابقاً". فسألتها إن كان ذلك صحيحاً.

قال الرجل العجوز: "نعم، هذا صحيح تمامًا، فكثيرون يدّعون أنهم عمال الملك، ويقولون إنهم يصلحون طريق الملك، فيأتون بالتراب والروث بدلًا من الحجارة، فيخربون الطريق بدلًا من إصلاحه. هنا، وقفت كريستيانا مع أبنائها. لكن ميرسي قالت: "هيا بنا نغامر، ولكن لنكن حذرين". فنظروا جيدًا إلى خطواتهم، وحاولوا عبور الطريق بخطوات متعثرة. لكن لا بد أن كريستيانا كانت في الداخل، وليس مرة ولا مرتين."

"وما كادوا أن يكملوا طريقهم حتى ظنوا أنهم سمعوا كلمات تقول لهم: طوبى لمن آمنت، لأنه سيكون هناك عمل لما قيل لها من الرب."

ثم تابعوا حديثهم؛ وقالوا لكريستيانا: "لو كان لديّ أمل جيد في استقبال حافل عند بوابة المرمى مثلك، لما ثنيتني أي حالة من اليأس".

قال الآخر: "حسنًا، أنت تعرف مشكلتك، وأنا أعرف مشكلتي؛ يا صديقي العزيز، سنواجه ما يكفي من الشر قبل أن نصل إلى نهاية رحلتنا. فهل يُعقل أن يُتصور أن القوم الذين يطمحون إلى بلوغ مثل هذه الأمجاد العظيمة التي نطمح إليها، والذين يُحسدون على سعادتهم مثل سعادتنا، إلا وسنواجه ما يمكن أن يُصيبنا به من مخاوف ومتاعب ومصائب، أولئك الذين يكرهوننا؟"

عند بوابة الويكيت

والآن تركني السيد ساغاسيتي لأحلم حلمي وحدي. ولذلك، ظننت أنني رأيت كريستيانا وميرسي والأولاد يصعدون جميعًا إلى البوابة؛ وعندما وصلوا، انخرطوا في نقاش قصير حول كيفية طلب الدخول، وماذا سيقولون لمن يفتح لهم. فاستقر الرأي، بما أن كريستيانا هي الكبرى، على أن تطرق الباب للدخول، وأن تتحدث

هـي مـع مـن يفتحـه. فبـدأت كريسـتيانا بـالطرق، وكمـا فعـل زوجهـا المسـكين، طرقـت مـرارًا وتكـرارًا. ولكـن بـدلًا مـن أن يجيـب أحـد، ظنـوا جميعًـا أنهـم يسـمعون نبـاح كلـب ضـخم ينـبح علـيهم. وهـذا مـا أخـاف النسـاء والأطفـال، ولـم يجـرؤوا علـى الطـرق مـرة أخـرى، خشـية أن يـنقض علـيهم الكلـب. وهكـذا، ارتبكـوا بشـدة، ولـم يعرفـوا مـاذا يفعلـون. لـم يجـرؤوا علـى الطرق خوفًـا مـن الكلـب، ولـم يجـرؤوا علـى الرجـوع خوفًـا مـن أن يـراهم حـارس البوابـة وهـم ذاهبـون، فيغضـب علـيهم. أخيـرًا فكـروا فـي الطـرق مـرة أخـرى، فطرقـوا بصـوت أعلـى ممـا فعلـوا فـي البدايـة. فقـال حـارس البوابـة: "مـن هنـاك؟" فكـف الكلب عن النباح، وفتح لهم.

ثـم سـجدت كريسـتيانا بانحنـاءة وقالـت: "لا يغضـب ربنـا مـن جواريـه، لأننا طرقنا بابه الملكي".

ثم قال الحارس: "من أين أتيتم؟ وماذا تريدون؟"

أجابـت كريسـتيانا: "لقـد جئنـا مـن حيـث أتـى كريسـتيان، وفـي نفـس مهمتـه؛ أي أن تُسـمح لنـا، إن شـئت، بالـدخول مـن هـذه البوابـة إلـى الطريـق المـؤدي إلـى المدينـة السـماوية. وأجيبـك يـا سـيدي، ثانيـاً، أنني كريستيانا، زوجة كريستيان التي صعدت الآن إلى السماء."

عنـدها تعجـب حـارس البوابـة قـائلاً: "مـاذا! هـل أصـبحت الآن حاجّـة، وهي التي كانت تكره تلك الحياة منذ وقت قصير؟"

ثم انحنت برأسها وقالت: "نعم، وهؤلاء أيضاً أطفالي الأعزاء".

ثـم أخـذ بيـدها وأدخلهـا، وقـال: «دعـوا الأطفـال يـأتون إلـيّ»، ثـم أغلـق البـاب. بعـد ذلـك، نـادى عـازف البـوق الـذي كـان فـوق البـاب، ليُسـعد كريسـتيانا بالهتـاف وصـوت البـوق ابتهاجًـا. فأطـاع العـازف، ونفـخ في البوق، فملأ الجو بألحانه العذبة.

طـوال ذلـك الوقـت، وقفـت ميرسـي المسـكينة ثابتـةً لا ترتجـف ولا تبكـي، خوفًـا مـن الـرفض. ولكـن عنـدما حصـلت كريسـتيانا علـى القبـول لنفسها ولأولادها، بدأت تتضرع من أجل ميرسي.

ميرسي تغمى عليها

وقالـت: "يـا سـيدي، لـي رفيقـة مـا زالـت واقفـة فـي الخـارج، وقـد أتـت إلـى هنـا لـنفس السـبب الـذي أتيـت مـن أجلـه، وهـي مضـطربة فـي نفسـها، لأنهـا تـأتي، كمـا تظـن، دون أن تسـتدعيني؛ بينمـا أنـا أرسـلني ملك زوجي لأحضر" .

بـدأت ميرسـي تشـعر بنفـاد الصـبر، فكـل دقيقـة كانـت تبـدو لهـا كأنهـا سـاعة، ولـذلك منعـت كريسـتيانا مـن السـؤال عنهـا بشـكل كامـل بـأن

طرقـت البوابـة بنفسـها. وطرقـت بقـوة حتـى أفزعـت كريسـتيانا. ثـم سـأل حـارس البوابـة: "مـن هنـاك؟" فأجابـت كريسـتيانا: "إنهـا صديقتي".

ففتح البـاب ونظـر إلـى الخـارج؛ لكـن الرحمـة كانـت قـد سـقطت مغشـياً عليها في الخارج، لأنها أغمي عليها، وخافت ألا يفتح لها أي باب.

ثم أمسك بيدها وقال: "يا فتاة، آمرك أن تقومي".

قالـت: "يـا سـيدي، أنـا أشـعر بالإغمـاء: لـم يتبـق فـيّ إلا القليـل مـن الحياة."

لكنـه أجـاب قـائلاً: "قـال أحـدهم ذات مـرة: عنـدما أغمـي علـى روحـي فـي داخلـي، تـذكرت الـرب؛ ودخلـت صـلاتي إليـك، إلـى هيكلـك المقـدس. لا تخف، بل قف على قدميك، وأخبرني لماذا أتيت."

أنـا هنـا لأجـل أمـرٍ لـم أُدعَ إليـه قـط، علـى عكـس صـديقتي كريسـتيانا. دعوتهـا كانـت مـن الملـك، أمـا دعـوتي فكانـت منهـا. ولـذلك أخشـى أن يكون هذا هو السبب .

احتفظ. هل كانت ترغب في أن تأتي معها إلى هذا المكان؟

نعـم ، وكمـا يـرى ربـي، فقـد أتيـت. وإن كـان هنـاك مـن فضـل ومغفـرة للـذنوب، فـإني أتوسـل إليـك أن أكـون مـن بـين مـن ينالونهـا، أنـا خادمتك المسكينة.

الرحمة مسموح لها بالدخول

ثـم أخـذ بيـدها ثانيـةً، وأدخلهـا برفـق، وقـال: «أصـلي مـن أجـل جميـع الـذين يؤمنـون بـي، مهمـا كانـت الوسيلة التـي أتـوا بهـا إلـيّ». ثـم قـال للـذين كـانوا واقفـين: «أحضـروا شـيئًا، وأعطـوه لمـريم لتشـمه، فيتوقـف إغماؤهـا». فأحضـروا لهـا حزمـة مـن المـرّ، وبعـد قليـل استعادت وعيها.

ثـمّ كانـت كريسـتيانا وأبناؤهـا ورحمـة الـربّ عنـد رأس الطريـق، وتحـدثوا إليـه بلطـف. ثـمّ قـالوا لـه: "نحـن نـادمون علـى خطايانـا، ونتوسل إلى ربنا أن يغفر لنا ويرشدنا إلى ما يجب علينا فعله".

قـال: «أمـنح العفـو بـالقول والفعـل: بـالقول، فـي وعـد المغفـرة؛ وبالفعـل، بالطريقـة التـي حصـلت بهـا عليهـا. خـذوا الأول مـن شـفتي بقبلة، والآخر كما سيُكشف».

رأيـت فـي منـامي أنـه خـاطبهم بكـلام طيـب أسـعدهم كثيـراً. ثـم صـعد بهـم إلـى أعلـى البوابـة، وأراهـم العمـل الـذي نـالوا بـه النجـاة، وأخبـرهم

أنهم سيرون ذلك المشهد مرة أخرى في طريقهم، ليكون ذلك مصدر راحة لهم.

فتركهم قليلاً في صالون صيفي بالأسفل، حيث دخلوا في حديث على انفراد؛ وهكذا بدأت كريستيانا:

"يا رب، كم أنا سعيد لأننا هنا!"

مير. قد يكون لك ذلك، ولكنني أنا بالذات لدي سبب للقفز فرحاً.

كريستيان: فكرت ذات مرة وأنا أقف عند البوابة، لأنني طرقت ولم يجب أحد، أن كل عملنا قد ضاع، خاصة عندما نبح ذلك الكلب القبيح بشدة في وجهنا.

مير. لكن أسوأ مخاوفي كانت بعد أن رأيتُكِ قد نلتِ رضاه، وأنني تُركتُ وحدي. حينها فكرتُ: لقد تحققت المقولة: "امرأتان تطحنان في الرحى، تُؤخذ إحداهما وتُترك الأخرى". كدتُ أصرخ: "هلك! هلك!"، وخفتُ أن أطرق الباب مرة أخرى، لكن عندما نظرتُ إلى ما كُتب فوق البوابة، تشجعتُ. فكرتُ أيضًا أنه لا بد لي من أن أطرق مرة أخرى أو أموت، فطرقتُ، لكنني لا أستطيع أن أصف كيف، لأن روحي كانت تُصارع بين الحياة والموت.

يا كريستيان، ألا تستطيع أن تخبرني كيف طرقت الباب؟ أنا متأكد من أن طرقك كان شديدًا لدرجة أن مجرد سماع صوته أفزعني. ظننت أنني لم أسمع مثل هذا الطرق في حياتي كلها؛ ظننت أنك ستدخل بعنف، أو ستستولي على المملكة بالقوة.

، أرجوك، ماذا قال سيدي عن وقاحتي؟ ألم يغضب مني؟

يا رب، عندما سمع صوتك الثقيل، ابتسم ابتسامة بريئة رائعة؛ أعتقد أن ما فعلته أرضاه تمامًا، لأنه لم يُبدِ أي علامة تُخالف ذلك. لكنني أتعجب في قرارة نفسي لماذا يُبقي على كلب كهذا؛ لو كنت أعلم ذلك مُسبقًا، لما تجرأت على المُجازفة بهذه الطريقة. لكن الآن وقد دخلنا، دخلنا، وأنا سعيد من كل قلبي.

مير، سأسأله، من فضلك، في المرة القادمة التي ينزل فيها، لماذا يُبقي كلباً قذراً كهذا في فناء منزله. آمل ألا يغضب من ذلك.

قال الأطفال: "نعم، افعلوا ذلك، وأقنعوه أن يشنقه، لأننا نخشى أن يعضنا عندما نذهب من هنا".

وأخيراً نزل إليهم مرة أخرى، فسقطت الرحمة على وجهها أمامه وسجدت وقالت: "ليقبل ربي قربان الحمد الذي أقدمه له الآن بشفتي".

فقال لها: «السلام عليكِ، قومي». لكنها استمرت في السجود وقالت: «أنت عادل يا رب حين أجادلك، ولكن دعني أتحدث إليك عن أحكامك. لماذا تُبقي كلباً قاسياً كهذا في فنائك، حتى إذا رآه نساء وأطفال مثلنا يهربون من البوابة خوفاً؟» أجاب قائلاً: "هذا الكلب له مالك آخر، وهو أيضاً محتجز في أرض رجل آخر، ولا يسمع نباحه إلا حجاجي. إنه ينتمي إلى القلعة التي تراها هناك من بعيد، ولكنه يستطيع الاقتراب من أسوار هذا المكان. لقد أرعب العديد من الحجاج الشرفاء، فزادهم خوفاً من العواقب، بصوته العالي. في الحقيقة، إن مالكه لا يحتجزه بدافع المودة لي أو لأهلي، بل بقصد منع الحجاج من القدوم إليّ، حتى يخافوا من طرق هذه البوابة للدخول. وقد هرب أحياناً، وأقلق بعضاً ممن أحبهم، ولكني أتحمل كل ذلك بصبر في الوقت الراهن. كما أنني أقدم لحجاجي المساعدة في الوقت المناسب، حتى لا يقعوا في قبضته، فيفعل بهم ما تمليه عليه طبيعته الكلبية. ولكن ماذا! يا عزيزتي، أظن أنكِ لو كنتِ تعلمين كل هذا مسبقاً، لما كنتِ خائفة من كلب. المتسولون الذين يطوفون من باب إلى باب أفضّل، على أن أخسر صدقةً مزعومة، أن أواجه خطر نباح الكلب وعويله وعضه أيضاً؛ فهل يمنع كلبٌ في فناء رجلٍ آخر، كلبٌ أحوّل نباحه إلى منفعةٍ للحجاج، أحداً من القدوم إليّ؟ إني أنقذهم من الأسود، وأنقذ حيوانهم الأليف من قبضة الكلب.

مير. ثم قالت ميرسي: "أعترف بجهلي، لقد تكلمت بما لم أفهمه: أقر بأنك تفعل كل شيء على نحو جيد".

ثم بدأت كريستيانا تتحدث عن رحلتهم، وتسأل عن الطريق.

فأطعمهم وغسل أرجلهم وأقامهم في طريق خطواته، كما فعل مع زوجها من قبل.

لذا رأيت في حلمي أنهم واصلوا سيرهم في طريقهم، وكان الطقس مريحاً جداً بالنسبة لهم.

ثم بدأت كريستيانا بالغناء:

"مبارك اليوم الذي بدأت فيه تقدم الحجاج؛ ومبارك أيضًا الرجل الذي حركني إلى ذلك."

"صحيح أنني لم أبدأ منذ زمن طويل في السعي للعيش إلى الأبد؛ لكنني الآن أركض بأقصى سرعة ممكنة: فالوصول متأخراً خير من عدم الوصول أبداً."

"دموعنا تتحول إلى فرح، ومخاوفنا إلى إيمان، كما نرى؛ وهكذا فإن بدايتنا (كما يقول أحدهم) تُظهر ما ستكون عليه نهايتنا."

كان هناك، على الجانب الآخر من السور الذي يحيط بالطريق الذي ستسلكه كريستيانا ورفاقها، حديقة، وكانت تلك الحديقة ملكًا لصاحب ذلك الكلب النباح الذي ذُكر سابقًا. وقد امتدت أغصان بعض أشجار الفاكهة التي تنمو في تلك الحديقة فوق السور؛ ولأنها كانت ناضجة، كان من يجدها يجمعها ويأكل منها كثيرًا، مما أضرّ بهم. وهكذا، كما هي عادة الصبية، أعجب صبية كريستيانا بالأشجار والثمار المتدلية عليها، فقاموا بثني الأغصان وقطف الثمار وبدأوا في أكلها. وقد وبختهم أمهم على ذلك، لكن الصبية استمروا في طريقهم.

قالت: "حسنًا يا أبنائي، أنتم مخطئون، فهذه الثمرة ليست لنا"؛ لكنها لم تكن تعلم أنها تخص العدو: أراهنكم أنها لو علمت لكانت مستعدة للموت خوفًا. لكن ذلك مر، ومضوا في طريقهم.

أصحاب الحظ العاثر

وبعد أن ابتعدوا مسافة رميتين تقريبًا عن المكان الذي قادهم إلى الطريق، لمحوا امرأتين قبيحتي المظهر تنزلان مسرعتين للقائهم. عندئذٍ، غطت كريستيانا وصديقتها ميرسي نفسيهما بحجابيهما، وتابعتا سيرهما؛ وسار الأطفال أمامهما أيضًا؛ حتى التقوا أخيرًا. ثم اقتربت النستان اللتان نزلتا للقائهم من المرأتين، وكأنهما تريدان معانقتهما؛ لكن كريستيانا قالت: "تراجعا، أو انصرفا بسلام، كما ينبغي".

لكن هذين الرجلين، كونهما أصمين، لم يكترثا لكلام كريستيانا، بل شرعا في ضربهما. عندئذٍ، غضبت كريستيانا غضبًا شديدًا، وركلتهما بقدميها. وحاولت ميرسي أيضًا، قدر استطاعتها، إبعادهما. ثم قالت لهما كريستيانا ثانيةً: "ابتعدا وانصرفا؛ فليس لدينا مال نخسره، فنحن حجاج كما ترون، ونعيش على إحسان أصدقائنا".

أيها القبيح. ثم قال أحد الرجلين: "نحن لا نطلب منك المال، ولكننا جئنا لنخبرك أنه إذا استجبت لطلب صغير سنطلبه منك، فسنجعلك امرأة إلى الأبد".

كريستيانا ، فقد تخيلت ما ينبغي أن تعنيه، فأجابت مرة أخرى: "لن نسمع ولن نلتفت ولن نستجيب لما ستطلبونه. نحن في عجلة من أمرنا، ولا يمكننا البقاء؛ فأمرنا مسألة حياة أو موت."

لـذا حاولـت هـي ورفاقهـا مـرة أخـرى تجـاوزهم؛ لكـنهم سـمحوا لهـم بالمرور في طريقهم.

غيـر مرغـوب فيـه. وقـالوا: "لا ننـوي إلحـاق الأذى بحيـاتكم؛ بـل إن هذا شيء آخر كنا نرغب فيه".

: "أجـل، تريـدوننا جسـدًا وروحًـا، فأنـا أعلـم أنكـم جئـتم لأجـل ذلـك؛ لكننـا نفضل المـوت فـي هـذه الحـال علـى أن نقـع فـي مثـل هـذه الفخـاخ التـي تهـدد سـلامتنا فـي الآخـرة". ثـم صـرختا معًـا: "قتـل! قتـل!"، وبـذلك فرضـتا نفسـيهما علـى القـوانين التـي تحمـي النسـاء. لكـن الرجـال اسـتمروا فـي الاقتـراب منهمـا، عـازمين علـى قهرهمـا. فصرختا مرة أخرى.

ظهر مُخفف للأزمة

ولأنهـم، كمـا ذكـرت، كـانوا بعيـدين عـن البوابـة التـي دخلـوا منهـا، سُـمعت أصـواتهم مـن مكـانهم، فخـرج بعـض أهـل البيـت، ولمـا عرفـوا أنهـا لغـة كريسـتيانا، أسـرعوا لنجـدتها. ولكـن مـا إن وصـلوا إلـيهم حتـى ارتجفـت النسـاء رعبًـا شـديدًا، ووقـف الأطفـال يبكـون. حينهـا نـادى الـذي جـاء لنجـدتهم علـى الأشـرار قـائلًا: "مـا هـذا الـذي تفعلونـه؟ أتريـدون أن تجعلـوا قـوم سـيدي يفعلـون الشـر؟" حـاول أيضًـا القـبض علـيهم، لكـنهم تمكنـوا مـن الفـرار فـوق السـور إلـى حديقـة الرجـل الـذي يملـك الكلـب الضـخم، فأصـبح الكلـب حـاميهم. ثـم اقترب هذا المُنقذ من النساء وسألهن عن حالهن.

فأجـابوا قـائلين: "نشـكر أميـرك، إلـى حـد كبيـر، إلا أننـا شـعرنا بـبعض الخوف: ونشكرك أيضاً لأنك أتيت لمساعدتنا، وإلا لكنا قد غلبنا".

المُعـين. بعـد بضـع كلمـات أخـرى، قـال هـذا المُعـين مـا يلـي: "لقـد تعجبـتُ كثيـراً عنـدما اسـتُقبلتن عنـد البوابـة العلويـة، وأنـتن تعلمـن أنكـن نسـاء ضـعيفات، أنكـن لـم تطلـبن مـن الـرب مُعينـاً. لـو كـان الأمـر كـذلك، لكنـتن تجنبـتن هـذه المتاعـب والمخـاطر؛ لأنـه كـان سـيمنحكن واحداً."

كريسـتيانا : "يـا للأسـف! لقـد انشـغلنا بنعمتنـا الحاليـة لدرجـة أننـا نسـينا المخـاطر القادمـة. ثـم مـن كـان لـيظن أن مثـل هـؤلاء الأشـرار يتربصـون بـالقرب مـن قصـر الملـك؟ فـي الحقيقـة، كـان مـن الأفضـل لنـا لـو طلبنـا مـن ربنـا أن يرسـل لنـا واحداً؛ ولكـن بمـا أن ربنـا يعلـم أن ذلـك سيكون في مصلحتنا، فأنا أتعجب أنه لم يرسل واحداً معنا."

فكل شيء يسير لخيرك، ويجعلك أكثر حذرًا.

هل نعود مرة أخرى إلى ربي، ونعترف بحماقتنا، ونسأله ؟

يا ريل، سأقدم له اعترافك بحماقتك. لستَ بحاجة للعودة، ففي كل مكان ستأتي إليه، لن تجد نقصًا على الإطلاق؛ ففي كل مسكن من مساكن سيدي التي أعدها لرعاية حجاجه، يوجد ما يكفيهم لمواجهة أي محاولة مهما كانت. ولكن، كما قلت، سيطلبون منه أن يفعل ذلك نيابةً عنهم. ومن المؤسف ألا يُطلب شيء.

يواصل الحجاج مسيرتهم

وبعد أن قال ذلك، عاد إلى مكانه، ومضى الحجاج في طريقهم.

مير. ثم قالت ميرسي: "يا له من فراغ مفاجئ هنا! لقد كنت أعتقد أننا تجاوزنا كل خطر، وأننا لن نرى الحزن مرة أخرى."

كريستيانا لمرسي: "إن براءتك يا أختي قد تعفيكِ كثيراً، أما أنا فذنبي أكبر بكثير، لأني رأيت الخطر قبل أن أخرج من الأبواب، ومع ذلك لم أتخذ الاحتياطات اللازمة عندما كان بالإمكان اتخاذها. لذلك فأنا أتحمل الكثير من اللوم."

مير. ثم قالت ميرسي: "كيف عرفتِ هذا قبل مجيئكِ من المنزل؟ أرجوكِ، اشرحي لي هذا اللغز."

يا كريستيان، سأخبرك. قبل أن أخرج من المنزل ذات ليلة، بينما كنت مستلقيًا على فراشي، حلمتُ بهذا؛ فقد ظننتُ أنني رأيتُ رجلين، لا يشبهان هذين الرجلين إلا قليلًا، يقفان عند قدمي سريري، يتآمران لمنع خلاصي. سأخبرك بكلماتهما حرفيًا. قالا (وكان ذلك عندما كنتُ في محنة): "ماذا نفعل بهذه المرأة؟ إنها تصرخ مستغيثةً في يقظتها ونومها: إذا تُركت على حالها، فسنخسرها كما خسرنا زوجها". هذا، كما تعلم، كان من الممكن أن يجعلني أنتبه، وأن أستعد عندما كان ذلك ممكنًا.

مير: "حسنًا،" قالت ميرسي، "بما أن هذا الإهمال قد جعلنا نرى نقائصنا، فقد انتهز ربنا الفرصة من ذلك لإظهار غنى نعمته؛ لأنه، كما نرى، قد تبعنا بلطف لم نطلبه، وأنقذنا من أيديهم التي كانت أقوى منا، بمحض إرادته."

الفصل الثالث.

بيت المترجم.

بيت المترجم

وهكذا، بعد أن أطالوا الحديث قليلاً، اقتربوا من منزلٍ يقع في طريقهم، بُنيَ لإيواء الحجاج، كما ستجدون تفاصيل أوفى في الجزء الأول من سجلات تقدم الحجاج. فتوجهوا نحو المنزل (منزل

المترجم)، وعندما وصلوا إلى الباب، سمعوا حديثًا مطولًا في الداخل. فأنصتوا، وظنوا أنهم سمعوا كريستيانا تُذكر بالاسم؛ إذ كان هناك حديثٌ يدور، حتى قبل وصولها، عن ذهابها هي وأطفالها للحج. وقد أسعدهم هذا الأمر، لأنهم سمعوا أنها زوجة كريستيان، تلك المرأة التي كانت ترفض فكرة الحج منذ زمن. فتوقفوا، واستمعوا إلى أهل المنزل يثنون عليها، وهم، كما لم يتوقعوا، يقفون عند الباب. وأخيرًا طرقت كريستيانا الباب، كما فعلت من قبل. وبعد أن طرقت الباب، جاءت فتاة صغيرة، ففتحت الباب ونظرت؛ وإذا بامرأتين هناك.

الخادمة لهم: "مع من تريدون التحدث في هذا المكان؟"

كريستيانا : "نحن نفهم أن هذا مكان مُعدّ لأولئك الذين أصبحوا حجاجًا، ونحن الآن عند هذا الباب من هؤلاء؛ لذلك نصلي أن نكون شركاء في ما جئنا من أجله في هذا الوقت؛ لأن النهار، كما ترى، قد انقضى إلى حد كبير، ونحن لا نرغب الليلة في الذهاب إلى أبعد من ذلك."

يا إلهي، ما الاسم الذي أسمح لي أن أنادي به ربي في داخلي؟

كريستيانا ، كنت زوجة ذلك الحاج الذي سلك هذا الطريق قبل سنوات، وهؤلاء هم أبناؤه الأربعة. هذه الشابة رفيقتي، وهي ذاهبة في رحلة حج أيضًا.

بريئة. ثم ركضت بريئة (لأن هذا كان اسمها)، وقالت لمن في الداخل: "هل يمكنك أن تتخيل من على الباب؟ إنها كريستيانا وأطفالها، ورفيقتها، جميعهم ينتظرون الترفيه هنا."

ثم قفزوا فرحاً، وذهبوا وأخبروا سيدهم. فجاء إلى الباب، ونظر إليها، وقال: "أأنتِ كريستيانا التي تركها كريستيان الرجل الصالح وراءه، عندما ذهب إلى حياة الحج؟"

أنا تلك المرأة التي كانت قاسية القلب لدرجة أنني تجاهلت مشاكل زوجي، ثم تركته يسافر وحيدًا؛ وهؤلاء هم أبناؤه الأربعة. ولكنني الآن أيضًا أتيت، لأني مقتنعة بأنه لا سبيل إلا هذا .

ثم يتحقق ما كُتب أيضاً عن الرجل الذي قال لابنه: "اذهب واعمل اليوم في كرمي"، فقال لأبيه: "لا أريد"، لكنه ندم فيما بعد وذهب.

كريستيانا : "ليكن كذلك: آمين. اللهم اجعلها قولاً صادقاً عليّ، وامنحني أن أُوجد في آخرته بسلام، بلا دنس ولا لوم!"

الداخل: ولكن لماذا تقفين هكذا عند الباب؟ ادخلي يا مباركة. كنا نتحدث عنكِ الآن، فقد وصلتنا أخبار من قبل عن كونكِ حاجّة. تعالوا يا أطفال، ادخلوا؛ تعالي يا فتاة، ادخلي.

لذلك أدخلهم جميعاً إلى المنزل.

تم ترفيه الحجاج

فلما دخلوا، أُمروا بالجلوس والراحة؛ فلما فعلوا، دخل من كانوا يخدمون الحجاج في البيت الغرفة لرؤيتهم. فابتسم أحدهم، وابتسم آخر، وابتسموا جميعًا فرحًا لأن كريستيانا أصبحت حاجّة. ونظروا أيضًا إلى الصبيان؛ وربّتوا على وجوههم بأيديهم، دلالةً على حسن استقبالهم لهم؛ ثم حملوها بمحبة إلى ميرسي، ورحّبوا بهم جميعًا في بيت سيدهم.

بعد فترة، ولأن العشاء لم يكن جاهزًا، اصطحبهم المترجم إلى غرفه المهمة، وأراهم ما رآه كريستيان، زوج كريستيانا، قبل ذلك. هناك، رأوا الرجل في القفص، والرجل وحلمه، والرجل الذي شق طريقه بين أعدائه، وصورة أكبرهم جميعًا، بالإضافة إلى بقية الأشياء التي كانت ذات فائدة كبيرة لكريستيان آنذاك.

بعد ذلك، وبعد أن رأت كريستيانا ورفاقها تلك الأشياء وتأملوا فيها، قام المترجم بتفكيكها مرة أخرى، وأخذهم أولاً إلى غرفة كان يقف فيها رجل لا يستطيع النظر إلا إلى الأسفل، وفي يده مجرفة. وكان هناك رجل آخر يقف فوق رأسه، وفي يده تاج سماوي، وعرض عليه أن يعطيه ذلك التاج مقابل مجرفته؛ لكن الرجل لم يرفع رأسه ولم يكترث، بل ظل يجمع القش والعصي الصغيرة وغبار الأرض لنفسه.

ثم قالت كريستيانا: "أقنع نفسي بأنني أعرف بعض الشيء معنى هذا؛ لأن هذا رمز لرجل من هذا العالم. أليس كذلك يا سيدي؟"

أن الجنة ليست إلا خرافةً للبعض، وأن الأشياء هنا هي الأشياء الجوهرية الوحيدة. وإذا رأيتَ أيضاً أن الرجل لا ينظر إلا إلى الأسفل، فهذا يُعلِمك أن الأمور الدنيوية، إذا ما سيطرت على عقول الناس، تُبعد قلوبهم تماماً عن الله."

كريستيانا : "يا إلهي، أنقذني من هذه المجرفة!"

المترجم : "لقد تُركت تلك الصلاة جانباً حتى كادت تصدأ. 'لا تعطيني ثروة' بالكاد تُصلي واحداً من بين عشرة آلاف. القش والعصي والتراب، مع معظم الناس، هي الأشياء العظيمة التي يُعتنى بها الآن."

عندها بكت ميرسي وكريستيانا، وقالتا: "يا للأسف! هذا صحيح للغاية."

رموز المفسر

بعد أن أراهم المترجم ذلك، اصطحبهم إلى أفضل غرفة في المنزل؛ غرفةً كانت جريئةً للغاية. فأمرهم أن ينظروا حولهم، وأن يروا إن كانوا سيجدون شيئًا هناك. فنظروا مرارًا وتكرارًا؛ إذ لم يكن هناك ما يُرى سوى عنكبوت ضخم على الجدار، وقد أغفلوه.

ميرسي : "سيدي، لا أرى شيئاً".

لكن كريستيانا التزمت الصمت.

المترجم : "لكن انظر مرة أخرى".

فنظرت مرة أخرى، وقالت: "ليس هنا سوى عنكبوت قبيح، معلق من يديه على الحائط".

ثم قال: "هل يوجد عنكبوت واحد فقط في هذه الغرفة الفسيحة؟"

ثم تجمعت الدموع في عيني كريستيانا، لأنها كانت امرأة سريعة البديهة؛ وقالت: "نعم يا سيدي؛ هناك أكثر من واحدة هنا؛ نعم، وعناكب سمها أشد فتكاً بكثير من السم الموجود فيها".

ثم نظر إليها المترجم بعين الرضا وقال: "لقد قلتِ الحقيقة".

هذا جعل ميرسي تحمر خجلاً، وجعل الأولاد يغطون وجوههم؛ لأنهم جميعاً بدأوا الآن يفهمون اللغز.

ثم قال المفسر مرة أخرى: "العنكبوت يمسك بيديه (كما ترون)، وهو في قصور الملوك. ولماذا سُجّل هذا إلا ليُظهر لكم أنه مهما امتلأتم بسموم الخطيئة، فإنه بإمكانكم، بيد الإيمان، أن تتمسكوا بأفضل مكان في بيت الملك في السماء وتسكنوا فيه."

: "لقد فكرتُ في شيء من هذا، لكنني لم أستطع تخيله بالكامل. ظننتُ أننا مثل العناكب، وأننا نبدو كمخلوقات قبيحة، مهما كانت الغرف الجميلة التي نتواجد فيها: لكن فكرة أننا من خلال هذه العنكبوت، هذا المخلوق السام والقبيح، سنتعلم كيف نتصرف بإيمان، لم تخطر ببالي؛ ومع ذلك فقد أمسكت بيديها، وكما أرى، تسكن في أفضل غرفة في المنزل. لم يخلق الله شيئًا عبثًا."

ثم بدا عليهم جميعاً الفرح، لكن الماء ظل في أعينهم؛ ومع ذلك نظروا إلى بعضهم البعض، وانحنوا أيضاً أمام المترجم.

ثم أدخلهم إلى غرفة أخرى، حيث كانت دجاجة وصيصانها، وأمرهم أن يراقبوا قليلاً. فذهبت إحدى الصيصان إلى المعلف لتشرب، وفي كل مرة تشرب فيها، ترفع رأسها وعينيها نحو السماء. فقال: «انظروا ماذا يفعل هذا الكتكوت الصغير، وتعلموا منه أن تعرفوا من أين تأتي رحمته، بتلقيها وأنتم تنظرون إلى السماء. ثم قال مرة أخرى: راقبوا وانظروا».

فأنصتوا، ولاحظوا أن الدجاجة تسير نحو فراخها بأربعة أنماط. أولًا، كان لها نداءٌ عاديٌّ، تُصدره طوال اليوم. ثانيًا، كان لها نداءٌ خاصٌّ، لا تُصدره إلا نادرًا. ثالثًا، كان لها صوتٌ يُشير إلى حضانة البيض. ورابعًا، كان لها صياحٌ عالٍ.

والآن ، قارنوا هذه الدجاجة بملككم، وهذه الكتاكيت بدجاجاته المطيعة؛ فهو، كما هو مُحاسَبٌ عليها، له أساليبه التي يسلكها مع شعبه. بدعوته العامة لا يُعطي شيئًا؛ وبدعوته الخاصة، لديه دائمًا ما يُعطيه؛ وله أيضًا صوتٌ حنونٌ لمن هم تحت جناحه؛ وله صيحةٌ تُنذر بالخطر حين يرى العدو قادمًا. اخترتُ، يا عزيزاتي، أن أُدخلكنّ إلى الغرفة حيث توجد هذه الأشياء، لأنكن نساء، وهي سهلةٌ عليكنّ."

كريستيانا : "وسيداً، أرجو أن تسمح لنا برؤية المزيد".

فأدخلهم إلى المسلخ، حيث كان الجزار يذبح شاة؛ وإذا بالشاة هادئة، تقبّلت موتها بصبر. فقال المفسر: "عليكم أن تتعلموا من هذه الشاة الصبر، وأن تتحملوا الظلم دون تذمر أو شكوى. انظروا كيف تتقبل موتها بهدوء؛ ودون اعتراض، تسمح بسحب جلدها على أذنيها. ملككم يدعوكم غنمه."

بعد ذلك، اصطحبهم إلى حديقته، حيث كان هناك تنوع كبير من الزهور؛ وقال: "هل ترون كل هذه؟" فأجابت كريستيانا: "نعم". ثم قال مرة أخرى: "انظروا، الزهور متنوعة في الحجم والجودة واللون والرائحة والفضيلة، وبعضها أفضل من بعضها البعض؛ وأيضًا، حيث وضعها البستاني، تبقى هناك، ولا تتشاجر مع بعضها البعض".

ثم أدخلهم إلى حقله الذي زرعه بالقمح والذرة، ولكن لما نظروا، وجدوا رؤوس جميع المحاصيل مقطوعة، ولم يبقَ إلا التبن. فقال ثانيةً: "لقد خُصبت هذه الأرض، وحُرقت، وبُذرت، ولكن ماذا نفعل بالمحصول؟" فقالت كريستيانا: "أحرقوا بعضه، واجعلوا الباقي سمادًا." فقال المفسر ثانيةً: "الثمر، كما ترون، هو ما تبحثون عنه، ولأنكم لا تجدونه، تُلقونه في النار، ويُداس بأقدام الناس. احذروا أن تُدينوا أنفسكم في هذا."

ثم، بينما كانوا عائدين من الخارج، لمحوا طائرًا صغيرًا من فصيلة أبو الحناء يحمل عنكبوتًا كبيرًا في فمه. فقال المترجم: "انظروا إلى هنا". فنظروا، وتعجبت ميرسي؛ أما كريستيانا فقالت: "يا له من استخفاف بطائر صغير جميل كطائر أبو الحناء ذي الصدر الأحمر! فهو طائرٌ أسمى من كثيرٍ من الطيور، يُحبّ أن يكون ودودًا مع الإنسان! كنتُ أظنّ أنهم يعيشون على فتات الخبز، أو على أشياء أخرى غير ضارة. لم أعد أحبّه كما كنتُ من قبل".

فأجاب المترجم: "إن هذا الطائر رمزٌ مناسبٌ جدًا لوصف بعض الناس؛ فهم في نظرهم يشبهون هذا الطائر، جميلون في مظهرهم ولونهم وسلوكهم. ويبدو أنهم يكنّون محبةً عظيمةً لمن هم أتباعٌ مخلصون للمسيح؛ ويرغبون قبل كل شيء في مصاحبتهم والتواجد معهم، كما لو كانوا يعيشون على فتات طعام الرجل الصالح. ويدّعون أيضًا أن ترددهم على بيوت الأتقياء ومواعيد الرب هو السبب في ذلك؛ ولكن عندما يكونون بمفردهم، مثل الطائر، يستطيعون اصطياد العناكب والتهامها، ويغيرون نظامهم الغذائي، ويشربون الشر، ويبتلعون الخطيئة كما يبتلع الماء."

لذلك، عندما عادوا إلى المنزل مرة أخرى، ولأن العشاء لم يكن جاهزًا بعد، طلبت كريستيانا مرة أخرى من المترجم أن يُظهر أو يخبر عن بعض الأشياء الأخرى المفيدة.

ثم بدأ المفسر قائلاً: "كلما ازدادت الخنزيرة سمنةً، ازدادت رغبتها في الوحل؛ وكلما ازداد الثور سمنةً، ازداد اندفاعه إلى الذبح بتهور؛ وكلما ازداد الرجل صحةً وقوةً، ازداد ميله إلى الشر. هناك رغبة لدى النساء في الظهور بمظهر أنيق ومرتب؛ ومن الجميل أن يتزين المرء بما هو ذو قيمة عظيمة في نظر الله. من الأسهل السهر ليلة أو ليلتين من السهر طوال العام؛ كذلك من الأسهل على المرء أن يبدأ بالتظاهر بالصلاح من أن يستمر عليه حتى النهاية. كل ربان سفينة، عندما تهب عاصفة، سيلقي طواعيةً بما هو أقل قيمة في السفينة؛ ولكن من سيلقي بأفضل ما فيها أولاً؟ لا أحد إلا من لا يخشى الله. ثقب واحد يغرق السفينة، وخطيئة واحدة تهلك الخاطئ. من ينسى أصدقاءه فهو ناكر للجميل، أما من ينسى مخلصه فهو قاسٍ على نفسه. من يعيش في الخطيئة، ويتطلع إلى السعادة إن من يزرع الزؤان ويظن أنه سيملأ مخزنه بالقمح أو الشعير، فهو كمن يريد أن يعيش حياة طيبة. إن أراد المرء أن يعيش حياة طيبة، فليجعل يومه الأخير نصب عينيه، وليجعله رفيقه الدائم. إن الوساوس وتغيير الأفكار دليل على وجود الخطيئة في العالم. إذا كان العالم، الذي أناره الله، يُعتبر ذا قيمة عند الناس، فما قيمة الجنة التي يثني عليها الله؟ إذا كانت الحياة المليئة بالمتاعب كثيرة لدرجة أننا لا نرغب في التخلي عنها، فما قيمة

الحياة الآخرة؟ سيشيد الجميع بصلاح الناس، ولكن من ذا الذي يتأثر، كما ينبغي، بصلاح الله؟

وبعد أن انتهى المترجم، أخذهم إلى حديقته مرة أخرى، وأوصلهم إلى شجرة كان باطنها متعفناً تماماً، ومع ذلك فقد نمت وأخرجت أوراقاً.

ثم قالت ميرسي: "ماذا يعني هذا؟"

قال: "هذه الشجرة، التي يبدو ظاهرها جميلاً، وباطنها فاسد، هي التي يمكن تشبيه كثيرين ممن هم في جنة الله، الذين يتكلمون بأفواههم عالياً باسم الله، ولكنهم في الحقيقة لا يفعلون شيئاً من أجله؛ أوراقهم جميلة، ولكن قلوبهم صالحة لشيء واحد فقط لتكون وقوداً لعلب الكبريت الخاصة بالشيطان".

كان العشاء جاهزًا، والمائدة مُعدّة، وكل شيء موضوع على اللوح؛ فجلسوا، وتناولوا الطعام بعد أن شكر أحدهم. وكان المترجم يُسلّي عادةً من يقيمون عنده بالموسيقى أثناء الطعام؛ فكان المنشدون يعزفون. وكان هناك أيضًا من يُغني، وكان صوته جميلًا جدًا. وكانت أغنيته هذه:

"إن الرب هو سندي الوحيد، وهو الذي يطعمني؛ فكيف لي أن أحتاج إلى شيء وأنا في حاجة إليه؟"

حوار على العشاء

عندما انتهت الأغنية والموسيقى، سأل المترجم كريستيانا عما دفعها في البداية إلى اختيار حياة الترحال. فأجابت كريستيانا: "في البداية، تذكرت فقدان زوجي، فحزنت عليه حزنًا شديدًا؛ ولكن كل ذلك كان مجرد عاطفة طبيعية. ثم بعد ذلك، تذكرت متاعب زوجي ورحلاته، وكيف كنت قاسية معه في ذلك. فاستحوذ عليّ الشعور بالذنب، وكاد يدفعني إلى البركة لأغرق نفسي، لولا أنني رأيت في المنام في الوقت المناسب أنني بخير، وتلقيت رسالة من ملك البلد الذي يقيم فيه زوجي، تدعوني لزيارته. لقد أثر الحلم والرسالة معًا في نفسي تأثيرًا بالغًا، حتى دفعاني إلى هذا الطريق."

لكن هل واجهتك أي معارضة قبل أن تخرج من المنزل؟

نعم ، جارتي، السيدة تيموروس، كانت قريبةً له، هي التي حاولت إقناع زوجي بالعودة خوفًا من الأسود. لقد خدعتني تمامًا، كما وصفت مغامرتي اليائسة، وحثتني بكل ما أوتيت من قوة على تثبيط عزيمتي عنها، مُشيرةً إلى المشقة والمتاعب التي واجهها زوجي في الطريق. لكنني تجاوزت كل هذا بسلام. إلا أن حلمًا رأيت فيه شخصين قبيحين، ظننت أنهما يُدبّران مكيدة لإفشالي في

رحلتي، قد أزعجني كثيرًا. نعم، ما زال هذا الحلم يتردد في ذهني، ويجعلني أخشى كل من أقابله، خشية أن يُؤذيني ويُثنيني عن طريقي. نعم، أستطيع أن أخبر سيدي، وإن كنت لا أرغب أن يعلم الجميع بذلك، أنه بين هذا الحلم والبوابة التي دخلنا منها إلى الطريق، تعرضنا لهجوم شديد لدرجة أننا صرخنا "قتل!". والاثنان اللذان شنّا هذا الهجوم علينا كانا يشبهان الاثنين اللذين رأيتهما في حلمي.

ثم قال المترجم: "بدايتك حسنة، ونهايتك ستكون عظيمة". ثم توجه إلى ميرسي وقال لها: "وما الذي دفعكِ للمجيء إلى هنا يا حبيبتي؟"

ثم احمرّ وجه ميرسي وارتجفت، وظلت صامتة لبعض الوقت.

ثم قال: "لا تخف؛ آمن فقط، وقل ما في قلبك".

إن جهلي هو ما يجعلني أرغب في الصمت، وهو أيضاً ما يملأني بالخوف من التقصير في النهاية. لا أستطيع أن أتحدث عن الرؤى والأحلام كما تفعل صديقتي كريستيانا، ولا أعرف ما معنى أن أحزن على رفضي لنصيحة أقاربي الطيبين."

يا عزيزتي، إلى فعل ما فعلتِ؟

مير. عندما كانت صديقتنا هنا تُجهز أغراضها للرحيل عن بلدتنا، ذهبتُ أنا وشخص آخر لرؤيتها صدفةً. طرقنا الباب ودخلنا. ولما دخلنا، ورأينا ما تفعله، سألناها عن سبب وجودها. قالت إنها استُدعيت للذهاب إلى زوجها؛ ثم أخبرتنا كيف رأته في المنام، يسكن في مكان عجيب، بين الخالدين، يرتدي تاجًا، ويعزف على قيثارة، ويأكل ويشرب على مائدة أميره، ويُسبّحه على إحضاره إلى هناك، وما إلى ذلك. وبينما كانت تُخبرنا بهذه الأشياء، شعرتُ بغضبٍ شديدٍ في قلبي. وقلتُ في نفسي: إن كان هذا صحيحًا، فسأترك أبي وأمي، ووطني، وسأذهب مع كريستيانا إن أمكن. فسألتها أكثر عن حقيقة هذه الأمور، وإن كانت ستسمح لي بالذهاب معها؛ لأنني رأيتُ حينها أنه لم يعد هناك مسكنٌ في بلدتنا إلا مُهددٌ بالخراب. لكنني مع ذلك عدتُ بقلبٍ مثقل؛ ليس لرفضي الرحيل، بل لتركي الكثير من أقاربي. وقد أتيتُ بكل ما في قلبي من رغبة، وسأذهب، إن أمكن، مع كريستيانا إلى زوجها وملكها.

إن انطلاقكِ حسن، فقد صدقتِ الحق. أنتِ راعوث، التي تركت، من أجل حبها لناعمي وللرب إلهها، أباها وأمها وأرض مولدها، لتخرج وتذهب مع شعب لم تعرفه من قبل. بارك الرب عملكِ، وليُعطِكِ الرب إله إسرائيل أجرًا وافيًا، الذي جئتِ لتستظلي بكنفه.

انتهى العشاء، وبدأ الاستعداد للنوم: نامت النساء فرادى، والفتيان وحدهم. ولما استلقت ميرسي في فراشها، لم تستطع النوم من فرط سعادتها، فقد تبددت شكوكها بالضياع أكثر من أي وقت مضى. فاستلقت تبارك الله وتحمده على نعمته التي أنعم بها عليها.

في الصباح، استيقظوا مع شروق الشمس، واستعدوا للرحيل؛ لكن المترجم أراد منهم التريث قليلاً: "لأن عليكم المغادرة من هنا بهدوء ونظام". ثم قال للخادمة التي فتحت لهم الباب أولاً: "خذيهم إلى الحديقة، إلى الحمام، واغسليهم هناك، ونظفيهم من التراب الذي اكتسبوه من السفر".

ثم أخذتهم الخادمة إينوسنت إلى الحديقة، وأحضرتهم إلى الحمام؛ إذ أخبرتهم أن عليهم الاغتسال والتنظيف، لأن سيدها كان يُريد من النساء القيام بذلك عند زيارتهم لمنزله أثناء ذهابهم للحج. ثم دخلوا واغتسلوا، نعم، هنّ والأولاد جميعًا؛ وخرجوا من الحمام، ليس فقط نظيفين وذوي رائحة زكية، بل أيضًا أكثر نشاطًا وقوة في مفاصلهم. لذلك، عندما عادوا، بدوا أجمل بكثير مما كانوا عليه عندما خرجوا للغسيل.

عندما عادوا من الحمام خارج الحديقة، أخذهم المترجم، ونظر إليهم، وقال لهم: "جميلون كالقمر". ثم طلب الختم الذي كان يُختم به من اغتسلوا في هذا الحمام. فأُحضر الختم، ووضع علامته عليهم، لكي يُعرفوا في الأماكن التي سيذهبون إليها؛ ووضعت العلامة بين أعينهم. زاد هذا الختم من جمالهم، إذ كان زينة لوجوههم. كما زاد من مجدهم، وجعل وجوههم أشبه بوجوه الملائكة.

يرتدي ثوباً أبيض

ثم قال المترجم للخادمة التي كانت تخدم هؤلاء النساء: "اذهبي إلى غرفة الملابس، وأحضري ملابس لهؤلاء الناس". فذهبت وأحضرت ثيابًا بيضاء ووضعتها أمامه، فأمرهم بارتدائها. كانت من الكتان الناعم، بيضاء ونظيفة. ولما تزينت النساء، بدا أنهن يخشين بعضهن بعضًا، لأنهن لم يستطعن رؤية الجمال الذي تتمتع به كل واحدة منهن في نفسها، والذي كنّ يرينه في بعضهن. لذلك، بدأن يُفضلن بعضهن على أنفسهن. فقالت إحداهن: "أنتِ أجمل مني"، وقالت أخرى: "أنتِ أجمل مني". وقف الأطفال أيضًا في دهشة، ينظرون إلى هذه الزينة.

ثم استدعى المترجم خادمه، رجلاً ذا قلبٍ كبير، وأمره أن يأخذ سيفه وخوذته ودرعه، وقال: "خذ هاتين ابنتيّ، واصطحبهما إلى البيت المسمى بالجميل، حيث سترتاحان". فأخذ سلاحه، وسار

أمامهما، وقال المترجم: "مع السلامة!". وودعهم أهل العائلة بتمنياتهم الطيبة. فمضوا في طريقهم وهم يغنون.

"لقد كان هذا المكان مرحلتنا الثانية: هنا سمعنا ورأينا تلك الأشياء الجيدة التي كانت مخفية عن الآخرين عبر العصور. جامع الروث، والعنكبوت، والدجاجة، والدجاجة أيضاً، علموني درساً: دعوني إذن ألتزم به."

"الجزار، والحديقة، والحقل، وطائر أبو الحناء وطُعمه، وكذلك الشجرة المتعفنة، كلها تُعطيني حجةً قوية: لتدفعني إلى السهر والصلاة، والسعي لأكون صادقًا، وحمل صليبي يومًا بعد يوم، وخدمة الرب بخوف."

الفصل الرابع.

الصليب وعواقبه.

رأيتُ في منامي أنهم واصلوا سيرهم، وكان صاحب القلب الكبير أمامهم. فذهبوا حتى وصلوا إلى المكان الذي سقط فيه حمل كريستيان من على ظهره وسقط في القبر. وهناك توقفوا، وهناك أيضًا باركوا الله. فقالت كريستيانا: "يخطر ببالي ما قيل لنا عند البوابة، وهو أننا سننال الغفران قولًا وفعلًا: قولًا، أي بالوعد؛ وفعلًا، أي بالطريقة التي تم بها الحصول عليه. أعرف شيئًا عن الوعد، ولكن ما معنى الغفران بالفعل، أو بالطريقة التي تم بها الحصول عليه، يا صاحب القلب الكبير، أظن أنك تعرف؛ لذا، إن سمحت، دعنا نسمعك تتحدث عن ذلك."

خطابات القلب العظيم

عظيم. العفو الذي يُمنح بالعمل هو عفوٌ يناله شخصٌ لآخر محتاجٍ إليه؛ ليس من قِبَل الشخص المُعفى عنه، بل بالطريقة التي نلتُهُ بها، كما يقول آخر. إذن، للإجابة على السؤال بشكلٍ عام، فإن العفو الذي نلتموه أنتم وميرسي وهؤلاء الصبية، نلتموه من قِبَل آخر؛ أي من قِبَل الذي سمح لكم بالدخول من الباب. وقد ناله بهذه الطريقة المزدوجة: أظهر لكم عدله ليغطيكم، وسفك دمه ليطهركم.

يا مسيحي، هذا شجاعة! الآن أدرك أن هناك درسًا يُستفاد من غفراننا قولًا وفعلًا. يا رحمة الله، فلنجتهد في تذكر هذا؛ وأبنائي،

هل تتذكرونه أنتم أيضًا؟ ولكن يا سيدي، ألم يكن هذا هو ما أزاح عبء ابني المسيحي الصالح عن كاهله، وجعله يقفز ثلاث قفزات فرحًا؟

عظيم. نعم، كان الإيمان بهذا هو الذي قطع تلك الخيوط التي لم يكن من الممكن قطعها بوسائل أخرى؛ وكان ذلك لإثبات فضيلة هذا الأمر الذي سُمح له بحمل عبئه إلى الصليب.

كريستيان: ظننت ذلك؛ فمع أن قلبي كان مبتهجًا وسعيدًا من قبل، إلا أنه الآن أشد بهجة وسعادة بعشرة أضعاف. وأنا مقتنع بما شعرت به، مع أنني لم أشعر إلا بالقليل حتى الآن، أنه لو كان أكثر الناس ثقلًا في العالم هنا، ورأى وآمن كما أفعل الآن، لكان قلبه فرحًا وسعيدًا.

عظيم. ليس هناك فقط راحة وتخفيف عبء يأتي إلينا من خلال رؤية هذه الأشياء والتأمل فيها، بل هناك حب عزيز يولد فينا بسببها؛ فمن يستطيع، إذا فكر ولو لمرة واحدة أن الغفران لا يأتي فقط بالوعد، بل بهذه الطريقة، إلا ويتأثر بطريقة ووسائل فدائه، وبالتالي يحب الرجل الذي صنعه من أجله؟

كريستيان ترو: أظن أن قلبي ينزف ألمًا حين أفكر أنه سينزف من أجلي. يا أيها المحب! يا أيها المبارك! أنت تستحقني: أنت اشتريتني. أنت تستحقني كليًا: أنت دفعت ثمني أضعافًا مضاعفة. لا عجب أن هذا جعل الدموع تترقرق في عيني زوجي، وجعله يمضي قدمًا بخفة. أنا متأكدة أنه تمنى لو كنت معه؛ ولكن يا لبؤسي! تركته يأتي وحيدًا. يا رحمة الله، ليت والديك كانا هنا! بل والسيدة تيموروس أيضًا! بل أتمنى الآن من كل قلبي لو كانت السيدة وانتون هنا أيضًا. بالتأكيد، بالتأكيد، ستتأثر قلوبهم؛ ولن يستطيع خوف أحدهما، ولا عواطف الآخر الجارفة، أن يغلبهم على العودة إلى ديارهم، ويرفضوا أن يصبحوا حجاجًا صالحين.

عظيم . تتحدثون الآن بفيض من مشاعركم: هل تعتقدون أن هذا الشعور سيدوم معكم دائمًا؟ ثم إن هذه النعمة لا تُمنح للجميع، ولا لكل من رأى يسوع ينزف. كان هناك من وقفوا ورأوا الدم يسيل من قلبه إلى الأرض ، ومع ذلك كانوا بعيدين كل البعد عن الحقيقة، فبدلًا من أن يحزنوا، سخروا منه، وبدلًا من أن يصبحوا تلاميذه، قسّوا قلوبهم عليه. لذلك، يا بناتي، كل ما لديكم هو بفضل شعور خاص نابع من تأملكم فيما قلته لكم. هذا إذن بفضل نعمة خاصة.

بسيط، كسول، افتراض

والآن، رأيت في حلمي أنهم استمروا حتى وصلوا إلى المكان الذي كان فيه البسيط والكسل والغرور ينامون، عندما مر المسيحي في

رحلة حج؛ وإذا بهم معلقون بالحديد على مسافة قصيرة على الجانب الآخر.

ميرسي لمن كان دليلهم ومرشدهم: "ما هؤلاء الرجال الثلاثة؟ ولماذا شُنقوا هناك؟"

عظيم. هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا ذوي صفات سيئة للغاية: لم تكن لديهم رغبة في أن يكونوا حجاجًا، وكانوا يعرقلون كل من يستطيعون. كانوا أنفسهم كسالى وحمقى، ومن استطاعوا إقناعه، جعلوه كذلك، وعلموه أن يتوهم أنه سينجح في النهاية. كانوا نائمين عندما مر كريستيان؛ والآن، وأنت تمر، تجدهم قد شُنقوا.

لكن هل بإمكانهم إقناع أي شخص برأيهم؟

عظيم. نعم، لقد صرفوا الكثيرين عن الطريق. كان هناك شخص بطيء الخطى أقنعوه بأن يفعل مثلهم. كما نجحوا في إقناع شخص قصير الريح، وآخر عديم القلب، وثالث متلهف للشهوة، ورابع كسول، وفتاة شابة - كان اسمها بليد - بأن ينصرفوا عن الطريق ويصبحوا مثلهم. إضافة إلى ذلك، نشروا سمعة سيئة عن ربك، موهمين الآخرين بأنه سيد قاسٍ. كما نشروا سمعة سيئة عن الأرض الطيبة، قائلين إنها ليست جيدة كما يدعي البعض. وبدأوا أيضًا يتحدثون زورًا عن عباده، ويعدّون أفضلهم متطفلين مزعجين. علاوة على ذلك، كانوا يصفون خبز الله بالقشور، وراحة أبنائه بالأوهام، وجهد الحجاج بلا فائدة.

: "كلا، لو كانوا كذلك، لما ندبتهم أبدًا: إنهم لا ينالون إلا ما يستحقونه؛ وأعتقد أنه من الجيد أن تُعلق جثثهم قرب الطريق، لكي يراها الآخرون ويتعلموا منها. ولكن ألم يكن من الأفضل لو نُقشت جرائمهم على لوح من الحديد أو النحاس، وتُركت هنا حيث ارتكبوا أفعالهم المشينة، لتكون عبرة لغيرهم من الأشرار؟"

عظيم. هذا صحيح، كما قد تلاحظ، إذا ذهبت قليلاً إلى الحائط.

مير: لا، لا، فليُشنقوا، ولتتعفن أسماؤهم، ولتخلد جرائمهم في ذاكرتهم إلى الأبد. أظن أن إعدامهم قبل مجيئنا إلى هنا نعمة عظيمة، فمن يدري ماذا كانوا سيفعلون بنا نحن النساء المسكينات لولا ذلك؟

ثم حولتها إلى أغنية، قائلة:

"والآن، أيها الثلاثة، ابقوا معلقين هناك، وكونوا علامة لكل من يتآمر ضد الحق؛ وليخشَ من يأتي بعدكم هذه النهاية، إن لم يكن صديقًا للحجاج. وأنتِ يا نفسي، احذري من كل هؤلاء الرجال، فمنهم من يعارض القداسة."

وهكـذا اسـتمروا حتـى وصـلوا إلـى سـفح تـل الصـعوبة، حيث انتهـز صـديقهم العزيـز السـيد غريـت هـارت الفرصـة ليخبـرهم بمـا حـدث هنـاك عنـدما مـرّ كريستيان بنفسـه. فأخـذهم أولًا إلـى النبـع. قـال: "هـذا هـو النبـع الـذي شـرب منـه كريسـتيان قبـل صـعوده هـذا التـل، وكـان حينهـا صـافيًا وعـذبًا، أمـا الآن فقـد تلـوث بأقـدام بعـض الـذين لا يرغبـون فـي أن يـروي الحجـاج عطشـهم هنـا". عندئـذٍ قالـت ميرسـي: "ولمـاذا هـم حسـودون هكـذا يـا تـرى؟" لكـن دلـيلهم قـال: "سـيكون مـن الأفضـل لـو أُخـذ النبـع ووُضـع فـي إنـاء عـذب وطيـب، فحينهـا سيترسـب التـراب فـي القـاع، وسـيخرج المـاء صـافيًا مـن تلقـاء نفسـه". وهكـذا اضـطرت كريسـتيان ورفيقاتهـا إلـى فعـل ذلـك. أخـذن النبـع ووضـعنه فـي إنـاء فخـاري، وتركنـه حتـى ترسـب التـراب فـي القاع، ثم شربن منه.

مساران خطيران

ثـم أراهـم الطـريقين الجـانبيين عنـد سـفح التـل، حيـث تلاشـت الرسـمية والنفـاق. وقـال: "هـذان طريقـان خطيـران. هُجـر اثنـان منهمـا هنـا عنـدما مـرّ كريسـتيان؛ ورغـم أنهمـا، كمـا تـرون، مسـدودان الآن بالسلاسـل والأعمـدة وخنـدق، إلا أن هنـاك مـن يختـار المغـامرة هنـا، بدلاً من عناء صعود هذا التل."

إن طريـق المـذنبين صـعب. ومـن العجيـب أنهـم يسـتطيعون سـلوك تلـك الطرق دون أن يتعرضوا لخطر كسر أعناقهم.

عظـيم. سـيغامرون: بـل إذا صـادف أن رآهـم أحـد خـدم الملـك، ونـاداهم، وأخبـرهم أنهـم يسـلكون طريقًـا خاطئًـا، وحـذّرهم مـن الخطـر، فسـيردون عليـه بسـخرية قـائلين: "أمـا الكـلام الـذي قلتـه لنـا باسـم الملـك، فلـن نسـتمع إليك؛ بـل سـنفعل كـل مـا ينطـق بـه لسـاننا". بـل لـو دققـت النظـر، لرأيـت أن هـذه الطـرق محـذر منهـا بمـا فيـه الكفايـة، لـيس فقـط بهـذه الأعمـدة والخنـدق والسلسـلة، بـل أيضًـا بتسييجها؛ ومع ذلك سيختارون الذهاب إليها.

، لا يحبـون بـذل الجهـد، والطريـق الصـاعد غيـر مـريح لهـم. لـذلك تحقـق لهـم مـا كُتـب: "طريـق الكسـول سـياج مـن شـوك". بـل إنهـم يفضـلون السـير علـى فـخ علـى صـعود هـذا التـل، وبقيـة هـذا الطريـق إلى المدينة.

ثـم انطلقـوا، وبـدأوا يصـعدون التـل، وصـعدوا التـل. ولكـن قبـل أن يصـلوا إلـى القمـة، بـدأت كريسـتيانا تلهـث، وقالـت: "أظـن أن هـذا تـلٌّ للتـنفس: فـلا عجـب أن يختـار مـن يحبـون راحـتهم أكثـر مـن أرواحهـم طريقًـا أسـهل". ثـم قالـت ميرسـي: "يجـب أن أجلـس". وبـدأ أصـغر الأطفـال بالبكـاء أيضًـا. فقـال غريـت هـارت: "هيـا، هيـا، لا تجلسـوا

هنـا، ففـوق قليـل يوجـد عـريش الأميـر". ثـم أخـذ بيـد الصـبي الصـغير، وصعد به إلى هناك.

العريشة على التل

عنـدما وصـلوا إلـى العريشـة، كـانوا متلهفـين للجلـوس، فقـد كـانوا جميعًـا يعـانون مـن حـرارة شـديدة. فقالـت ميرسـي: "مـا أحلـى الراحـة للمتعبـين، ومـا أطيـب أميـر الحجـاج إذ هيـأ لهـم مثـل هـذه الأمـاكن للراحـة! لقـد سـمعتُ الكثيـر عـن هـذه العريشـة، لكننـي لـم أرهـا مـن قبـل. ولكـن فلنحـذر مـن النـوم هنـا؛ فقـد سـمعتُ أن ذلـك كلّـف كريسـتيان المسكين ثمنًا باهظًا."

ثـم قـال السـيد ذو القلـب الكبيـر للصـغار: "هلمـوا يـا أولادي الجميلـين، كيف حالكم؟ ما رأيكم الآن في الذهاب في رحلة حج؟"

قــال أقلهــم: "ســيدي، كــدتُ أفقــد صــوابي، لكننــي أشــكرك علــى مسـاعدتك لـي فـي وقـت حـاجتي. وأتـذكر الآن مـا قالتـه لـي أمـي، وهـو: "إن طريــق الجنــة كصـعود سـلم، وطريــق جهـنم كهبـوط تــل". لكنــي أفضل صعود سلم الحياة على هبوط التل إلى الموت."

ثم قالت ميرسي: "لكن المثل يقول: النزول من التل سهل".

لكـن جـيمس قـال (لأن هـذا كـان اسـمه): "سـيأتي اليـوم الـذي، فـي رأيــي، ســيكون فيــه النــزول إلــى أســفل التــل هــو الأصـعب علــى الإطلاق".

قال سيده: "هذا ولد جيد، لقد أعطيتها إجابة صحيحة".

ثم ابتسمت ميرسي، لكن الصبي الصغير احمر وجهه خجلاً.

كريسـتيانا : "تعـالوا، هـل تـأكلون قلـيلاً، قلـيلاً لتحليـة أفـواهكم، بينمـا تجلسـون هنـا لتريحـوا أرجلكـم؟ لأن لـدي هنـا قطعـة مـن الرمـان، وضـعها السـيد المتـرجم فـي يـدي عنـدما خرجـت مـن أبوابـه: أعطـاني أيضــاً قطعــة مــن قــرص العســل، وزجاجــة صــغيرة مــن المشــروبات الروحية."

قالت ميرسي: "اعتقدت أنه أعطاك شيئاً، لأنه استدعاك جانباً".

"نعـم، لقـد فعـل ذلـك"، قـال الآخـر؛ "لكـن يـا ميرسـي، سـيبقى الأمـر كمـا قلـتُ عنـدما عـدنا مـن المنـزل فـي البدايـة؛ سـتكونين شـريكة فـي كل الخير الذي أملكه، لأنكِ أصبحتِ رفيقتي عن طيب خاطر."

ثــم أعطــتهم الطعــام، فــأكلوا، ميرســي والأولاد. وقالــت كريســتيانا للسـيد غريـت هـارت: "سـيدي، هـل يمكنـك أن تفعـل مثلنـا وتتنـاول بعض المرطبات؟"

لكنه أجاب: "أنت ذاهب في رحلة حج، وسأعود قريباً؛ قد يكون لك خير كثير: في المنزل آكل نفس الطعام كل يوم".

وبعد أن تناولوا الطعام والشراب، وتجاذبوا أطراف الحديث قليلاً، قال لهم دليلهم: "النهار يوشك على الانتهاء؛ إذا كنتم ترون ذلك مناسباً، فلنستعد للرحيل". فنهضوا للرحيل، وتقدم الصبيان الصغار؛ لكن كريستيانا نسيت أن تأخذ زجاجة مشروبها الروحي معها، فأرسلت ابنها الصغير ليحضرها.

ثم قالت ميرسي: "أعتقد أن هذا مكان خاسر: هنا خسر كريستيان لفافة ورقته، وهنا تركت كريستيانا زجاجتها خلفها. سيدي، ما سبب ذلك؟"

فأجابهم دليلهم قائلاً: "السبب هو النوم أو النسيان: فمنهم من ينام حين ينبغي عليه السهر، ومنهم من ينسى حين ينبغي عليه التذكر. وهذا هو السبب تحديداً في أن بعض الحجاج، في كثير من الأحيان، يخسرون في بعض الأمور عند استراحتهم. ينبغي للحجاج أن يراقبوا ويتذكروا ما نالوه في أوقات نعيمهم؛ ولكن لإهمالهم ذلك، غالباً ما ينتهي فرحهم بالدموع، وتتبدد سعادتهم: شاهدوا قصة كريستيان في هذا المكان."

انعدام الثقة والخوف

عندما وصلوا إلى المكان الذي التقى فيه ميستراست وتيموروس بالمسيحي لإقناعه بالعودة خوفًا من الأسود، رأوا ما يشبه منصة، وأمامها، باتجاه الطريق، لوحة عريضة كُتبت عليها أبيات شعرية، وتحتها شرحٌ لسبب إقامة تلك المنصة في ذلك المكان. وكانت الأبيات كالتالي:

"فلينتبه من يرى هذا المسرح إلى قلبه ولسانه؛ وإلا فإنه إن لم يفعل، فإنه سيسرع هنا كما سار البعض منذ زمن بعيد."

وجاء في الكلمات التي تلي الآيات: "بُنيت هذه المنصة لمعاقبة من يخشى، بسبب الخوف أو عدم الثقة، المضي قدمًا في الحج. كما كُويت ألسنة كل من عدم الثقة والخوف بحديد ساخن على هذه المنصة، لمحاولتهما عرقلة المسيحي في رحلته."

ثم قالت ميرسي: "هذا يشبه إلى حد كبير قول الحبيب: ماذا يُعطى لك، أو ماذا يُفعل بك، أيها اللسان الكاذب؟ سهام حادة من الأقوياء، مع جمر من العرعر."

فواصلوا سيرهم حتى أصبحوا على مرأى من الأسود. وكان السيد غريت هارت رجلاً قوياً، فلم يكن يخشى الأسد. ولكن عندما وصلوا إلى المكان الذي كانت فيه الأسود، شعر الأولاد الذين كانوا في

المقدمة بالارتياح للتراجع، لأنهم كانوا يخشون الأسود، فتراجعوا إلى الوراء.

عندها ابتسم دليلهم وقال: "كيف حالكم يا أولادي! هل تحبون أن تتقدموا عندما لا يقترب أي خطر، وتحبون أن تعودوا إلى الخلف بمجرد ظهور الأسود؟"

وبينما كانوا يصعدون، استلّ السيد ذو القلب العظيم سيفه، عازماً على شقّ طريق للحجاج رغم وجود الأسود. ثم ظهر أحدهم، بدا وكأنه قد عزم على مواجهة الأسود، فقال لدليل الحجاج: "ما سبب مجيئك إلى هنا؟" وكان اسم ذلك الرجل "الرجل الكئيب" أو "الرجل الدموي" لكثرة قتله للحجاج، وكان من سلالة العمالقة.

عظيم. ثم قال دليل الحجاج: "هؤلاء النساء والأطفال ذاهبون في رحلة حج، وهذا هو الطريق الذي يجب أن يسلكوه؛ وسيسلكونه رغماً عنك وعن الأسود".

أمرٌ قاتم. ليس هذا طريقهم، ولن يسلكوه. لقد جئتُ لأقف في وجههم، ولذلك سأدعم الأسود.

قلب عظيم يتغلب على قسوة

والآن، لنكن صادقين، بسبب شراسة الأسود، والسلوك الكئيب لمن كان يدعمها، فقد ظل هذا الطريق في الآونة الأخيرة مهجوراً إلى حد كبير، وكاد أن يكون مغطى بالكامل بالعشب.

كريستيانا : "مع أن الطرق كانت خالية من قبل، ومع أن المسافرين كانوا في الماضي يسلكون دروبًا جانبية، فلا ينبغي أن يكون الأمر كذلك الآن بعد أن قمت. الآن قمت أماً في إسرائيل."

بالأسود قائلاً: "لكن ينبغي ذلك"، ولذلك أمرهم بالانصراف، لأنه لا ينبغي لهم المرور من هناك.

لكن قائدهم ذو القلب العظيم تقدم أولاً نحو غريم، وانهال عليه بسيفه بشدة، مما أجبره على التراجع.

ثم قال من حاول مساندةً للأسود: "هل ستقتلونني على أرضي؟"

عظيم. إننا نسير في طريق الملك، وفي طريقه وضعت أسودك؛ لكن هؤلاء النساء وهؤلاء الأطفال، على الرغم من ضعفهم، سيواصلون طريقهم رغم أسودك.

وبعد ذلك، وجّه إليه ضربةً قويةً أخرى، فأسقطه أرضًا. وبهذه الضربة حطّم خوذته، وفي الضربة التالية قطع ذراعه. ثم زأر العملاق زئيرًا مرعبًا، أرعب النساء، ومع ذلك فرحن لرؤيته ملقىً

علـى الأرض. الآن، كانـت الأسـود مقيـدة بالسلاسـل، فلـم يكـن بوسـعها فعل شيء.

لـذلك، عنـدما مـات العجـوز غريم، الـذي كـان ينـوي دعمهـم، قـال السـيد غريـت هـارت للحجـاج: "هيـا بنـا الآن، واتبعـوني، ولـن يصـيبكم أي مكـروه مـن الأسـود". فتـابعوا سـيرهم؛ لكـن النسـاء ارتجفـن وهـن يمـررن بجـانبهم: وبـدا الصـبية أيضًـا وكـأنهم سـيموتون؛ لكـنهم جميعًـا نجوا دون مزيد من الأذى.

الفصل الخامس

القصر جميل.

كـانوا علـى مـرأى مـن كـوخ البـواب، وسـرعان مـا وصـلوا إليـه؛ لكـنهم أسـرعوا أكثـر بعـد ذلـك، لأن السـفر إلـى هنـاك لـيلاً محفـوف بالمخـاطر. فلمـا وصـلوا إلـى البوابـة، طـرق الـدليل، فصـاح البـواب: "مـن هنـاك؟" ولكـن مـا إن أجـاب الـدليل: "أنـا هـو"، حتـى عـرف صـوته، ونـزل، فقـد كـان الـدليل قـد أتـى إلـى هنـا مـرارًا مـن قبـل كقائـد للحجـاج. ولمـا نـزل فـتح البوابـة، ولمـا رأى الـدليل واقفًـا أمامهـا مباشـرة (إذ لـم يـرَ النسـاء لأنـهن كـنّ خلفـه)، قـال لـه: "كيـف حالـك يـا سيد كـريم القلـب؟ مـا شـأنك هنا في هذا الوقت المتأخر من الليلة؟"

قـال: "لقـد أحضـرت بعـض الحجـاج إلـى هنـا، حيـث يجـب علـيهم أن يبيتـوا بـأمر مـن سـيدي. كنـت هنـا منـذ بعـض الوقـت، لـولا أن العمـلاق الـذي كـان يـدعم الأسـود قـد عارضـني؛ ولكنـي، بعـد قتـال طويـل وشـاق معه، تمكنت من القضاء عليه، وأحضرت الحجاج إلى هنا بأمان."

الميناء. ألن تدخل وتبقى حتى الصباح؟

عظيم. لا، سأعود إلى ربي الليلة.

يـا سـيدي، لا أعـرف كيـف أكـون مسـتعداً لتركـك لنـا فـي رحلتنـا: لقـد كنـت وفيـاً ومحبـاً لنـا للغايـة، وقاتلـت بشـدة مـن أجلنـا، وكنـت صـادقاً جداً في تقديم المشورة لنا، ولن أنسى أبداً فضلك علينا .

ميـر. ثـم قالـت ميرسـي: "يـا ليتنـا نحظـى بصـحبتك حتـى نهايـة رحلتنـا! كيــف لنــا نحــن النســاء المســكينات أن نصــمد فــي طريــق ملــيء بالمتاعب كهذا، دون صديق وحامٍ؟"

جـيمس ، أصـغر الأولاد: "أرجـوك يـا سـيدي، أن تقنعنـا بالـذهاب معنـا ومساعدتنا، لأننا ضعفاء للغاية، والطريق خطير للغاية".

حسنًا. أنا مُمتثلة لأمر ربي. إن شاء أن أكون دليلكم طوال الطريق، فسأخدمكم بكل سرور. لكنكم أخطأتم في البداية؛ فعندما أمرني بالذهاب معكم إلى هذا الحد، كان عليكم أن تتوسلوا إليّ لأكمل معكم، وكان سيستجيب لطلبكم. على أي حال، عليّ الآن أن أنسحب؛ وهكذا، يا كريستيانا الطيبة، وميرسي، وأبنائي الشجعان، إلى اللقاء.

ثم سأل البواب، السيد واتشفول، كريستيانا عن بلدها وعن أقاربها. فقالت: "أنا من مدينة الخراب. أنا أرملة، وقد مات زوجي: كان اسمه كريستيان، الحاج".

قال البواب: "كيف كان زوجك؟"

استقبال بهيج

"نعم،" قالت، "وهؤلاء هم أطفاله، وهذه" (مشيرة إلى ميرسي) "إحدى نساء بلدتي".

ثم قرع البواب جرس الباب، كما يفعل في مثل هذه الأوقات، فجاءت إلى الباب إحدى الخادمات، واسمها هامبل مايند؛ فقال لها البواب: "اذهبي، أخبري الداخل أن كريستيانا، زوجة كريستيان، وأطفالها قد أتوا إلى هنا في رحلة حج".

دخلت إذن، وأخبرت بالأمر. ولكن يا له من صوت فرحة عارمة ملأ المكان عندما نطقت الخادمة بتلك الكلمة!

فأسرعوا إلى البواب، لأن كريستيانا كانت واقفة عند الباب. فقال لها بعض الذين في الداخل: "ادخلي يا كريستيانا، ادخلي يا زوجة ذلك الرجل الصالح، ادخلي يا امرأة مباركة، ادخلي مع جميع من معك".

فدخلت، وتبعها أبناؤها ورفاقها. ولما دخلوا، أُدخلوا إلى غرفة واسعة، حيث أُمروا بالجلوس. فجلسوا، ودُعي رب البيت ليرى الضيوف ويرحب بهم. ثم دخلوا، ولما عرفوا من هم، سلموا على بعضهم بقبلة، وقالوا: «أهلاً بكم يا من تحملون نعمة الله، أهلاً بكم بيننا، نحن أصدقاؤكم!»

ولأن الوقت كان متأخرًا بعض الشيء، ولأن الحجاج كانوا منهكين من رحلتهم، وقد أغمي عليهم من منظر المعركة والأسود المرعبة، فقد رغبوا في الاستعداد للراحة في أسرع وقت ممكن. فقال لهم أفراد العائلة: "لا، تناولوا أولًا لقمة من اللحم"، فقد أعدوا لهم خروفًا مع صلصته المعتادة، إذ كان البواب قد سمع بقدومهم وأخبرهم بذلك في الداخل. وبعد أن تناولوا العشاء، وأنهوا صلاتهم بترنيمة، رغبوا في الذهاب للراحة.

"لكـن دعونـا،" قالـت كريسـتيانا، "إذا جـاز لنـا الاختيـار، نكـون فـي تلك الغرفة التي كانت غرفة زوجي عندما كان هنا."

فأقـاموهم هنـاك، واسـتلقوا جميعـاً فـي غرفـة. وعنـدما اسـتراحوا، دخلت كريستيانا وميرسي في حديث عن أمور مناسبة.

قط ، عندما ذهب زوجي في رحلة حج، أنني سأتبعه يوماً ما.

ميـر. وأنـتِ لـم تفكـري كثيـراً فـي الاسـتلقاء علـى سـريره، وفـي غرفتـه للراحة، كما تفعلين الآن.

وأنـا أشـعر بالراحـة، وأن أعبـد الـرب الملـك معـه؛ ومـع ذلـك فأنـا الآن أعتقد أنني سأفعل.

مير. اسمع! ألا تسمع ضجيجاً؟

نعـم ، كمـا أعتقـد، إنـه ضـجيج موسـيقي، تعبيـراً عـن الفـرح لوجودنـا هنـا.

يـا لـه مـن أمـر رائـع! موسـيقى فـي المنـزل، موسـيقى فـي القلـب، وموسيقى أيضاً في السماء، فرحاً بوجودنا هنا!

حلم ميرسي

وهكـذا تحـدثتا قلـيلاً، ثـم خلـدتا إلـى النـوم. وفـي الصـباح، عنـدما اسـتيقظتا، قالـت كريسـتيانا لمرسـي: "مـا الأمـر الـذي جعلـكِ تضـحكين في نومكِ الليلة؟ أظن أنكِ كنتِ تحلمين."

ميـر. هكـذا كنـت، وكـان حلمـاً جمـيلاً؛ لكـن هـل أنـت متأكـد مـن أننـي ضحكت؟

نعم ، لقـد ضـحكتِ مـن قلبـكِ؛ ولكـن أرجـوكِ يـا ميرسـي، أخبرينـي عـن حلمكِ.

ميـر. كنـتُ أحلـم أننـي أجلـس وحيـدًا فـي مكـانٍ منعـزل، وأنـدب قسـوة قلبـي. لـم أجلـس هنـاك طـويلًا، لكننـي ظننـتُ أن كثيـرين قـد تجمعـوا حـولي لرؤيتـي وسماع مـا أقـول. فأنصتوا إلـيّ، وواصلتُ نـدب قسـوة قلبـي. عندئـذٍ، سـخر منـي بعضـهم، ووصـفني بعضـهم بالغبـاء، ودفعنـي بعضـهم. عندئـذٍ، ظننـتُ أننـي رفعـتُ بصـري، فرأيـتُ واحـدًا قادمًـا نحـوي بأجنحـة. فجـاء إلـيّ مباشـرةً، وقـال: "يـا ميرسـي، مـا بـك؟". ولمـا سـمع شـكواي، قـال: "السـلام عليـكِ". ومسـح عينـيّ بمنديلـه، وألبسـني ثيابًـا مـن فضـة وذهـب. ووضـع سلسـلةً حـول عنقـي، وأقراطًـا فـي أذنـيّ، وتاجًـا جمـيلًا علـى رأسـي. ثـم أخـذ بيـدي، وقـال: "يـا ميرسـي، تعـالي ورائـي". فصـعد، وتبعتـه حتـى وصـلنا إلـى بوابـة ذهبيـة. ثـم طـرق البـاب، وعنـدما فُـتح، دخـل الرجـل، وتبعتـه إلـى

عرش يجلس عليه رجل، فقال لي: "مرحباً يا ابنتي!". كان المكان يبدو مشرقاً متلألئاً كالنجوم، أو بالأحرى كالشمس، فظننت أنني رأيت زوجك هناك. فاستيقظت من حلمي. ولكن هل ضحكت؟

كريستيان، اضحك! أجل، ومن حقك أن تضحك لرؤية نفسك بهذا الوضوح. ولكن اسمح لي أن أخبرك أنني أعتقد أنه كان حلمًا جميلًا؛ وكما بدأتَ تجد الجزء الأول صحيحًا، فستجد الثاني كذلك في النهاية. "يتكلم الله مرة، بل مرتين، ومع ذلك لا يدرك الإنسان ذلك؛ في الحلم، في رؤيا الليل، عندما يغشى النوم على الناس، في غفوة على الفراش." لسنا بحاجة، ونحن في الفراش، إلى أن نبقى مستيقظين لنتحدث مع الله: فهو يستطيع أن يزورنا ونحن نائمون، ويجعلنا نسمع صوته. غالبًا ما يستيقظ قلبنا ونحن نائمون؛ ويستطيع الله أن يخاطبه، إما بالكلمات، أو بالأمثال، أو بالإشارات والتشبيهات، كما لو كان المرء مستيقظًا.

مير. حسنًا، أنا سعيد بحلمي؛ لأني آمل أن أراه يتحقق قريبًا، مما يجعلني أضحك مرة أخرى.

أعتقد أن الوقت قد حان للنهوض، ومعرفة ما يجب علينا فعله.

يا سيدتي ، إن دعونا للبقاء قليلاً، فلنقبل الدعوة بكل سرور. أنا شخصياً أرغب بالبقاء هنا لفترة أطول، لأتعرف أكثر على هؤلاء الخادمات. أظن أن الحكمة والتقوى والإحسان يتمتعن بوجوه جميلة ورصينة.

سنرى ما سيفعلونه.

فلما نهضوا واستعدوا، نزلوا؛ وسأل بعضهم بعضاً عن راحتهم، وما إذا كانت مريحة أم لا.

ميرسي: "جيد جداً"، قالت ميرسي، "لقد كانت واحدة من أفضل ليالي الإقامة التي قضيتها في حياتي".

ثم قالت الحكمة والتقوى: "إذا تم إقناعك بالبقاء هنا لفترة من الوقت، فستحصل على ما يوفره المنزل".

تشاريتي: "نعم، وذلك بنية حسنة للغاية".

فوافقوا، ومكثوا هناك حوالي شهر أو أكثر، وأصبحوا مربحين جداً لبعضهم البعض.

السيد بريسك يزور ميرسي

بعد أن مكث هؤلاء الحجاج في هذا المكان أسبوعًا، زار ميرسي رجلٌ تظاهر بحسن النية تجاهها، وكان اسمه السيد بريسك، رجلٌ

مـن عائلـة مرموقـة، يـدّعي التـدين، ولكنـه فـي الحقيقـة كـان شـديد التعلـق بالـدنيا. فجـاء إلـى ميرسـي مـرة أو مـرتين، أو ربمـا أكثـر، وعـرض عليهـا حبـه. وكانـت ميرسـي جميلـة الوجـه، ممـا زادهـا جاذبية.

كانـت منشـغلة دائمـاً بالعمـل؛ فـإذا لـم يكـن لـديها مـا تفعلـه لنفسـها، كانـت تصـنع الجـوارب والملابـس للآخـرين، وتوزعهـا علـى المحتـاجين. أمـا السـيد بريسـك، الـذي لـم يكـن يعلـم أيـن أو كيـف تتصـرف بمـا تصـنعه، فقـد بـدا مندهشـاً للغايـة، لأنـه لـم يجـدها عاطلـة عن العمل أبداً. قال لنفسه: "أضمن لكم أنها ربة منزل جيدة".

ثـم أخبـرت ميرسـي خادمـات المنـزل بـالأمر، وسـألتهنّ عنـه، لأنهـنّ كـنّ يعرفنـه أكثـر منهـا. فأخبرنهـا أنـه شـابٌ مشـغولٌ للغايـة، ويـدّعي خدمة الرب، ولكنه، كما كنّ يخشين، غريبٌ عن قوة الخير.

"لا، إذن،" قالـت ميرسـي، "لـن أنظـر إليـه بعـد الآن؛ لأنـي أنـوي ألا يكون هناك ما يعيق روحي."

ثـم أجابـت بـرودنس قائلـة: "لـم تكـن هنـاك حاجـة إلـى إعطائـه أمـراً كبيـراً مـن التثبيط؛ فاستمرارها على مـا بـدأت تفعلـه للفقـراء مـن شـأنه أن يضعف شجاعته بسرعة".

لـذا، فـي المـرة التاليـة التـي جـاء فيهـا، وجـدها فـي عملهـا القـديم، تصنع أشياء للفقراء. فقال: "ماذا! دائماً تفعل ذلك؟"

"نعم،" قالت، "سواء لنفسي أو للآخرين."

"وماذا يمكنك أن تكسب في اليوم؟" قال.

قالـت: "أفعـل هـذه الأشـياء لأكـون غنيـة بالأعمـال الصـالحة، وأدخـر لنفسي أساساً متيناً للمستقبل، حتى أتمسك بالحياة الأبدية".

قال: "ماذا تفعل بهم يا رجل؟"

قالت: "كسوا العراة".

عنـدها، تغيـرت ملامحـه. فـامتنع عـن معـاودة الحـديث معهـا. وعنـدما سُـئل عـن السـبب، قـال: "كانـت ميرسـي فتـاة جميلـة، لكنهـا كانـت مثقلة بالعمل لدى الآخرين".

الرحمة ترفض الخاطب

عنـدما غادرهـا، قالـت بـرودنس: "ألـم أقـل لـكِ إن السـيد بريسـك سيتخلى عنـكِ قريبـاً؟ نعم، سيثير ضجة سيئة عنـكِ؛ لأنـه علـى الـرغم مـن تظـاهره بخدمـة الشـر وحبـه الظـاهري لمرسـي، إلا أن طباعـه

وطباع مرسي مختلفة تماماً، لدرجة أنني أعتقد أنهما لن يجتمعا أبداً."

ربما كان لي أزواج من قبل، مع أنني لم أتحدث عن ذلك لأحد؛ لكنهم كانوا ممن لم يعجبهم أسلوبي، مع أن أياً منهم لم ينتقدني شخصياً. لذلك لم نكن نتفق .

برود. الرحمة في أيامنا هذه لا تُحدد إلا قليلاً، ليس أكثر من اسمها: الممارسة التي حددتها أعمالك، لا يستطيع الالتزام بها إلا القليل.

ميرسي: "حسنًا، إن لم يقبلني أحد، فسأموت عذراء، أو ستكون أعمالي لي بمثابة زوج؛ لأنني لا أستطيع تغيير طبيعتي؛ ولن أقبل أبدًا برجلٍ يعاديني في هذا الأمر ما حييت. كانت لي أختٌ تُدعى باونتيفول، تزوجت من أحد هؤلاء الأنانيين؛ لكنهما لم يتفقا أبدًا؛ ولأن أختي كانت مصممة على مواصلة ما بدأته، أي إظهار اللطف للفقراء، فقد وبخها زوجها أولًا أمام الناس، ثم طردها من بيته."

متزمت. ومع ذلك، أضمن لك أنه كان عضواً في الكنيسة؟

مير. نعم، كان مثله؛ والعالم الآن مليء بأمثاله؛ لكنني لست من أنصار أي منهم على الإطلاق.

مرض ماثيو

أما متى، الابن الأكبر لكريستينا، فقد مرض، وكان مرضه شديداً عليه لأنه كان يعاني من ألم شديد في أحشائه؛ حتى أنه كان يشعر أحياناً وكأن طرفيه مشدودان معاً.

كان يسكن بالقرب من هناك السيد سكيل، وهو طبيب قديم ذو سمعة طيبة. فطلبت كريستيانا منه ذلك، فأرسلوا في طلبه، فجاء. ولما دخل الغرفة، ونظر إلى الصبي قليلاً، استنتج أنه مريض بالمرض. ثم سأل أمه: "ما هو الطعام الذي كان يتناوله ماثيو مؤخراً؟"

قالت كريستيانا: "النظام الغذائي! لا شيء سوى ما هو صحي."

أجاب الطبيب: "هذا الصبي يعبث بشيء ما في معدته لم يُهضم، ولن يزول إلا بالوسائل. وأقول لكم إنه يجب تطهيره، وإلا سيموت."

صموئيل : "يا أمي، ما الذي جمعه أخي وأكله حالما خرجنا من البوابة التي في بداية هذا الطريق؟ أنتِ تعلمين أنه كان هناك بستان على اليسار، على الجانب الآخر من السور، وكانت بعض

الأشـجار تتـدلى فـوق السـور، فقـام أخـي بسـحب الأغصـان وأكـل منها."

كريسـتيانا : "صـحيح يـا بنـي، لقـد أخـذ منـه وأكـل؛ علـى الـرغم مـن كونه ولداً شقياً، فقد وبخته، ومع ذلك كان يأكل منه".

مهـارة. كنـت أعلـم أنـه أكـل شيئًا غيـر صـحي؛ وهـذا الطعـام، أي تلـك الفاكهـة، هـو أشـدّها ضـررًا. إنهـا ثمـرة بسـتان بعلزبـول. أتعجـب حقًـا أن أحدًا لم يحذرك منها: فقد مات الكثيرون بسببها.

كريسـتيانا بالبكـاء، وقالـت: "يـا ولـدي المشـاغب! ويـا أمـي المهملـة! ماذا أفعل من أجل ابني؟"

المهـارة. هيـا، لا تحـزن كثيـراً؛ قـد يتحسـن الصـبي مـرة أخـرى، لكـن عليه أن يتقيأ.

يا سيدي، أرجو أن تبذل قصارى جهدك معه، مهما كلف الأمر.

المهارة. كلا، آمل أن أكون معقولاً.

الطبيب الماهر يصف

فأعـدّ لـه مُليّنـاً، لكنـه كـان ضـعيفاً للغايـة؛ وقيـل إنـه مصـنوع مـن دم مـاعز، ورمـاد بقـرة، وقليـل مـن عصـير الزوفـا، ومـا إلـى ذلـك. ولمـا رأى السـيد سـكيل أن ذلـك المُلـيّن ضـعيف، أعـدّ لـه مُليّنـاً خاصـاً. وقـد صُـنع [كُتـب الاسـم باللاتينيـة] *مـن لحـم المسـيح ودمـه* ؛ [8] (كمـا تعلمـون، يُعطـي الأطبـاء أدويـة غريبـة لمرضـاهم) ـ وصُـنع علـى شـكل أقـراص، مـع وعـد أو وعـدين، وكميـة مُتناسـبة مـن الملـح. وكـان عليـه أن يتنـاولهـا ثلاثـاً فـي المـرة الواحـدة، صـائماً، مـع نصـف ربـع لتـر مـن دموع الحزن.

عنـدما تـم تحضـير هـذا المشـروب وإحضـاره إلـى الصـبي، كـان يكـره تنـاولـه، علـى الـرغم مـن أنـه كـان يعـاني مـن آلام شـديدة كمـا لـو كـان يجب أن يُقطع إلى أشلاء.

قال الطبيب: "تعال، تعال، يجب أن تأخذه".

قال الصبي: "إنه يثير اشمئزازي".

قالت والدته: "يجب أن تأخذه".

قال الصبي: "سأتقيأها مرة أخرى".

قالـت كريسـتيانا للسـيد سـكيل: "مـن فضـلك يـا سـيدي، كيـف كـان طعمه؟"

"ليس له طعم سيء"، قالت الطبيبة؛ ثم لمست إحدى الحبوب بطرف لسانها.

قالت: "يا متى، هذا الشراب أحلى من العسل. إن كنت تحب أمك، وإن كنت تحب إخوتك، وإن كنت تحب الرحمة، وإن كنت تحب حياتك، فتناوله."

وبعد دعاء قصير طلباً لبركة الله، تناوله بعد تردد، فكان له أثر طيب عليه. فقد ساعده على التطهير، وجعله ينام ويرتاح بهدوء، وأشعره بحرارة لطيفة وتعرق غزير، وشفى تماماً من آلامه. وبعد قليل، نهض، وسار متكئاً على عصا، وكان ينتقل من غرفة إلى أخرى، ويتحدث مع الحكمة والتقوى والإحسان عن مرضه وكيف شُفي.

لذلك، عندما شُفي الصبي، سألت كريستيانا السيد سكيل قائلة: "سيدي، ما الذي سيرضيك عن جهودك وعنايتك بطفلي؟"

وقال: "يجب عليك أن تدفع لرئيس كلية الأطباء، وفقًا للقواعد الموضوعة في تلك القضية والمنصوص عليها".

: "لكن يا سيدي، ما فائدة هذه الحبة غير ذلك؟"

المهارة. إنها دواء شامل: فهي مفيدة ضد جميع الأمراض التي يعاني منها الحجاج؛ وعندما يتم تحضيرها جيدًا، فإنها ستجعل الوقت الجيد بعيدًا عن الذهن.

يا سيدي، أرجو منك أن تحضر لي اثنتي عشرة علبة منها؛ لأنه إذا استطعت الحصول على هذه، فلن أتناول أي دواء آخر.

مهارة. هذه الحبوب مفيدة للوقاية من الأمراض، وكذلك لعلاج المرضى. نعم، أجرؤ على القول، وأؤكد ذلك، أنه إذا استخدم المرء هذا الدواء كما ينبغي، فسيخلد عمره. ولكن يا كريستيانا الطيبة، يجب ألا تعطي هذه الحبوب إلا بالطريقة التي وصفتها لكِ؛ وإلا فلن تُجدي نفعًا. فأعطى كريستيانا الدواء لها ولأولادها، ولمرسي؛ وأمر ماثيو أن ينتبه إلى كيفية تناوله المزيد من البرقوق الأخضر؛ ثم قبّلهم ومضى في طريقه.

لقد قيل لكم من قبل أن برودنس طلبت من الأولاد، إذا رغبوا في أي وقت، أن يسألوها بعض الأسئلة التي قد تكون مفيدة، وستقول لهم شيئًا ما.

مات. ثم سألها ماثيو، الذي كان مريضاً، "لماذا يكون الدواء مراً في معظم الأحيان بالنسبة لأذواقنا؟"

بـــرود. لإظهـــار مـــدى عـــدم الترحيـــب بكلمـــة الله، وآثارهـــا، فـــي قلـــب خاطئ.

مـــات. لمـــاذا يقـــوم علـــم الـــنفس، إذا كـــان لـــه تـــأثير إيجـــابي، بـــالتطهير والتسبب في التقيؤ؟

بـرود. لإظهـار أن الكلمـة، عنـدما تعمـل بفعاليـة، تطهـر القلـب والعقـل. فانظروا، ما يفعله أحدهما بالجسد، يفعله الآخر بالروح.

مـات. مـا الـذي يجب أن نتعلمـه مـن خـلال رؤيـة لهيب نارنـا يصـعد إلـى الأعلـى، ومـن خـلال رؤيـة أشـعة الشـمس وتأثيراتهـا اللطيفـة تضـرب إلى الأسفل؟

بـرود. مـن خـلال صـعود النـار، نـتعلم كيـف نرتقـي إلـى السـماء برغبـات حـــارة وجارفـــة. ومـــن خـــلال إرســـال الشـــمس حرارتهـــا وأشـــعتها وتأثيراتهـا العذبـة إلـى الأسـفل، نـتعلم أن مُخلـص العـالم، علـى الـرغم من علوه، ينزل إلينا بنعمته ومحبته.

مات: من أين أتت مياه الغيوم؟

برود. من البحر.

مات. ماذا يمكننا أن نتعلم من ذلك؟

برود . أن يستقي القساوسة تعاليمهم من الله.

متى: لماذا يُفرغون أنفسهم على الأرض؟

بـرود. لإظهـار أن علـى رجـال الـدين أن ينشـروا مـا يعرفونـه عـن الله للعالم.

مات: لماذا يتسبب ضوء الشمس في ظهور قوس قزح؟

برود. لإظهار أن وعد نعمة الله مضمون لنا في المسيح.

مات: لماذا تأتي الينابيع من البحر إلينا عبر الأرض؟

برود. لإظهار أن نعمة الله تأتي إلينا من خلال جسد المسيح.

مات. لماذا تنبثق بعض الينابيع من قمم التلال العالية؟

بـرود. لإظهـار أن روح النعمـة سـتنبت فـي بعـض العظمـاء والأقويـاء، وكذلك في كثير من الفقراء والضعفاء.

متى: لماذا تلتصق النار بفتيل الشمعة؟

بـرود. لإظهـار أنـه مـا لـم تشـعل النعمـة القلـب، فلـن يكـون هنـاك نـور حقيقي للحياة فينا.

مات: لماذا يتم استهلاك الفتيل والشحم وكل شيء للحفاظ على ضوء الشمعة؟

برود. لإظهار أن الجسد والروح وكل شيء يجب أن يكون في خدمة نعمة الله التي فينا، وأن يبذلوا أنفسهم للحفاظ عليها في حالة جيدة.

متى: لماذا تثقب البجعة صدرها بمنقارها؟

برود. لتغذية صغارها بدمها، وبذلك تظهر أن المسيح المبارك يحب صغاره (شعبه) لدرجة أنه ينقذهم من الموت بدمه.

مات. ماذا يمكن للمرء أن يتعلم من سماع صياح الديك؟

يا برود، تعلّم أن تتذكر خطيئة بطرس وحزنه. وصياح الديك يُشير أيضًا إلى اقتراب ذلك اليوم: فليُذكّرك صياح الديك بذلك اليوم الأخير الرهيب للدينونة.

وفي ذلك الوقت تقريبًا، انقضى شهرهم، فأخبروا أهل البيت أن الوقت قد حان لينهضوا ويرحلوا. فقال يوسف لأمه: "من الأفضل ألا تنسي أن ترسلي إلى بيت السيد المترجم، لتطلبي منه أن يأذن بإرسال السيد كبير القلب إلينا، ليكون دليلنا في بقية الطريق".

قالت: "أحسنت يا بني، كدت أنسى". فكتبت عريضة، وطلبت من السيد الحارس اليقظ أن يرسلها مع رجل مناسب إلى صديقها المخلص السيد المترجم، الذي عندما وصلت العريضة، ورأى محتواها، قال للرسول: "اذهب، أخبرهم أنني سأرسله".

لما رأت العائلة التي كانت كريستيانا عندها أن لديهم غرضًا من المضي قدمًا، جمعوا أهل البيت جميعًا ليشكروا ملكهم على إرسالهم ضيوفًا نافعين كهؤلاء. وبعد ذلك، قالوا لكريستيانا: "ألا نريكِ شيئًا، كما هي عادتنا مع الحجاج، لتتأملي فيه وأنتِ في الطريق؟"

غرائب وجهة نظر الحجاج

فأخذوا كريستيانا وأطفالها وميرسي إلى الخزانة، وأروهم واحدة من التفاحات التي أكلت منها حواء، والتي أعطتها أيضاً لزوجها، والتي بسبب أكلها طُردا كلاهما من الجنة، وسألوها ما رأيها في ذلك.

ثم قالت كريستيانا: "إنه طعام أم سم، لا أعرف أيهما".

ففتحوا لها الأمر، فرفعت يديها وتساءلت.

ثم أخذوها إلى مكانٍ ما، وأروها سُلّم يعقوب. وفي ذلك الوقت، كان بعض الملائكة يصعدون عليه. فنظرت كريستيانا مرارًا وتكرارًا، لتشاهد الملائكة تصعد، وكذلك فعل بقية الحاضرين. ثم همّوا بالذهاب إلى مكانٍ آخر، ليُروهم شيئًا آخر؛ لكن يعقوب قال لأمه: "أرجو أن تطلبي منهم البقاء هنا قليلًا، فهذا منظرٌ عجيب". فعادوا أدراجهم، ووقفوا يُمتعون أعينهم بهذا المنظر البهيج.

بعد ذلك، أدخلوهما إلى مكانٍ علّقوا فيه مرساةً ذهبية. فأمروا كريستيانا أن تُنزلها، قائلين: "لأنها ستكون معكِ، إذ لا بدّ لكِ من ذلك، لتتمسكي بها داخل الحجاب، وتثبتي في حال واجهتِ عواصفَ هوجاء". ففرحوا بذلك.

ثم أخذوهم، وأوصلوهم إلى الجبل الذي قدّم عليه إبراهيم أبونا ابنه إسحاق، وأروهم المذبح والحطب والنار والسكين؛ إذ لا تزال هذه الأشياء موجودة إلى يومنا هذا. فلما رأوها، رفعوا أيديهم، وباركوا أنفسهم، وقالوا: «يا له من رجلٍ كان إبراهيم محباً لسيده، ومُضحّياً بنفسه!»

بعد أن أروهم كل هذه الأشياء، أخذتهم برودنس إلى غرفة الطعام، حيث كان يقف زوج من آلات الفيرجينال الممتازة؛ فعزفت عليهما، وحولت ما أرتهم إياه إلى هذه الأغنية الممتازة، قائلة:

"لقد أريناك تفاحة حواء، فاعلم ذلك؛ ورأيت سلم يعقوب الذي عليه الملائكة. وقد أخذت مرساة، ولكن لا تكتفِ بذلك، حتى تقدم مع إبراهيم أفضل ما لديك من أضحية."

يقودهم غريت هارت

وفي ذلك الوقت تقريبًا، طرق أحدهم الباب. ففتح البواب، وإذا بالسيد غريت هارت هناك؛ ولكن ما أسعدهم حين دخل! فقد تذكروا من جديد كيف أنه قبل قليل قتل العملاق غريم بلودي مان العجوز، وأنقذهم من الأسود.

ثم قال السيد غريت هارت لكريستيانا وميرسي: "لقد أرسل سيدي لكل واحدة منكن زجاجة نبيذ، وبعض الحبوب المحمصة، بالإضافة إلى حبتين من الرمان؛ كما أرسل للأولاد بعض التين والزبيب، لكي تنعشوا أنفسكم في طريقكم".

ثم انطلقوا في رحلتهم، ورافقتهم الحكمة والتقوى. ولما وصلوا إلى البوابة، سألت كريستيانا البواب إن كان أحد قد مرّ من هنا مؤخراً.

قال: "لا، بل واحد فقط منذ فترة، أخبرني أيضاً أنه في الآونة الأخيرة وقعت سرقة كبيرة على الطريق السريع الملكي حيث

تسير. لكنه يقول إن اللصوص قد تم القبض عليهم، وسيُحاكمون قريباً على حياتهم."

ثم شعرت كريستيانا وميرسي بالخوف؛ لكن ماثيو قال: "يا أمي، لا تخافي شيئاً ما دام السيد غريت هارت سيذهب معنا، وسيكون قائدنا".

ثم قالت كريستيانا للبواب: "سيدي، أنا ممتنة لك جزيل الشكر على كل اللطف الذي أظهرته لي منذ قدومي إلى هنا، وعلى لطفك وحنانك مع أطفالي. لا أعرف كيف أكافئك على كرمك؛ لذا، أرجو منك، كعربون احترامي لك، أن تقبل هذه الهدية البسيطة."

فأعطته ملاكًا من ذهب ، فسجد لها ساجدًا عميقًا، وقال: «لتكن ثيابكِ بيضاء دائمًا، ولا يخلو رأسكِ من أي دهن. لتكن الرحمة حية لا تموت، ولا تقل أعمالها». وقال للصبيين: «ابتعدوا عن شهوات الشباب، واتبعوا التقوى مع ذوي الجلالة والحكمة، فتُدخلون السرور على قلب أمكم، وتنالون مديح جميع ذوي العقول الراجحة».

فشكروا البواب وانصرفوا.

رأيتُ في حلمي أنهم تقدموا حتى وصلوا إلى قمة التل، حيث صرخت بيتي وهي تفكر: "آه! لقد نسيتُ ما كنتُ أنوي إعطاءه لكريستيانا ورفيقاتها، سأعود وأحضره". فركضت وأحضرته . وبينما كانت غائبة، ظنت كريستيانا أنها سمعت، في بستانٍ قريبٍ على اليمين، نغمةً عذبةً غريبةً، بكلماتٍ كهذه:

"طوال حياتي، أظهرت لي نعمتك بكل وضوح، حتى أنني سأقيم في بيتك إلى الأبد."

وبينما كانت لا تزال تستمع، ظنت أنها سمعت إجابة أخرى تقول:

"لماذا؟ لأن الرب إلهنا صالح، ورحمته أبدية، وحقه ثابت في كل حين، وسيدوم من جيل إلى جيل."

فسألت كريستيانا برودنس عن مصدر تلك النغمات الغريبة. فأجابت: "إنها طيور بلادنا، فهي لا تُغرّد إلا نادرًا، إلا في الربيع حين تتفتح الأزهار وتُشرق الشمس دافئة، فحينها يُمكن سماعها طوال اليوم. كثيرًا ما أخرج لأستمع إليها، وكثيرًا ما نُبقيها أليفة في منزلنا. إنها تُؤنسنا كثيرًا حين نشعر بالحزن، كما أنها تجعل الغابات والبساتين والأماكن المنعزلة أماكن مرغوبة."

في ذلك الوقت، عادت بيتي مرة أخرى. فقالت لكريستينا: "انظري هنا: لقد أحضرت لكِ مخططًا لكل تلك الأشياء التي رأيتها في

منزلنـــا، يمكنـــكِ الرجـــوع إليـــه عنـــدما تجـــدين نفســـكِ منســـية، واستحضار تلك الأشياء مرة أخرى لتعليمكِ وراحتكِ".

الفصل السادس

وادي الإذلال.

ثـم بـدأوا بـالنزول مـن التـل إلـى وادي الـذل. كـان التـل شـديد الانحـدار، والطريـق زلقًـا؛ لكـنهم كـانوا حـذرين للغايـة، فنزلـوا بسـلام. عنـدما وصـلوا إلـى الـوادي، قالـت بيتـي لكريسـتيانا: "هـذا هـو المكـان الـذي التقـى فيـه كريسـتيان، زوجـك، بالشـيطان أبوليـون، حيـث دارت بينهمـا تلـك المعركـة الرهيبـة. أعلـم أنـكِ لا بـد أنـكِ سـمعتِ عنهـا. لكـن كـوني متفائلـة: مـا دام السـيد كبيـر القلـب هنـا ليكـون دليلـكِ ومرشـدكِ، نأمل أن يكون حالكِ أفضل."

فلما سلم هذان الرجلان الحجاج إلى مرشدهما، تقدم هو، وتبعوه.

عظـيم. ثـم قـال السـيد ذو القلـب الكبيـر: "لا داعـي للخـوف مـن هـذا الـوادي، فلـيس فيـه مـا يؤذينـا إلا إذا تسـببنا نحـن بـذلك. صـحيح أن كريسـتيان التقـى هنـا بـأبوليون، وخـاض معـه معركـة ضـارية؛ لكـن تلـك المعركـة كانـت نتيجـة انزلاقاتـه أثنـاء نزولـه مـن التـل؛ فمـن ينزلـق هنـاك، لا بـد أن يجـد معـارك هنـا. ومـن هنـا اكتسـب هـذا الـوادي اسـمه القاسـي. فالنـاس العـاديون، عنـدما يسـمعون أن مكروهًـا قـد أصـاب شخصًـا مـا فـي مكـان مـا، يظنـون أن ذلـك المكـان مسكون بشـيطان أو روح شـريرة؛ مـع أن الأمـر، للأسـف، إنمـا هـو نتيجـة أفعـالهم التـي تصيبهم هنـاك. وادي الـذل هـذا بحـد ذاتـه مكـان خصـب كـأي مكـان آخـر يمـر فوقـه غـراب؛ وأنـا علـى يقـين، لـو اسـتطعنا الوصـول إليـه، لوجـدنا فـي مكـان مـا هنـا مـا يفسـر سـبب معانـاة كريسـتيان الشـديدة فـي هـذا المكان."

ثـم قـال يعقـوب لأمـه: «هـا هـو ذا عمـود، ويبـدو أن شـيئًا مـا مكتـوب عليـه، فلنـذهب ونـرى مـا هـو». فـذهبا، فوجـدا مكتوبًـا عليـه: «لـتكن زلات كريسـتيان قبـل مجيئـه إلـى هنـا، والمعـارك التـي خاضـها فـي هـذا المكان، عبرة لمن يأتي بعده».

قـال دلـيلهم: "هـا قـد أخبـرتكم أن هنـاك شـيئًا هنـا يُشـير إلـى سـبب معانـاة كريسـتيان الشـديدة فـي هـذا المكـان؟" ثـم التفـت إلـى كريسـتيانا وقـال: "لا عـار علـى كريسـتيان، أكثـر مـن كثيـرين غيـره ممـن عـانوا مثلـه؛ فالصـعود إلـى هـذا التـل أسـهل مـن النـزول منـه، وهـذا ينطبـق علـى قليـل مـن الـتلال فـي هـذه الأنحـاء. لكننـا سـنترك الرجـل الصـالح: فهـو الآن فـي راحـة، وقـد حقـق نصـرًا بـاهرًا علـى عـدوه. فليُوفقنـا الله، الذي يسكن في السماء، ألا يكون مصيرنـا أسوأ منه حين نُبتلى."

لكننا سنعود إلى وادي التواضع هذا. إنه أفضل وأخصب أرض في هذه الأنحاء. أرض خصبة، وكما ترون، تكثر فيها المروج؛ ولو أتى رجل إلى هنا في الصيف، كما نفعل الآن، ولم يكن يعرف شيئًا من قبل، وأعجبته المناظر، لرأى أنها أرضٌ تُبهجه. انظروا كم هو أخضر هذا الوادي، وكم هو مُزَيَّن بالزنابق! لقد عرفتُ أيضًا العديد من العمال الذين امتلكوا مزارع جيدة في وادي التواضع هذا؛ لأن «الله يقاوم المتكبرين، أما المتواضعين فيُعطيهم نعمة». حقًا، إنها أرض خصبة جدًا، تُخرج ثمارًا وفيرة. وقد تمنى البعض لو كان الطريق التالي إلى بيت أبيهم هنا، حتى لا يُضطروا بعد الآن إلى عبور التلال والجبال؛ ولكن الطريق هو الطريق، وله نهاية.

وبينما كانوا يسيرون ويتحدثون، لمحوا صبيًا يرعى أغنام أبيه. كان الصبي يرتدي ملابس رثة، لكن وجهه كان نضرًا وجميلًا؛ وبينما كان جالسًا بمفرده كان يغني. قال السيد غريت هارت: "اسمعوا ما يقوله صبي الراعي". فأنصتوا، فقال:

"من هو في الحضيض لا يخشى السقوط، ومن هو متواضع فلا يكبر، ومن هو متواضع فليكن الله دليله."

"أنا راضٍ بما لدي، سواء كان قليلاً أو كثيراً: يا رب، ما زلت أتوق إلى الرضا لأنك تدخر الكثير."

"إنّ ملء هذا العبء هو ما يدفع الناس إلى الحج؛ فالقليل هنا، والنعيم في الآخرة، هو الأفضل جيلاً بعد جيل."

ثم قال دليلهم: "هل تسمعونه؟ أجرؤ على القول إن هذا الفتى يعيش حياةً أكثر بهجة، ويحمل في صدره من عشبة راحة القلب أكثر مما يحمله ذلك الفتى المتشح بالحرير والمخمل. لكننا سنواصل سردنا لهذا الوادي."

في هذا الوادي كان لسيدنا بيته الريفي، وكان يحب التواجد فيه كثيرًا. كما كان يحب التجول في هذه المروج، إذ وجد الهواء منعشًا. فضلًا عن ذلك، هنا ينعم المرء بالهدوء والسكينة بعيدًا عن ضجيج الحياة وصخبها. فجميع الدول مليئة بالضجيج والفوضى، إلا أن وادي التواضع هو ذلك المكان الخالي والمنعزل. هنا لا يُقيد المرء في أفكاره كما هو الحال في أماكن أخرى. إنه وادٍ لا يسلكه إلا من يعشق حياة الترحال. ورغم أن كريستيان قد واجه محنةً كبيرةً بلقاء أبوليون هنا، ودخوله معه في مواجهة حادة، إلا أنني أقول لكم إن الناس في سالف الزمان التقوا هنا بالملائكة، ووجدوا هنا اللآلئ، ووجدوا في هذا المكان كلمات الحياة.

"هل قلتُ إن سيدنا المسيح كان له هنا في الأيام الخوالي بيته الريفي، وأنه كان يحب أن يمشي هنا؟ سأضيف، في هذا المكان،

وللناس الذين يحبون السير على هذه الأرض، أنه ترك مبلغًا سنويًا من المال، يُدفع لهم بأمانة في مواسم معينة، لدعمهم في الطريق، ولتشجيعهم على مواصلة رحلتهم."

سام. وبينما كانوا يواصلون سيرهم، قال صموئيل للسيد غريت هارت: "سيدي، أرى أن والدي وأبوليون قد خاضا معركتهما في هذا الوادي؛ ولكن أين دارت المعركة؟ لأنني أرى أن هذا الوادي واسع."

أخضر النسيان

عظيم. خاض والدك تلك المعركة مع أبوليون في مكانٍ ما هناك أمامنا، في ممرٍ ضيقٍ خلف "الخضرة المنسية". والحقيقة أن ذلك المكان هو أخطر مكانٍ في هذه الأنحاء. فإذا ما واجه الحجاج أيّ أذى، فذلك عندما ينسون النعم التي أنعم الله بها عليهم، ومدى عدم استحقاقهم لها. وهذا هو المكان الذي عانى فيه آخرون معاناةً شديدة. ولكن سنتحدث عن هذا المكان بتفصيلٍ أكبر عندما نصل إليه؛ فأنا على يقينٍ من أنه لا يزال حتى اليوم أثرٌ ما للمعركة، أو نصبٌ تذكاريٌّ يشهد على وقوعها هناك.

ميرسي : "أظن أنني في هذا الوادي كما كنت في أي مكان آخر طوال رحلتنا: المكان، في رأيي، يُناسب روحي. أحب أن أكون في مثل هذه الأماكن، حيث لا ضجيج للعربات ولا هدير للعجلات. أظن أن المرء هنا يستطيع، دون عناء كبير، أن يفكر في ماهيته، ومن أين أتى، وماذا فعل، وإلى ماذا دعاه الملك. هنا يستطيع المرء أن يفكر وينفطر قلبه، ويذوب روحه، حتى تصبح عيناه كبرك السمك في حشبون. من يسلكون وادي البكاء هذا باستقامة، يجعلونه بئرًا؛ والمطر الذي يُنزله الله من السماء على من هم هنا يملأ البرك أيضًا. هذا الوادي هو الذي منه سيعطي الملك لأتباعه كرومهم؛ والذين يسلكونه سيغنون، كما فعل كريستيان، لكل ما التقاه بأبوليون."

عظيم. قال دليلهم: "هذا صحيح، لقد مررت بهذا الوادي مرات عديدة، ولم أكن أفضل حالاً مما كنت عليه هنا. كما أنني كنت مرشداً للعديد من الحجاج، وقد أقروا بالأمر نفسه. يقول الملك: "إلى هذا الرجل سأنظر، إلى الفقير الخاشع، الذي يرتعد من كلامي".

والآن وصلوا إلى المكان الذي دارت فيه المعركة المذكورة آنفاً. ثم قال الدليل لكريستيانا وأطفالها وميرسي: "هذا هو المكان؛ على هذه الأرض وقف كريستيان، وصعد أبوليون لمواجهته. وانظروا - ألم أخبركم؟ - ها هو بعض دم زوجكم على هذه الأحجار حتى يومنا

هـذا. وانظـروا أيضًـا كيـف لا تـزال آثـار سـهام أبوليـون المكسـورة ظـاهرة هنـا وهنـاك. وانظـروا كيـف كـانوا يضـربون الأرض بأقـدامهم أثنـاء القتـال، ليثبتـوا مـواقعهم فـي مواجهـة بعضـهم الـبعض؛ وكيـف شـقوا الأحجـار بضـرباتهم. حقًـا، لقـد أظهـر كريسـتيان هنـا شـجاعته وبسـالته، وكأنـه هرقـل نفسـه. ولمـا هُـزم أبوليـون، تراجـع إلـى الـوادي المجـاور، المسـمى وادي ظـل المـوت، والـذي سنصـل إليـه قريبًـا. وهـا هـو ذا نصـب تـذكاري هنـاك، نُقشـت عليـه هـذه المعركـة وانتصـار كريستيان، ليخلد اسمه عبر العصور."

وادي ظل الموت

ولأنهـا كانـت تقـف علـى جانـب الطريـق أمـامهم مباشـرة، تقـدموا نحوها وقرأوا الكتابة، التي كانت حرفياً كالتالي:

"وقـد دارت هنـا معركـة غريبـة للغايـة، ومـع ذلـك فهـي حقيقيـة للغايـة؛ سعى كريستيان وأبوليون إلى إخضاع بعضهما البعض."

"لقـد لعـب الرجـل دور الرجـل بشـجاعة فائقـة، حتـى أنـه جعـل الشـيطان يهرب؛ وأنا أقف على هذا النصب التذكاري لأشهد عليه."

بعـد أن مـروا بهـذا المكـان، وصـلوا إلـى حـدود وادي المـوت. كـان هـذا الـوادي أطـول مـن الآخـر؛ مكـانٌ مسـكونٌ بالشـر بشـكلٍ غريـب، كمـا يشـهد بـذلك الكثيـرون؛ لكـن هـؤلاء النسـاء والأطفـال اجتـازوه بسـهولة أكبر، لوجود ضوء النهار، ولأن السيد ذو القلب الكبير كان دليلهم.

عنـدما دخلـوا هـذا الـوادي، ظنـوا أنهـم يسـمعون أنينًـا كـأنين مـوتى، أنينًـا عظيمًـا. وظنـوا أيضًـا أنهـم يسـمعون كلمـات أنـين كـأنين أنـين مـن يتـألمون أشـد الألـم. ارتجـف الصـبية مـن هـول مـا سـمعوا، وبـدت النساء شاحباتٍ واهنات، لكن دليلهم طمأنهم قائلًا: "اطمئنوا".

فتـابعوا سـيرهم قلـيلاً، وظنـوا أن الأرض بـدأت تهتـز تحـت أقـدامهم، كمـا لـو كـان هنـاك تجويـفٌ مـا؛ وسـمعوا أيضـاً نوعـاً مـن الفحـيح، كحفيـف الأفـاعي؛ لكـن لـم يظهـر شـيءٌ بعـد. فقـال الصـبيان: "ألـم نصـل بعـد إلـى نهايـة هـذا المكـان الكئيـب؟" لكـن الـدليل حـثّهم علـى التحلـي بالشـجاعة، والانتبـاه جيـداً لأقـدامهم؛ "لـئلا"، قـال، "تقعـوا فـي فـخٍ ما".

ثـم بـدأ جـيمس يشـعر بـالمرض، ولكنـي أعتقـد أن سـبب ذلـك كـان الخـوف؛ فأعطتـه أمـه بعضًـا مـن كـأس المشـروب الروحـي الـذي أُعطـي لهـا فـي منـزل المتـرجم، وثـلاث حبـات مـن الحبـوب التـي أعـدها السـيد سـكيل؛ وبـدأ الصـبي يتعـافى. وهكـذا اسـتمروا حتـى وصـلوا إلـى منتصـف الـوادي تقريبًـا؛ ثـم قالـت كريسـتيانا: "أظـن أننـي أرى شـيئًا مـا هنـاك علـى الطريـق أمامنـا، شـيئًا لـم أرَ مثلـه مـن قبـل". فقـال

يوسف: "أمي، ما هذا؟" قالت: "شيء قبيح يا بني، شيء قبيح". قال: "ولكن يا أمي، كيف يبدو؟" قالت: "لا أستطيع أن أصفه، وهو الآن على بُعد مسافة قصيرة". ثم قالت: "إنه قريب!"

قاوم الشيطان

قال السيد ذو القلب الكبير: "حسنًا، حسنًا، فليَبقَ من يخافون أكثر قربًا مني". فتقدم الشيطان، واستقبله قائد الحافلة؛ ولكن ما إن وصل إليه حتى اختفى عن أنظارهم جميعًا. فتذكروا حينها ما قيل منذ قليل: "قاوموا الشيطان فيهرب منكم".

فتابعوا سيرهم بعد أن استعادوا نشاطهم قليلاً. ولكن ما إن قطعوا شوطاً طويلاً حتى رأت ميرسي، وهي تنظر خلفها، ما يشبه الأسد في نظرها، وقد أتى إليهم بخطى ثقيلة وواثقة. وكان له صوت هدير أجوف، وكلما هدر كان يتردد صداه في الوادي كله، وتخفق قلوبهم جميعاً، إلا قلب مرشدهم . فاقترب الأسد، فتراجع السيد غريت هارت خلفه، وجعل الحجاج جميعاً أمامه. ثم تقدم الأسد بخطى سريعة، فاستعد السيد غريت هارت لمواجهته. ولكن لما رأى أن المقاومة قد اتُخذت، تراجع هو الآخر، ولم يتقدم أكثر.

ثم مضوا قُدُمًا، وكان دليلهم يتقدمهم، حتى وصلوا إلى مكانٍ حُفرت فيه حفرةٌ بعرض الطريق؛ وقبل أن يستعدوا لعبورها، خيّم عليهم ضبابٌ كثيفٌ وظلامٌ دامسٌ، فلم يروا شيئًا. فقال الحجاج: "يا للأسف! ماذا نفعل الآن؟" فأجابهم دليلهم: "لا تخافوا، اثبتوا، وانظروا كيف سينتهي هذا أيضًا." فثبتوا هناك، لأن طريقهم كان وعرًا. وظنوا حينها أنهم يسمعون بوضوحٍ أكبر ضجيج الأعداء واندفاعهم؛ كما أصبح من الأسهل تمييز النار ودخان الحفرة. ثم قالت كريستيانا لمرسي: "الآن فهمتُ ما عاناه زوجي المسكين. لقد سمعتُ الكثير عن هذا المكان، لكنني لم أزره من قبل. يا له من مسكين! لقد ذهب إلى هنا وحيدًا في الليل، وكاد الليل أن يخيم على طريقه، وكانت تلك الشياطين تحيط به وكأنها ستمزقه إربًا. لقد تحدث الكثيرون عنه، لكن لا أحد يستطيع أن يفهم معنى وادي ظل الموت حتى يمر به بنفسه. "القلب يعرف مرارته، والغريب لا يتدخل في فرحه". إن التواجد هنا أمرٌ مرعب."

عظيم. هذا أشبه بممارسة التجارة في مياه سحيقة، أو كالغوص في الأعماق. إنه كالتواجد في قلب البحر، أو كالنزول إلى قيعان الجبال. الآن يبدو وكأن الأرض، بقضبانها، تحيط بنا إلى الأبد. لكن ليثق الذين يسيرون في الظلام ولا نور لهم باسم الرب، وليتمسكوا بإلههم. أما أنا، كما أخبرتكم سابقًا، فقد مررت بهذا الوادي مرات عديدة، وعانيت فيه أشد مما أعانيه الآن؛ ومع ذلك، كما ترون، ما زلت حيًا. لا أريد أن أتباهى، لأني لست منقذي، لكني أثق أننا

سننال خلاصًا حسنًا. هيا بنا نصلي من أجل النور، لمن يستطيع أن ينير ظلامنا، ولمن يستطيع أن يوبخ ليس هؤلاء فحسب، بل جميع الشياطين في الجحيم.

فبكوا وصلّوا، فأرسل الله نورًا وفرجًا، إذ لم يعد هناك عائق في طريقهم، لا، لم يكن هناك سوى حفرة تعترض طريقهم. ومع ذلك، لم يتمكنوا من عبور الوادي، فواصلوا سيرهم، وإذا بروائح كريهة ومنفرة تُزعجهم بشدة. فقالت ميرسي لكريستيانا: "ليس من المريح أن نكون هنا كما كنا عند البوابة، أو عند المترجم، أو في البيت الذي سكنّا فيه آخر مرة."

"لكن،" قال أحد الصبية، "ليس من السيئ المرور من هنا كما هو الحال في البقاء هنا دائماً؛ وعلى حد علمي، فإن أحد الأسباب التي تجعلنا نسلك هذا الطريق إلى المنزل المُعدّ لنا هو أن يصبح منزلنا أحلى بالنسبة لنا."

قال الدليل: "أحسنت يا صموئيل، لقد تكلمت الآن كرجل".

قال الصبي: "إذا عدت إلى هنا مرة أخرى، أعتقد أنني سأقدر النور والطريق الجيد أكثر من أي وقت مضى في حياتي".

ثم قال المرشد: "سنخرج بعد قليل".

فتابعوا سيرهم، فقال يوسف: "ألا نستطيع أن نرى نهاية هذا الوادي بعد؟"

بين الفخاخ

ثم قال الدليل: "انظروا إلى أقدامكم، لأننا سنكون قريباً بين الفخاخ".

فنظروا إلى أقدامهم، ومضوا في طريقهم؛ لكنهم واجهوا صعوبة بالغة بسبب الفخاخ. ولما وصلوا إلى الفخاخ، رأوا رجلاً ملقى في الخندق على اليسار، وقد تمزق لحمه.

ثم قال الدليل: "هذا رجلٌ غافل، كان يسير في هذا الطريق، وقد مكث هناك مدة طويلة. كان معه رجلٌ حذرٌ حين أُسر وقُتل، لكنه نجا. لا تتخيل كم يُقتل هنا، ومع ذلك يُقدم الناس على هذه المغامرة الطائشة دون دليل. يا له من مسيحي مسكين! إنه لأمرٌ عجيبٌ أنه نجا، لكنه كان محبوبًا من الله، وكان طيب القلب، وإلا لما استطاع فعل ذلك."

لقاءات القلب العظيم مول

ثم اقتربوا من نهاية الطريق، وفي المكان الذي رأى فيه كريستيان الكهف حين مرّ، خرج منه ماول، وهو عملاق. كان ماول هذا يخدع الحجاج الصغار ويخدعهم، فنادى على كبير القلوب باسمه وقال له: "كم مرة مُنعت من فعل هذه الأشياء؟"

ثم قال السيد ذو القلب الكبير: "ما هي الأشياء؟"

قال العملاق: "يا لها من أشياء! أنت تعرف ما هي الأشياء؛ لكنني سأضع حداً لتجارتك."

"لكن صلّوا،" قال السيد غريت هارت، "قبل أن نستسلم لذلك، دعونا نفهم لماذا يجب علينا القتال."

وقفت النساء والأطفال يرتجفون، ولم يعرفوا ماذا يفعلون.

قال العملاق: "إنكم تسرقون البلاد، وتسرقونها بأبشع أنواع السرقة".

قال السيد غريت هارت: "هذه مجرد كلمات عشوائية؛ أخبرني عن عمليات السطو التي قمت بها يا رجل."

ثم قال العملاق: "أنت تمارس حرفة الخاطف: أنت تجمع النساء والأطفال، وتحملهم إلى بلد غريب، مما يؤدي إلى إضعاف مملكة سيدي".

لكنّ صاحب القلب الكبير أجاب: "أنا خادم إله السماء، ومهمتي هي إقناع الخطاة بالعودة إلى الله. لقد أُمرتُ ببذل قصارى جهدي لهداية الرجال والنساء والأطفال من الظلمة إلى النور، ومن سلطان الشيطان إلى الله؛ وإذا كان هذا هو سبب خلافك، فلنبدأ به حالما تشاء."

قُتل العملاق

ثم صعد العملاق، فتقدم السيد ذو القلب الكبير لملاقاته؛ وبينما هو يتقدم، استلّ سيفه، لكن العملاق كان يحمل هراوة. فتبادلا الضربات دون تردد؛ ومن الضربة الأولى، أسقط العملاق السيد ذو القلب الكبير على ركبته. عندئذٍ، صرخت النساء والأطفال. فاستعاد السيد ذو القلب الكبير رباطة جأشه، وانقضّ على العملاق بكل قوته، وأصابه بجرح في ذراعه. وهكذا قاتل لمدة ساعة كاملة، حتى بلغ القتال من شدة الحرارة حدًّا جعل أنفاس العملاق تخرج من أنفه كما يخرج اللهب من مرجل يغلي.

ثم جلسوا ليستريحوا، أما السيد ذو القلب الكبير فقد انصرف للصلاة. ولم تفعل النساء والأطفال شيئًا سوى التنهد والبكاء طوال مدة المعركة.

بعد أن استراحا واستعادا أنفاسهما، عادا إلى القتال؛ فضرب السيد ذو القلب العظيم العملاق ضربةً أسقطته أرضًا. قال العملاق: "كفى، دعني أستعيد أنفاسي". فتركه السيد ذو القلب العظيم ينهض، ثم عادا إلى القتال؛ وكاد العملاق أن يكسر جمجمة السيد ذو القلب العظيم بعصاه.

لما رأى السيد ذو القلب الكبير ذلك، اندفع نحوه بكل قوته، وطعنه تحت الضلع الخامس. عندئذٍ بدأ العملاق يترنح، ولم يعد قادرًا على رفع هراوته. عندها ضاعف السيد ذو القلب الكبير ضربته، وفصل رأس العملاق عن جسده. فرحت النساء والأطفال، وحمد السيد ذو القلب الكبير الله على النجاة التي أنعم بها عليهم.

وبعد ذلك، أقاموا من بينهم عموداً، وعلقوا عليه رأس العملاق، وكتبوا تحته حروفاً ليقرأها المسافرون:

"الذي كان يرتدي هذا الرأس، كان ممن أساء الحجاج معاملتهم؛ كان يوقف طريقهم، ولم يرحم أحداً، بل أساء إليهم جميعاً؛ حتى قمت أنا، صاحب القلب العظيم، لأكون دليل الحجاج؛ حتى عارضته، كان عدوهم."

رأيتُهم يتجهون نحو المرتفعات القريبة، التي بُنيت لتكون مزارًا للحجاج. من هناك رأت كريستيانا أخاها المخلص لأول مرة. فجلسوا هناك واستراحوا، وأكلوا وشربوا وفرحوا لنجاتهم من هذا العدو الخطير. وبينما كانوا يأكلون، سألت كريستيانا المرشد إن كان قد أصيب في المعركة. فأجاب السيد ذو القلب الكبير: "لا، إلا بعض الجروح الطفيفة في جسدي، ولكنها لن تضرني، بل هي دليل على حبي لسيدي ولكِ، وستكون وسيلة، بفضل الله، لزيادة أجري في النهاية."

الكريم عندما رأيته يخرج ومعه عصاه؟

عظيم. قال: "من واجبي أن أشك في قدراتي، حتى أثق في من هو أقوى من كل شيء".

لكن ماذا كان شعورك عندما أسقطك أرضاً عند الضربة الأولى؟

عظيم. فأجاب: "كنت أظن أن سيدي نفسه قد خُدِّم بهذه الطريقة؛ ومع ذلك فقد كان هو المنتصر في النهاية".

متى. بعد أن تفكروا فيما شئتم، أعتقد أن الله قد أنعم علينا بنعمٍ عظيمة، سواءً بإخراجنا من هذا الوادي، أو بإنقاذنا من يد هذا العدو. أما أنا، فلا أرى سببًا يدعونا إلى الشك في الله بعد الآن، فقد منحنا الآن، وفي هذا المكان بالذات، برهانًا قاطعًا على محبته.

قديم صادق

ثم نهضوا ومضوا قدماً. وإذا بشجرة بلوط تقف أمامهم قليلاً، وعندما وصلوا إليها وجدوا تحتها حاجاً عجوزاً نائماً نوماً عميقاً. عرفوا أنه حاج من ثيابه وعصاه وحزامه.

فأيقظه المرشد، السيد غريت هارت؛ فصرخ الرجل العجوز وهو يرفع عينيه: "ما الأمر؟ من أنت، وما شأنك هنا؟"

رائع. هيا يا رجل، لا تكن غاضباً جداً؛ ليس هنا إلا الأصدقاء.

لكن الرجل العجوز نهض ووقف على حراسته، وسيعرف حقيقتهم. ثم قال الدليل: "اسمي القلب العظيم، وأنا دليل هؤلاء الحجاج المتجهين إلى بلاد السماء".

: "أرجوكم الرحمة: كنت أخشى أن تكونوا من رفقة أولئك الذين سرقوا أموال ليتل فيث منذ بعض الوقت؛ ولكن الآن بعد أن نظرت حولي بشكل أفضل، أدركت أنكم أناس أكثر أمانة."

عظيم. لماذا، وماذا كنت ستفعل أو تستطيع أن تفعل لمساعدة نفسك، لو كنا بالفعل من تلك الشركة؟

معالي السيد دون! كنت سأقاتل ما دامت فيّ نفس؛ ولو فعلت ذلك، فأنا متأكد من أنك لن تستطيع أن تعطيني أسوأ ما يمكن، لأن المسيحي لا يمكن أن يُهزم إلا إذا استسلم من تلقاء نفسه.

عظيم. قال المرشد: "أحسنت يا أبانا الصادق، فبهذا أعرف أنك ديك من النوع الصحيح، لأنك قلت الحقيقة".

يا حضرة السيد. وبهذا أيضاً أعلم أنك تعرف ما هي الحج الحقيقي؛ لأن جميع الآخرين يعتقدون أننا الأسرع تغلباً من بين الجميع.

يتحدث مع الصادق

رائع. حسنًا، الآن وقد التقينا بسعادة بالغة، اسمح لي أن أعرف اسمك، واسم المكان الذي أتيت منه.

يا حضرة السيد، لا أستطيع ذكر اسمي؛ لكنني أتيت من بلدة الغباء؛ تقع على بعد أربع درجات تقريبًا من مدينة الدمار.

رائع. أوه! هل أنت ذلك الرجل الريفي؟ إذن أعتقد أنني خمنتُك: اسمك هو الصدق العجوز، أليس كذلك؟

يا حضرة السيد، احمرّ وجه الرجل العجوز خجلاً، وقال: "ليس اسمي أمانة، بل اسمي صادق؛ وأتمنى أن تتوافق طبيعتي مع ما

يُطلق عليّ. ولكن يا سيدي،" قال الرجل العجوز، "كيف لك أن تخمن أنني رجلٌ كهذا، وقد أتيت من مكانٍ كهذا؟"

عظيم. لقد سمعتُ عنكم من قبل من سيدي، فهو يعلم كل ما يجري على الأرض. ولكنني لطالما تعجبتُ من قدوم أحدٍ من بلدكم، فبلدتكم أسوأ من مدينة الخراب نفسها.

، نحن نبتعد عن الشمس، ولذلك نشعر ببرودة وجمود أكبر. ولكن لو كان المرء في جبل من الجليد، فإذا أشرقت عليه شمس الحق، شعر قلبه المتجمد بالدفء؛ وهكذا كان حالي.

عظيم. أصدق ذلك يا أبانا الصادق، أصدق ذلك؛ لأني أعلم أن الأمر صحيح.

ثم قام الرجل العجوز بتحية جميع الحجاج بقبلة محبة مقدسة، وسألهم عن أسمائهم، وكيف حالهم منذ أن انطلقوا في رحلة الحج.

كريستيانا : "أظن أنكم سمعتم باسمي: كان زوجي مسيحياً صالحاً، وهؤلاء هم أبناؤه".

لكن هل يمكنك أن تتخيل ردة فعل الرجل العجوز عندما أخبرته من هي؟ قفز فرحاً، وابتسم، وتمنى لهما ألف أمنية طيبة، قائلاً:

يا سيدتي، لقد سمعتُ الكثير عن زوجكِ، وعن أسفاره وحروبه التي خاضها في أيامه. ولتطمئني، فإن اسم زوجكِ يتردد صداه في أرجاء هذه الأرض: إيمانه وشجاعته وصبره وإخلاصه في كل الظروف، جعلت اسمه مشهورًا. ثم التفت إلى الصبيان، وسألهم عن أسمائهم، فأخبروه بها. فقال لهم: "يا متى، كن مثل متى العشار، لا في الرذيلة بل في الفضيلة. يا صموئيل،" قال، "كن مثل صموئيل النبي، رجل الإيمان والصلاة. يا يوسف،" قال، "كن مثل يوسف في بيت فوطيفار، طاهرًا، وهاربًا من التجربة. يا يعقوب، كن مثل يعقوب البار، ومثل يعقوب أخا ربنا." ثم أخبروه عن ميرسي، وكيف تركت بلدتها وعشيرتها لتأتي مع كريستيانا وأبنائها. عندها قال الرجل العجوز الأمين: "هل اسمك الرحمة؟ بالرحمة ستُساند وتُحمل عبر كل تلك الصعوبات التي ستواجهك في طريقك، حتى تصل إلى هناك حيث ستنظر إلى ينبوع الرحمة في وجهه براحة".

طوال هذا الوقت، كان المرشد، السيد غريت هارت، مسروراً للغاية وابتسم لرفيقه.

يناقشون السيد فيرينغ

وبينما كانوا يسيرون معاً، سأل المرشد الرجل العجوز عما إذا كان لا يعرف السيد فيرينغ، الذي جاء في رحلة حج من منطقته.

السيد: "نعم، جيد جداً. لقد كان رجلاً يمتلك جوهر المسألة؛ لكنه كان من أكثر الحجاج إزعاجاً الذين قابلتهم طوال حياتي."

ممتاز. أظن أنك كنت تعرفه، لأنك وصفته وصفاً دقيقاً جداً.

السيد المحترم، لقد عرفته! كنت رفيقاً عظيماً له؛ كنت معه في أغلب الأحيان: عندما بدأ يفكر فيما سيحدث لنا في المستقبل، كنت معه.

عظيم. كنت دليله من منزل سيدي إلى أبواب المدينة السماوية.

معالي السيد/السيدة. إذن كنت تعرفه بأنه شخص مثير للمشاكل؟

عظيم. فعلت ذلك؛ ولكن كان بإمكاني تحمل ذلك تمامًا، لأن الرجال من مهنتي غالبًا ما يُعهد إليهم بإدارة أمور مثله.

معالي الوزير، حسناً، فلنستمع إذن إلى بعض ما قاله، وكيف تصرف في ظل قيادتكم.

عظيم. لماذا، كان دائمًا يخشى ألا يصل إلى وجهته المنشودة. كل ما يسمعه من الناس، مهما بدا فيه من معارضة، كان يُرعبه. سمعتُ أنه ظلّ يزأر عند مستنقع اليأس لأكثر من شهر، ولم يجرؤ، رغم رؤيته الكثيرين يعبرون قبله، على المجازفة، حتى وإن عرض عليه الكثيرون مساعدته. ولم يكن ليعود أدراجه. قال إنه سيموت إن لم يصل إلى المدينة السماوية، ومع ذلك كان يُصاب بالإحباط عند كل صعوبة، ويتعثر في كل عقبة تُلقى في طريقه. حسنًا، بعد أن مكث عند مستنقع اليأس مدة طويلة، كما أخبرتكم، في صباح مشمس، لا أدري كيف، تجرأ وعبر، ولكن عندما عبر، كاد لا يُصدق ذلك. أظن أنه كان يعاني من كآبة شديدة، كآبة تلازمه أينما ذهب، وإلا لما كان على ما هو عليه. فصعد إلى البوابة (أنت تعرف ما أعنيه) التي تقف عند بداية هذا الطريق، وبقي واقفًا هناك مدة طويلة قبل أن يجرؤ على الطرق. وعندما فُتحت البوابة، كان يتراجع، ويُفسح المجال للآخرين، ويقول إنه لا يستحق. فمع أنه سبق البعض إلى البوابة، إلا أن كثيرين دخلوا قبله. هناك كان المسكين يقف يرتجف وينكمش: أظن أن رؤيته كانت تُثير الشفقة. ولم يكن يعود أدراجه. أخيرًا، أخذ المطرقة المعلقة على البوابة، وطرق عليها طرقة خفيفة أو اثنتين؛ ففتح له أحدهم، لكنه انكمش كما كان. فخرج الذي فتح البوابة خلفه، وقال: "أيها المرتجف، ماذا تريد؟" ثم سقط على الأرض. تعجب من كلمه لرؤيته منهكًا هكذا، فقال له: «السلام عليك، قم فقد فتحت لك الباب، ادخل فأنت

مبـارك». فقـام ودخـل مرتجفًـا، ولمـا دخـل اسـتحى مـن إظهـار وجهـه. وبعـد أن اسـتُقبل هنـاك قلـيلًا، كمـا تعلمـون، أُمـر بالانصـراف، وأُخبـر بـالطريق الـذي عليـه أن يسـلكه. فظـل حتـى وصـل إلـى منزلنـا، ولكـن كمـا أحسـن التصـرف عنـد البوابـة، كـذلك فعـل عنـد بـاب سـيدي المتـرجم. مكـث هنـاك فـي البـرد مـدة طويلـة قبـل أن يجـرؤ علـى الاتصـال، ومـع ذلـك لـم يـرد العـودة، وكانـت الليـالي طويلـة وبـاردة آنـذاك. بـل كـان فـي قلبـه حاجـة ملحـة لسـيدي أن يسـتقبله ويمنحـه راحـة منزلـه، وأن يـوفر لـه مرشـدًا قويًـا وشـجاعًا، لأنـه كـان جبانًـا. ومـع ذلـك، كـان يخشـى طـرق البـاب. فظـلّ يتقلـب جيئـة وذهابًـا حتـى كـاد يمـوت جوعًـا، نعـم، كـان خوفـه شـديدًا، فـرغم أنـه رأى آخـرين يطرقـون البـاب ويـدخلون، إلا أنـه ظـلّ يخشـى المجازفـة. أخيـرًا، أظـن أننـي نظـرت مـن النافـذة، فـرأيت رجـلًا يتـردد علـى البـاب، فخرجـت إليـه وسـألته عـن أمـره، لكـن الـدموع كانـت تمـلأ عينيـه، ففهمـت مـا يريـده. فـدخلت وأخبرتـه فـي البيـت، وعرضـنا الأمـر علـى سـيدنا، فأرسـلني ثانيـةً لأتوسـل إليـه أن يـدخل، ولكننـي أظـن أننـي بـذلت جهـدًا كبيـرًا فـي ذلـك. أخيـرًا دخـل، وأقـول إنـي حملـت الأمـر إلـى سـيدي بكـل حـبٍّ وعطـف. لـم يكـن علـى المائـدة سـوى القليـل مـن الطعـام الجيـد، ولكـن وُضـع بعضـه فـي طبقـه. ثـم قـدّم الرسـالة، فنظـر إليهـا سـيدي وقـال إن طلبـه سـيُلبّى. وبعـد أن مكـث هنـاك فتـرةً لا بـأس بهـا، بـدا عليـه بعـض الطمأنينــة والراحــة. فسـيدي، كمــا تعلمــون، رجــلٌ رقيــق القلــب، لا سـيما مـع الخـائفين؛ ولـذلك حـرص علـى أن يكـون عطـاؤه لـه فـي سـبيل تشـجيعه. ولمـا رأى مـا فـي المكـان، واسـتعد للرحيـل إلـى المدينـة، أعطـاه سـيدي، كمـا فعـل مـع كريسـتيان مـن قبـل، زجاجـة مشـروب وبعـض الطعـام الشـهي. وهكـذا انطلقنـا، وتقـدمتُ أمامـه؛ لكـن الرجل كان قليل الكلام، لا ينطق إلا بالتنهد.

ذكريات غريت هارت

عنـدما وصـلنا إلـى المكـان الـذي شُـنق فيـه الرجـال الثلاثـة، قـال إنـه يشـك فـي أن تكـون تلـك نهايتـه أيضًـا. بـدا سـعيدًا فقـط عنـدما رأى الصـليب والقبـر. هنـاك، أعتـرف، رغـب فـي البقـاء قلـيلًا ليتأمـل؛ وبـدا، لفتـرة وجيـزة بعـد ذلـك، مبتهجًـا بعـض الشـيء. عنـدما وصـلنا إلـى تلـة الصـعوبة، لـم يُبـدِ أي اعتـراض، ولـم يخـشَ الأسـود كثيـرًا، لأنـك تعلـم أن مشـكلته لـم تكـن تتعلـق بمثـل هـذه الأمـور؛ بـل كـان خوفـه مـن مصيره المحتوم.

أظـن أننـي أدخلتـه إلـى "البيـت الجميـل" قبـل أن يرغـب بـذلك. وعنـدما دخـل، عرّفتـه علـى فتيـات المكـان، لكنـه كـان يخجـل مـن الظهـور بمظهـرٍ لائـقٍ أمـام الآخـرين. كـان يتـوق إلـى العزلـة، ومـع ذلـك كـان يعشـق الحـديث الجيـد، وكثيـراً مـا كـان يختبـئ خلـف السـتار ليسـتمع إليـه. كمـا كـان يحـب رؤيـة الأشـياء القديمـة والتأمـل فيهـا. أخبرنـي

لاحقاً أنه كان يحب التواجد في البيتين اللذين أتى منهما أخيراً، وهما بيت البوابة وبيت المترجم، لكنه لم يجرؤ على طلب ذلك.

عندما نزلنا من البيت الجميل إلى وادي الذل، نزل هو أيضاً بأفضل حال رأيته في حياتي: لأنه لم يكترث لدناءته، بل كان يأمل أن ينعم بالسعادة في النهاية. أجل، أعتقد أن ثمة نوعاً من التعاطف بينه وبين ذلك الوادي؛ فلم أره قط في أفضل حال في رحلته كلها كما كان في ذلك الوادي.

هنا كان يستلقي، ويحتضن الأرض، ويقبّل الزهور التي تنمو في هذا الوادي. وكان يستيقظ كل صباح مع بزوغ الفجر، يتجول جيئة وذهاباً في هذا الوادي.

لكن عندما وصل إلى مدخل وادي ظل الموت، ظننت أنني سأفقد رجلي: ليس لأنه كان يميل للعودة - فقد كان يكره ذلك دائمًا - بل لأنه كان مستعدًا للموت خوفًا. صرخ قائلًا: "يا للهول! سيأخذني الهوبغوبلين! سيأخذني الهوبغوبلين!"، ولم أستطع إسكاته. لقد أحدث ضجيجًا وصراخًا عاليًا، لدرجة أنه لو سمعوه لكفى لتشجيعهم على المجيء والانقضاض علينا.

لكنّني لاحظتُ هذا الأمرَ بشدّة، فقد كان هذا الوادي هادئًا أثناء مرورنا به كما لم أره من قبل أو بعد. أظنّ أنّ هؤلاء الأعداء هنا قد تلقّوا الآن تحذيرًا خاصًا من ربّنا، وأمرًا بعدم التدخّل حتى يعبر السيد فيرينغ.

الخوف في فانيتي فير

سيكون من الممل جدًا أن أروي لكم كل شيء، لذا سأكتفي بذكر فقرة أو فقرتين إضافيتين. عندما وصل إلى سوق الغرور، ظننتُ أنه سيتشاجر مع جميع الرجال هناك. خشيتُ أن نتلقى ضربة على رؤوسنا، فقد كان غاضبًا جدًا من حماقاتهم. كان أيضًا شديد اليقظة في أرض السحر. ولكن عندما وصل إلى النهر حيث لا يوجد جسر، وجد نفسه في موقف صعب. قال: "الآن، الآن، سأغرق إلى الأبد، ولن أرى ذلك الوجه الذي قطع كل هذه الأميال لرؤيته أبدًا براحة".

وهنا لاحظتُ أمراً لافتاً للنظر: كان منسوب مياه النهر في ذلك الوقت أدنى مما رأيته في حياتي كلها، فعبر النهر أخيراً، بالكاد يصل الماء إلى حذائه المبلل. ولما كان يصعد إلى البوابة، هممتُ بمودعته، متمنياً له استقبالاً حسناً في السماء. فقال: "سأفعل، سأفعل". ثم افترقنا، ولم أره بعد ذلك.

سعادة النائب، يبدو أنه قد تعافى أخيراً؟

عظـيم. أجـل، أجـل؛ لـم يسـاورني الشـك فيـه قـط. كـان رجـلاً ذا روح فاضـلة؛ إلا أنـه كـان دائمًـا متواضعًا، ممـا جعل حياتـه عبئًـا ثقـيلاً عليـه ومصـدر إزعـاج للآخـرين. كـان، أكثـر مـن كثيـرين، شـديد الحـذر مـن المعاصـي: كـان يخشـى إلحـاق الأذى بـالآخرين، حتـى أنـه كـان يحـرم نفسه غالبًا مما هو حلال خشية أن يرتكب إثمًا.

معـالي السـيد المحتـرم، ولكـن مـا هـو السـبب الـذي يجعـل رجـلاً صـالحاً كهذا يعيش كل أيامه في ظلام دامس؟

عظـيم. هنـاك سـببان لـذلك. أولهمـا، أن الله الحكـيم شـاء ذلـك؛ فمـنهم مـن يعـزف، ومـنهم مـن يبكـي. وكـان السـيد فيرينـغ ممـن يعزفـون علـى آلـة البـاص. هـو ورفاقـه يعزفـون علـى آلـة السـاكبات، التـي تتميـز نغماتهـا بحزنهـا العميـق مقارنـةً بغيرهـا مـن الآلات الموسـيقية؛ مـع أن الـبعض يقـول إن البـاص هـو أسـاس الموسـيقى. أمـا أنـا، فـلا أهـتم إطلاقًـا بتلـك المهنـة التـي لا تبـدأ بحـزن الـنفس. أول وتـر يلمسـه الموسـيقي عـادةً هـو البـاص، عنـدما يريـد أن يضـبط كـل شـيء. والله أيضًـا يعـزف علـى هـذا الـوتر أولًا، عنـدما يضـبط الـروح لنفسـه. وهنـا فقـط كـان نقـص السـيد فيرينـغ: لـم يسـتطع العـزف علـى أي موسـيقى أخرى غير هذه حتى أواخر أيامه.

أجـرؤ علـى التحـدث بهـذه الطريقـة بالأرقـام، مـن أجـل نضـج عقـول القـراء الشـباب، ولأن سـفر الرؤيـا يقـارن المخلصـين بجماعـة مـن الموسـيقيين الـذين يعزفـون علـى أبـواقهم وقيثـاراتهم، ويغنـون أغانيهم أمام العرش.

معـالي السـيد، لقـد كـان رجـلاً شـديد الحمـاس، كمـا يتضـح مـن الوصـف الـذي قـدمتموه لـه. لـم يكـن يخشـى المصـاعب، ولا الأسـود، ولا حتـى سـوق الغـرور؛ إنمـا كـان الخطيئـة والمـوت والجحـيم هـي مـا تثيـر رعبه، لأنه كان يشك في مصلحته في تلك الدنيا السماوية.

أحسـنت. كلامـك صـحيح: تلـك هـي الأمـور التـي كانـت تُقلقـه، وكمـا لاحظـتَ جيـدًا، فقـد نبعـت مـن ضـعف عقلـه فـي هـذا الشـأن، لا مـن ضـعف روحـه فيمـا يتعلـق بالجانـب العملـي مـن حيـاة الحـاج. أظـن أنـه، كمـا يقـول المثـل، كـان سـيعض جمـرة نـار لـو وقفـت فـي طريقـه؛ لكـن الأمور التي أثقلت كاهله لم يستطع أحد التخلص منها بسهولة.

كريسـتيانا : "لقـد أفـادتني قصـة السـيد فيرينـغ. كنـت أظـن أنـه لا يوجـد أحـد مثلـي، لكننـي أرى أن هنـاك بعـض الشـبه بينـي وبـين هـذا الرجـل الطيـب، إلا أننـا اختلفنـا فـي أمـرين. كانـت مشـاكله عظيمـة لدرجـة أنهـا كانـت تفـيض، أمـا مشـاكلي فكنـت أكتمهـا فـي داخلـي. كمـا أن مشـاكله كانـت ثقيلـة عليـه لدرجـة أنهـا جعلتـه لا يسـتطيع طـرق أبـواب البيـوت

المخصصة للضيافة، أما مشاكلي فكانت دائماً تدفعني إلى الطرق بقوة أكبر."

ميـر. لو سمحت لي أن أبوح بما في قلبي، لا بد لي أن أقول إن شيئًا منه قد سكن في داخلي أيضًا؛ فقد كنت دائمًا أخشى البحيرة، وفقدان مكان في الجنة، أكثر من خوفي من فقدان أي شيء آخر. آه، فكرت، ليتني أن أنال سعادة امتلاك مسكن هناك، يكفيني ذلك، حتى لو ضحيت بكل الدنيا لأفوز به!

متى : "كان الخوف أحد الأشياء التي جعلتني أعتقد أنني بعيد كل البعد عن امتلاك ما يجعلني متأكدًا من الخلاص. ولكن إذا كان الأمر كذلك مع رجل صالح مثله، فلماذا لا يكون الأمر كذلك معي أيضًا؟"

: "لا خوف، لا نعمة. مع أن النعمة لا تكون دائماً حيث يوجد خوف من الجحيم، إلا أنه من المؤكد أنه لا توجد نعمة حيث لا يوجد خوف من الله".

عظيم. أحسنت يا جيمس، لقد أصبت كبد الحقيقة. فمخافة الله هي رأس الحكمة، ومن المؤكد أن من لا بداية له لا نهاية له ولا وسط. ولكننا سنختتم حديثنا عن السيد فيرينغ هنا، بعد أن نودعه بهذه الكلمات:

"حسنًا يا سيد الخوف، لقد كنت تخاف إلهك، وكنت تخشى القيام بأي شيء أثناء وجودك هنا من شأنه أن يجعلك تخون.

"وهل خشيت البحيرة والهاوية؟ ليت الآخرين خشوا ذلك أيضاً! أما الذين يفتقرون إلى ذكائك، فهم يهلكون أنفسهم."

يروي هونست قصة السيد إرادة الذات

ثم رأيتُ أنهم ما زالوا مستمرين في حديثهم؛ فبعد أن أنهى السيد ذو القلب الكبير حديثه مع السيد الخائف، بدأ السيد الصادق يخبرهم عن آخر، لكن اسمه كان السيد الإرادة الذاتية. قال السيد الصادق: "لقد ادّعى أنه حاج، لكني أقنع نفسي بأنه لم يدخل قط من البوابة التي تقف في بداية الطريق".

ممتاز. هل سبق لك أن تحدثت معه بشأن هذا الأمر؟

معالي السيد/السيدة، نعم، أكثر من مرة أو مرتين؛ لكنه كان سيبقى على طبيعته، عنيداً لا يلين. لم يكن يهتم بالناس، ولا بالجدال، ولا حتى بالقدوة؛ ما يمليه عليه عقله، يفعله، ولا شيء غير ذلك يمكن إقناعه بفعله.

عظيم. أرجوك، ما هي المبادئ التي كان يؤمن بها؟ لأنني أعتقد أنك تستطيع معرفة ذلك.

القاضي إن الرجل قد يتبع خطايا الحجاج وكذلك فضائلهم؛ وإذا فعل كليهما، فإنه سينجو بالتأكيد.

عظيم! كيف ذلك! لو قال إنه من الممكن لأفضل الناس أن يقعوا في الرذائل، كما أن يشاركوا في فضائل الحجاج، لما كان ليُلام كثيرًا؛ لأننا في الحقيقة لسنا معصومين من أي ذنب مطلقًا، إلا إذا سهرنا وسعينا. لكنني أدرك أن هذا ليس هو المقصود؛ ولكن، إن كنتُ قد فهمتُك جيدًا، فإن قصدك هو أنه كان يرى أن ذلك جائز.

معالي الوزير ، نعم، نعم، أعني ذلك، وهكذا آمن وتصرف.

عظيم. ولكن ما هي الأسس التي استند إليها في قوله هذا؟

السيد المحترم ، إنه كان لديه الكتاب المقدس كمرجع له.

أقوال صادقة عن الإرادة الذاتية

ممتاز. تفضل يا سيد صادق، قدم لنا بعض التفاصيل.

حسنًا، سأفعل. قال: إن داود، حبيب الله، كان يمارس علاقات مع زوجات رجال آخرين، ولذلك يحق له فعل ذلك. قال: إن سليمان كان يمارس تعدد الزوجات، ولذلك يحق له فعل ذلك. قال إن سارة كذبت، وكذلك راحاب، ولذلك يحق له فعل ذلك. قال إن التلاميذ امتثلوا لأمر سيدهم وأخذوا حمار صاحبه، ولذلك يحق له فعل ذلك أيضًا. قال إن يعقوب ورث ميراث أبيه بالخداع والمكر، ولذلك يحق له فعل ذلك أيضًا.

رائع. إنه شخص وضيع للغاية! وهل أنت متأكد من أنه كان على هذا الرأي؟

معالي السيد، لقد سمعته يتوسل من أجل ذلك، ويستشهد بالكتاب المقدس من أجله، ويقدم الحجج من أجله، وما إلى ذلك.

رائع. رأي لا يستحق أي قبول في العالم!

يا حضرة السيد المحترم، يجب أن تفهمني جيداً: لم يقل أن *أي* رجل يمكنه فعل ذلك؛ بل قال إن أولئك الذين لديهم فضائل أولئك الذين فعلوا مثل هذه الأشياء، يمكنهم أيضاً فعل الشيء نفسه.

عظيم. ولكن أي استنتاج أشدّ زيفًا من هذا؟ فهذا يُشبه القول بأنه لمجرد أن الصالحين قدَ أخطأوا سابقًا بسبب ضعفهم أو نسيانهم، فقد أُجيز له فعل ذلك عن قصد؛ أو إذا سقط طفلٌ بسبب هبة ريح،

أو تعثره بحجر، وتلوّث في الوحل، فقد يُجيز له أن يستلقي ويتقلب فيه كخنزير بري. من كان ليظن أن أحدًا قد يُعميه سلطان الخطيئة إلى هذا الحد؟ ولكن ما كُتب لا بدّ أن يكون صحيحًا: «إنهم يتعثرون في الكلمة، إذ يعصين، وهو ما عُيّنوا له». إن افتراضه أن مثل هؤلاء الذين اعتادوا على رذائلهم قد يمتلكون فضائل الرجل التقيّ هو أيضًا وهمٌ قويٌّ كغيره. إن التهام خطايا شعب الله كما يلعق الكلب القذارة ليس دليلًا على امتلاك المرء لفضائلهم. ولا أستطيع أن أصدق أن من يتبنى هذا الرأي يمكن أن يكون لديه إيمان أو محبة. لكنني أعلم أنكم قدمتم اعتراضات قوية ضده: من فضلكم، ماذا يمكنه أن يقول دفاعاً عن نفسه؟

السيد واي: "إن القيام بذلك علنًا وعلى سبيل الرأي يبدو أكثر صدقًا بكثير من القيام بذلك ثم التمسك برأي مخالف له".

رائع. جوابٌ خبيثٌ للغاية. فمع أن إطلاق العنان للشهوات في حين أن آراءنا تُحرّم مثل هذه الأمور أمرٌ سيء، إلا أن ارتكاب الخطيئة، ثم التذرع بالتسامح معها، أسوأ. فالأولى تُوقع الناظرين في الفخ صدفةً، أما الثانية *فتُوقعهم فيه*.

معالي السيد، هناك الكثير ممن يملكون فكر هذا الرجل، ولكن ليس لديهم فمه؛ وهذا ما يجعل الذهاب إلى الحج أمراً ذا قيمة ضئيلة كما هو عليه.

عظيم. لقد قلت الحق، وهو أمر مؤسف؛ ولكن من يخشى ملك الجنة سيخرج من بينهم جميعًا.

يا مسيحي، هناك آراء غريبة في العالم. أعرف رأياً يقول إنه قد حان الوقت للتوبة عن الخطيئة عند الموت.

عظيم. هؤلاء ليسوا حكماء. كان ذلك الرجل سيتردد، لو أتيحت له فرصة أسبوع كامل للركض عشرين ميلاً لإنقاذ حياته، لو أرجأ تلك الرحلة إلى الساعة الأخيرة من ذلك الأسبوع.

معالي السيد، كلامك صحيح؛ ومع ذلك، فإن معظم من يعتبرون أنفسهم حجاجًا يفعلون ذلك بالفعل. أنا، كما ترى، رجلٌ كبير في السن، وقد سافرت في هذا الطريق أيامًا عديدة، ولاحظت أشياء كثيرة. رأيتُ من انطلقوا وكأنهم سيقودون العالم بأسره أمامهم، ومع ذلك ماتوا في غضون أيام قليلة كما ماتوا في البرية، ولم يروا أرض الميعاد قط. رأيتُ من لم يعقدوا العزم على شيء في البداية، وانطلقوا ليكونوا حجاجًا، وكان المرء يظن أنهم لن يعيشوا يومًا واحدًا، ومع ذلك أثبتوا أنهم حجاج صالحون. رأيتُ من اندفعوا إلى الأمام بسرعة، ثم عادوا أدراجهم بعد فترة وجيزة. رأيتُ من أثنوا على حياة الحاج في البداية، ثم انتقدوها بشدة بعد

حـين. سـمعتُ بعـضَ مـن انطلقـوا إلـى الجنـة، زعمـوا وجودهـا، ثـم عـادوا بعـد أن كـادوا يصـلون إليهـا، وقـالوا إنهـا غيـر موجـودة. وسـمعتُ آخـرين يتبـاهون بمـا سـيفعلونه إن وُوجهـوا بالمعارضـة، حتـى أنهـم، عنـد إنـذار كـاذب، تخلّـوا عـن الإيمـان، وسـلكوا طريـق الحج، وكل شيء.

وبينمـا كـانوا يسـيرون فـي طـريقهم، جـاء أحـدهم يـركض للقـائهم، وقـال: "أيهـا السـادة، وأنـتم أيهـا الضـعفاء، إن كنـتم تحبـون الحيـاة، فتحركوا من أجل أنفسكم، لأن اللصوص أمامكم".

عظـيم. "إنهـم الثلاثـة الـذين هـاجموا ليتـل-فيـث مـن قبـل. حسـنًا،" قـال، "نحن مستعدون لهم."

يواصل الحجاج مسيرتهم

فتـابعوا طـريقهم. كـانوا ينظـرون إلـى كـل منعطـف حيـث كـان مـن المفتـرض أن يلتقـوا بالأشـرار؛ ولكـن سـواء سـمعوا عـن السـيد غريـت هارت، أو كان لديهم لعبة أخرى، لم يقتربوا من الحجاج.

الفصل السابع

يقدمها غايوس.

ثـم تمنـت كريسـتيانا أن يكـون لـديها نـزل لهـا ولأطفالهـا، لأنهـم كـانوا متعبين.

ثـم قـال السـيد الصـادق: "هنـاك نُـزُلٌ أمامنـا بقليـل، يسـكنه تلميـذٌ جليـلٌ يُـدعى غـايوس". فقـرروا جميعًـا التوجـه إليـه، لا سـيما بعـد أن أثنـى عليـه الرجـل العجـوز كثيـرًا. ولمـا وصـلوا إلـى البـاب، دخلـوا دون أن يطرقـوا، إذ جـرت العـادة ألا يطـرق النـاس أبـواب النُـزُل. ثـم نـادوا علـى صـاحب النُـزُل، فـأتى إلـيهم، فسـألوه إن كـان بإمكـانهم المبيـت عنـده تلك الليلة.

غـايوس: نعـم أيهـا السـادة، إن كنـتم رجـالاً حقيقيـين، لأن بيتـي لـيس إلا للحجاج.

حينهـا ازداد فـرح كريسـتيانا وميرسـي والفتيـان، لأن صـاحب النـزل كـان محبـاً للحجـاج. فطلبـوا غرفـاً، فـأراهم غرفـة لكريسـتيانا وأطفالهـا وميرسي، وأخرى للسيد غريت هارت والرجل العجوز.

عظـيم. "يـا غـايوس الطيـب، مـاذا لـديك للعشـاء؟ لأن هـؤلاء الحجـاج قد قطعوا شوطاً طويلاً اليوم، وهم متعبون."

غـايوس: "لقـد تـأخر الوقـت، لـذا لا يمكننـا الخـروج بسـهولة للبحـث عـن الطعـام؛ ولكـن مـا لـدينا سـيكون موضـع ترحيـب، إذا كـان ذلـك يرضيك."

عظـيم. سـنكتفي بمـا لـديك فـي المنـزل؛ لأننـي اختبرتـك، فأنـت لا ينقصك أبدًا ما هو مناسب.

ثـم نـزل وتحـدث إلـى الطبـاخ، واسـمه "مـذاق الطيـب"، ليُجهـز العشـاء لهـذا العـدد الكبيـر مـن الحجـاج. وبعـد أن انتهـى مـن ذلـك، عـاد وقـال: "تعـالوا يـا أصـدقائي الأعـزاء، أهـلاً وسـهلاً بكـم عنـدي، ويسـعدني أن لـديّ بيتـاً أستضـيفكم فيـه؛ وبينمـا يُجهـز العشـاء، إن سـمحتم، فلنتبـادل أطراف الحديث ونمضي وقتاً ممتعاً".

فقالوا جميعاً: "المحتوى".

غـايوس: "زوجـة مـن هـذه السـيدة العجـوز؟ وابنـة مـن هـذه الفتـاة الشابة؟"

عظـيم. المـرأة زوجـة رجـل مسـيحي، حـاج مـن العصـور القديمـة؛ وهـؤلاء أبنـاؤه الأربعـة. الخادمـة إحـدى معارفهـا، أقنعتهـا بمرافقتهـا فـي الحـج. الأولاد يشـبهون والـدهم تمامًـا، ويتمنـون السـير علـى خطـاه؛ بـل إن مجـرد رؤيـتهم أي مكـان اسـتلقى فيـه الحـاج العجـوز، أو أي أثـر لقدمـه، يُـدخل السـرور إلـى قلـوبهم، ويتوقـون للاسـتلقاء أو السير فيه.

عائلة المسيحيين

غـايوس. هـل هـذه زوجـة كريسـتيان، وهـؤلاء أبنـاؤه؟ لقـد عرفـتُ والـد زوجـك، بـل وجـده أيضًـا. كـان كثيـرون مـن هـذا النسـب صـالحين، وقـد سـكن أجـدادهم أولًا فـي أنطاكيـة. كـان أجـداد كريسـتيان، الآبـاء الأوائـل الـذين انحـدر مـنهم (أظـن أنـكِ سـمعتِ زوجـكِ يتحـدث عـنهم)، رجـالًا ذوي أخـلاق رفيعـة. لقـد أظهـروا، أكثـر مـن أي شـخص أعرفـه، فضـيلة وشـجاعة عظيمتـين، مـن أجـل رب الحجـاج، وطرقـه، ومـن أجـل الـذين أحبـوه. لقـد سـمعتُ عـن كثيـر مـن أقـارب زوجـكِ الـذين صـمدوا فـي وجـه كـل المحـن فـي سـبيل الحـق. اسـتفانوس، الـذي كـان مـن أوائـل أفـراد العائلـة التـي ينحـدر منهـا زوجـكِ، رُجـم بالحجـارة. ويعقـوب، وهـو أيضًـا مـن هـذا الجيـل، قُتـل بحـد السـيف. ناهيـك عـن بـولس وبطـرس، وهمـا مـن أقـدم أفـراد العائلـة التـي ينحـدر منهـا زوجـكِ؛ كـان هنـاك إغنـاطيوس الـذي أُلقـي للأسـود؛ ورومـانوس الـذي مُـزق لحمـه إربًـا. مـن عظامـه؛ وبوليكـاربوس، الـذي لعـب دور الرجـل فـي النـار؛ وهنـاك مـن عُلِّـق فـي سـلة تحـت الشـمس لتأكلـه الـدبابير؛ وهنـاك مـن وُضِـع فـي كـيس، وأُلقِـيَ فـي البحـر ليغـرق. مـن المسـتحيل تمامًـا حصـر جميـع أفـراد تلـك العائلـة الـذين عـانوا مـن الإصـابات

والموت في سبيل حب حياة الحاج. ولا يسعني إلا أن أفرح لرؤية أن زوجك قد ترك وراءه أربعة أبناء كهؤلاء. آمل أن يحملوا اسم أبيهم، وأن يسيروا على خطاه، وأن يصلوا إلى نهايته.

عظيم. في الواقع يا سيدي، إنهم فتيان مناسبون؛ يبدو أنهم يختارون طريق والدهم بكل حماس.

غايوس. هذا ما قلته؛ ولذلك فمن المرجح أن تنتشر عائلة كريستيان في أرجاء الأرض، وأن يكون عددهم كبيرًا. لذلك، فلتبحث كريستيانا عن فتيات لأبنائها ليتزوجوهن، حتى لا يُنسى اسم أبيهم وعائلته في العالم.

معالي السيد، من المؤسف أن تسقط هذه العائلة وتختفي من العالم.

غايوس: لا يمكن أن تسقط، ولكن قد تتضاءل؛ ولكن فلتأخذ كريستيانا بنصيحتي، فهذه هي الطريقة للحفاظ عليها. قال صاحب النزل: "كريستيانا، يسعدني أن أراكِ وصديقتكِ ميرسي معًا هنا، إنهما زوجان جميلان. وأود أن أنصحكِ بأن تجعلي ميرسي أقرب إليكِ؛ وإن أرادت، فلتُزوّجيها من ماثيو، ابنكِ البكر. فهذه هي الطريقة لتكوين أسرة لكِ في هذه الدنيا."

وهكذا تم ترتيب هذا الزواج، ومع مرور الوقت تزوجا؛ ولكن سنتحدث عن ذلك لاحقاً.

ثم تابع غايوس قائلاً: "سأتحدث الآن نيابة عن النساء، لأزيل عنهن العار. فكما دخل الموت واللعنة إلى العالم عن طريق امرأة، كذلك دخلت الحياة والصحة: "أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة". سأقولها ثانيةً، عندما جاء المخلص، فرحت النساء به قبل أي رجل أو ملاك. لم أقرأ قط أن رجلاً تبرع للمسيح ولو بفلس واحد، بل تبعته النساء وخدمنه من مالهن. كانت امرأة هي التي غسلت قدميه بدموعها، وامرأة هي التي دهنت جسده قبل دفنه. كنّ نساءً يبكين وهو ذاهب إلى الصليب، ونساءً تبعنه منه، وجلسن عند قبره حين دُفن. كنّ نساءً كنّ أول من رافقه صباح قيامته، ونساءً بشّرن تلاميذه أولاً بقيامته. لذلك، فالنساء مُنعم عليهنّ، ويُظهرن بهذه الأمور أنهنّ شريكات لنا في نعمة الحياة.

العشاء في منزل جايوس

ثم أرسل الطاهي ليُشير إلى أن العشاء قد أوشك على الانتهاء، وأرسل واحداً ليضع المفرش والأطباق، وليرتب الملح والخبز.

فقال متى: "إن رؤية هذه القماشة، وهذه البشارة للعشاء، توقظ فيّ شهية أكبر للطعام مما كانت عليه من قبل".

يا غايوس. فليكن كل تعليم للحق في هذه الحياة يوقظ فيك رغبة أكبر في الجلوس على مائدة الملك العظيم في ملكوته؛ لأن كل الوعظ والكتب والخدمات هنا ليست سوى وضع الأطباق، ووضع الملح على اللوح، مقارنة بالوليمة التي سيقيمها لنا ربنا عندما نأتي إلى بيته.

ثمّ حلّ العشاء. ووضع أمامهم أولًا كتفٌ مرفوعٌ وصدرٌ متموّجٌ على المائدة، دلالةً على وجوب بدء طعامهم بالصلاة والثناء على الله. كان داود يرفع قلبه إلى الله بالكتف المرفوع، وكان يتكئ على قيثارته بالصدر المتموّج حيث كان قلبه. كان هذان الطبقان طازجين وشهيين، فأكلوا جميعًا بشهيةٍ كبيرة.

ثم أحضروا زجاجة نبيذ حمراء كالدم. فقال لهم غايوس: «اشربوا بسخاء، فهذا عصير الكرمة الحقيقي الذي يُفرح قلب الله والإنسان». فشربوا وفرحوا. ثم أحضروا طبقًا من الحليب المفتت جيدًا، فقال غايوس: «دعوا الصبيان يأكلونه لينموا به».

ثم أحضروا طبقًا من الزبدة والعسل. فقال غايوس: «كُلوا منه ما شئتم، فهو يُسعدكم ويُقوّي عقولكم وفهمكم. كان هذا طعام سيدنا المسيح عندما كان طفلًا: «يأكل الزبدة والعسل لكي يعرف كيف يرفض الشر ويختار الخير».»

ثم أحضروا لهم طبقاً من التفاح، وكان فاكهة لذيذة جداً. فقال متى: «هل يجوز لنا أن نأكل التفاح، لأنه هو الذي أغوى به الحية أمنا حواء؟»

ثم قال غايوس:

"لقد انخدعنا بالتفاح؛ لكن الخطيئة، لا التفاح، هي التي دنست نفوسنا. التفاح محرم، إن أكل يُفسد الدم؛ أما أكله، عند الأمر به، فيُفيدنا. اشربي من أباريقه، يا كنيسة، يا حمامته، وكلي تفاحه يا من مرضتم من الحب."

فقال متى: "لقد اعترضت لأني كنت مريضاً منذ فترة بسبب تناول الفاكهة".

غايوس: الفاكهة المحرمة ستمرضك، لكن ليس ما سمح به ربنا.

وبينما كانوا يتحدثون، قُدِّم لهم طبق آخر، وكان طبقًا من المكسرات. فقال بعض الجالسين على المائدة: "المكسرات تُفسد الأسنان الحساسة، وخاصة أسنان الأطفال". فلما سمع غايوس ذلك، قال:

"النصــوص الصــعبة مجنونــة (لــن أســميها غشاشــين)، قشــورها تخفــي لبهــا عــن الآكلــين؛ افــتح القشــور إذن، وســتجد اللحــم: لقــد أحضرت إليكم لتكسروها وتأكلوها."

ثــم كــانوا فــي غايــة المــرح، وجلســوا علــى المائــدة وقتــاً طــويلاً، يتحــدثون عــن أشــياء كثيــرة. ثــم قــال الرجــل العجــوز: "يــا صــاحب المنــزل الكــريم، بينمــا نحــن نكســر جــوزك، هــل يمكنــك مــن فضــلك أن تحل هذا اللغز؟"

"كــان هنــاك رجــل، مــع أن الــبعض اعتبــره مجنونــاً، كلمــا أنفــق أكثــر، كلما امتلك أكثر."

ثــم أنصــتوا جميعــاً باهتمــام، متســائلين عمــا ســيقوله غــايوس الطيــب: فجلس ساكناً لبعض الوقت، ثم أجاب على النحو التالي:

"مــن ينفــق أموالــه علــى الفقــراء، فسيحصــل علــى مثلهــا وعشــرة أضعافها."

ثم قــال يوســف: "أجرؤ علــى القــول يــا ســيدي، لــم أكــن أعتقــد أنــك قــادر على اكتشاف ذلك".

قــال غــايوس: "أوه! لقــد تربيــتُ علــى هــذا النحــو منــذ زمــن طويــل: لا شــيء يُعلّــم مثــل التجربــة، لقــد تعلمــتُ مــن ســيدي أن أكــون لطيفًــا، ووجــدتُ مــن خــلال التجربــة أننــي اســتفدتُ مــن ذلــك. 'هنــاك مــن يُبــدّد، ومــع ذلــك يــزداد؛ وهنــاك مــن يمسك أكثــر ممــا ينبغــي، ولكنــه يــؤدي إلــى الفقــر.' 'هنــاك مــن يُغنــي نفســه، ومــع ذلــك لا يملــك شــيئًا؛ وهنــاك مــن يُفقر نفسه، ومع ذلك يملك ثروة طائلة.'"

الرحمة ومتى

ثــم همــس صــموئيل لأمــه كريســتيانا قــائلاً: "يــا أمــي، هــذا بيــت رجــل صــالح جداً؛ فلنمكــث هنــا مــدة طويلــة، ولنتــزوج أخــي متــى مــن ميرســي قبــل أن نــذهب إلــى مكــان آخــر". فســمع غــايوس، صــاحب البيــت، ذلــك، فقال: "بكل سرور يا بني".

فأقــاموا هنــاك أكثــر مــن شــهر، وتــزوج متــى مــن ميرســي. وخــلال إقــامتهم، كانــت ميرســي، كعادتهــا، تصــنع المعــاطف والملابــس لتوزعها على الفقراء، مما أكسبها سمعة طيبة بين الحجاج.

لكن لنعد إلــى قصــتنا. بعد العشــاء، رغــب الفتيــان فــي النــوم، فقــد كــانوا متعبــين مــن الســفر. ثــم دعــاهم غــايوس ليــريهم غــرفتهم، لكــن ميرســي قالــت: "ســأجعلهم ينــامون". فــأدخلتهم إلــى الفــراش، ونــاموا نومًــا هنيئًــا، أمــا البقيــة فظلــوا مســتيقظين طــوال الليــل، فقــد كــان غــايوس ورفقتهم مناسبين جدًا، لدرجة أنهم لم يرغبوا في الفراق.

ثم، بعد حديث طويل عن سيدهم وأنفسهم ورحلتهم، بدأ السيد الصادق العجوز، الذي طرح اللغز على غايوس، بالإيماء.

ثم قال صاحب القلب العظيم: "ماذا يا سيدي! بدأت تشعر بالنعاس؟ تعال، افرك جسمك. الآن، إليك لغز."

ثم قال السيد الصادق: "دعونا نسمعها".

ثم قال السيد ذو القلب الكبير:

"من يريد أن يقتل، يجب أولاً أن يُهزم؛ ومن يعيش في الخارج، يجب أولاً أن يموت في الوطن."

قال السيد الصادق: "ها! إنها مسألة صعبة؛ يصعب شرحها، ويصعب فعلها. ولكن تعال يا صاحب العقار،" قال، "سأترك لك دوري إن سمحت: اشرحها أنت، وسأستمع إلى ما تقوله."

قال غايوس: "لا، لقد طُرح عليك السؤال، ومن المتوقع أن تجيب عليه". ثم قال الرجل العجوز:

"يجب أولاً أن يُغلب بالنعمة، حتى يُميت الخطيئة؛ ومن ينجو من ذلك، يجب أن يموت لنفسه."

وهكذا جلسوا يتحدثون حتى مطلع الفجر. ولما استيقظت العائلة، طلبت كريستيانا من ابنها جيمس أن يقرأ فصلاً؛ فقرأ الفصل الثالث والخمسين من سفر إشعياء.

قال غايوس: "حسنًا، الآن وقد وصلتم، وبما أنني أعلم أن السيد غريت هارت بارع في استخدام أسلحته، فإذا سمحتم، بعد أن نستريح قليلًا، سنتمشى في الحقول لنرى إن كان بإمكاننا فعل أي شيء مفيد. على بُعد ميل تقريبًا من هنا يوجد رجل يُدعى سلاي غود، وهو عملاق، يُزعج طريق الملك كثيرًا في هذه الأنحاء؛ وأنا أعرف مكان اختبائه. إنه زعيم عدد من اللصوص: سيكون من الجيد لو استطعنا تطهير هذه الأنحاء منه."

فوافقوا وذهبوا؛ السيد ذو القلب العظيم بسيفه وخوذته ودرعه، والباقون بالرماح والعصي.

تم تدمير كل شيء - جيد

عندما وصلوا إلى المكان الذي كان فيه، وجدوه ومعه رجل ضعيف العقل، أحضره إليه خدمه في الطريق. وكان العملاق يسرق جيوبه، عازماً بعد ذلك على جمع عظامه؛ لأنه كان من آكلي اللحوم.

حسناً، بمجرد أن رأى السيد غريت هارت وأصدقائه عند مدخل كهفه بأسلحتهم، طالب بما يريدون.

عظيم. نحن نريدك، فقد جئنا لننتقم لثأرك من كثيرين قتلتهم من الحجاج، عندما سحبتهم من طريق الملك؛ لذلك اخرج من كهفك.

فجهز نفسه وخرج؛ وذهبوا إلى المعركة، وقاتلوا لأكثر من ساعة، ثم توقفوا ليستريحوا.

اقتل. ثم قال العملاق: "لماذا أنت هنا على أرضي؟"

عظيم. للثأر لدماء الحجاج، كما أخبرتك من قبل.

تم إنقاذ شخص ضعيف العقل

فعادوا إلى المحاولة، وأجبر العملاق السيد كبير القلب على التراجع؛ لكنه عاد، وفي عظمة عقله، أطلق ضربة قوية على رأس العملاق وجوانبه، حتى أسقط سلاحه من يده. فضربه وقتله، وقطع رأسه، وأخذه إلى النزل. وأخذ معه الحاج ضعيف العقل، وأحضره إلى مسكنه. ولما عادوا إلى المنزل، عرضوا رأسه على العائلة، ثم علقوه كما فعلوا مع رؤوس أخرى من قبل، ليكون عبرة لمن يحاول أن يفعل مثله فيما بعد.

ثم سألوا السيد ضعيف العقل كيف وقع بين يديه.

ضعيف. ثم قال الرجل الفقير: "أنا رجل مريض كما ترى، ولأن الموت كان يطرق بابي كل يوم، ظننت أنني لن أشفى في بيتي أبدًا. لذلك اخترت حياة الترحال، وسافرت إلى هنا من بلدة المجهول، حيث ولدت أنا وأبي. أنا رجل ضعيف البنية، ولا أملك قوة عقلية، ولكني لو استطعت، رغم أنني لا أستطيع إلا الزحف، لقضيت حياتي على طريق الحجاج. عندما وصلت إلى البوابة التي تقع في بداية الطريق، استقبلني سيد ذلك المكان بكرم بالغ، ولم يعترض على مظهري الضعيف، ولا على عقلي الهزيل، بل أعطاني ما احتجت إليه في رحلتي، وحثني على التمسك بالأمل حتى النهاية. عندما وصلت إلى منزل المترجم، تلقيت هناك لطفًا كبيرًا، ولأن صعوبة التل كانت تفوق قدرتي، حملني أحد خدمه إلى أعلى التل. في الواقع، وجدت راحة كبيرة من الحجاج، رغم أن أحدًا منهم لم يكن... كنتُ راغبًا في السير بهدوء كما أُجبرتُ على ذلك، ومع ذلك، عندما اقتربوا، شجعوني وقالوا إنها مشيئة ربهم أن يُعزى الضعفاء، ثم مضوا في طريقهم. عندما وصلتُ إلى ممر الهجوم، قابلني هذا العملاق، وأمرني بالاستعداد للمواجهة. ولكن، للأسف! لضعفي، كنتُ في أمس الحاجة إلى مشروب مُنعش؛ فتقدم نحوي وأخذني. لم أصدق أنه سيقتلني. وعندما أدخلني إلى عرينه،

ولأنني لم أذهب معه طواعية، اعتقدتُ أنني سأخرج حيًا؛ فقد سمعتُ أنه لا يُقتل أي حاج يُؤسر بأيدٍ عنيفة، إذا حافظ على طاعته لسيده، وفقًا لقوانين العناية الإلهية. بدوتُ وكأنني سُلبتُ، وسُلبتُ بالفعل؛ لكنني، كما ترون، نجوتُ بحياتي، وأشكر ملكي على ذلك، وأنتم على الوسيلة. أبحث أيضًا عن المتاعب؛ لكنني عزمت على شيء واحد: أن أركض متى استطعت، وأن أسير حين لا أستطيع الركض، وأن أزحف حين لا أستطيع السير. أما الأمر الأهم، فأشكر من يحبني، فأنا ثابت: طريقي واضح أمامي، وعقلي يتجاوز النهر الذي لا جسر له، مع أنني، كما ترون، ضعيف العقل.

العجوز : "ألم تتعرف منذ فترة على السيد فيرينج، وهو حاج؟"

ضعيف. أعرفه! نعم؛ لقد أتى من بلدة الغباء، التي تقع على بعد أربع درجات شمال مدينة الدمار، وعلى بعد أربع درجات من مسقط رأسي؛ ومع ذلك كنا نعرف بعضنا جيدًا، لأنه كان عمي، شقيق أبي. كنا متقلبي المزاج: كان أقصر مني قليلًا، لكننا كنا متشابهين في لون البشرة.

يا حضرة السيد المحترم، أدرك أنك تعرفه، وأميل إلى الاعتقاد أيضاً أنكما تربطكما صلة قرابة؛ لأن لديك مظهره الأبيض، ونظرة عينك تشبه نظرته، وكلامك متشابه إلى حد كبير.

ضعيف. هذا ما قاله معظم من عرفونا كلانا؛ وإلى جانب ذلك، فإن ما قرأته فيه وجدته في نفسي في معظمه.

غايوس الطيب: "تعال يا سيدي، كن مطمئناً، فأنت مرحب بك عندي وفي بيتي. اطلب ما تشاء، وسيفعل خدمي ما تريد منهم أن يفعلوه لك بكل سرور".

ثم قال السيد ضعيف العقل: "هذه معروف غير متوقع، كالشمس التي تشرق من غيمة شديدة السواد. هل كان العملاق سلاي-جود يقصد بي هذا المعروف حين أوقفني، وعزم على ألا يدعني أذهب أبعد من ذلك؟ هل كان يقصد أن أذهب إلى غايوس، مضيفي، بعد أن نهب جيوبي؟ ولكن هكذا هو الأمر."

وبينما كان فيبل-مايند وجايوس يتحدثان، جاء أحدهم يركض، وطرق الباب، وقال: "على بعد حوالي ميل ونصف، كان هناك السيد نوت-رايت، وهو حاج، قد أصيب بصاعقة في المكان الذي كان فيه".

للأسف ! هل قُتل؟ لقد لحق بي قبل أيام من وصولي إلى هنا، وكان سيرافقني. كان معي أيضًا عندما أخذني العملاق سلاي جود؛ لكنه

كـان سـريعًا وهـرب؛ ولكـن يبـدو أنـه هـرب ليمـوت، بينمـا أُخـذتُ لأعيش."

"ما قد يظنـه المرء أنـه يسعى إلى القتل المباشر، غالبـاً مـا ينجي من أشـد المحـن، تلـك العنايـة الإلهيـة نفسـها، التـي وجههـا المـوت، غالبـاً مـا تمـنح الحيـاة للضـعفاء. لقد أُسرت، وهرب هـو وفـرّ؛ تشـابك الأيـدي يمنحه الموت، ويمنحني الحياة."

فيبي وجيمس

وفـي ذلـك الوقـت تقريبـاً، تـزوج متـى وميرسـي؛ كمـا أعطـى غـايوس ابنتـه فيبـي ليعقـوب، شـقيق متـى، زوجـةً لـه؛ وبعد ذلـك الوقـت، مكثـوا حـوالي عشـرة أيـام فـي منـزل غـايوس، يقضـون وقـتهم والفصـول كمـا اعتاد الحجاج أن يفعلوا.

عنـدما حـان وقـت رحـيلهم، أقـام لهـم غـايوس وليمـة، فـأكلوا وشـربوا وفرحـوا. ولمـا حـان وقـت رحـيلهم، طلـب السـيد غريـت هـارت فـاتورة النفقـات. لكـن غـايوس أخبـره أن عـادة الحجـاج فـي بيتـه لا تـدفع مقابـل إقـامتهم. فهـو يُـؤمّن لهـم الإقامـة سـنويًا، وينتظـر أجـره مـن السـامري الصالح الذي وعده، عند عودته، أن يُسدد له كل ما أنفقه عليهم.

ثم قال له السيد غريت هارت:

عظـيم. أيهـا الحبيـب، أنـت تفعـل بأمانـة كـل مـا تفعلـه للإخـوة وللغربـاء الـذين شـهدوا علـى كرمـك أمـام الكنيسـة؛ والـذين إذا كنـت لا تـزال تقدمهم في رحلتهم بطريقة تقية، فسوف تفعل الخير.

ثـم ودّع غـايوس الجميـع، وأولاده، وخاصـة السـيد ضـعيف العقـل. كمـا أعطاه شيئاً ليشربه في الطريق.

عنـدما هـمّ السـيد ضـعيف العقـل بـالخروج مـن البـاب، تظـاهر بأنـه ينـوي البقـاء. فلمـا رآه السـيد كبيـر القلـب، قـال: "هيـا يـا سـيد ضـعيف العقل، أرجوك رافقنا، سأكون دليلك، وستكون حالك كحال البقية".

ضـعيف. يـا للأسـف! أريـد رفيقًـا مناسـبًا. أنـتم جميعًـا أقويـاء، أمـا أنـا، كمـا تـرون، فأنـا ضـعيف؛ لـذلك أفضّـل أن أتخلـف عـنكم، خشـية أن أكـون عبئًـا علـى نفسـي وعلـيكم بسـبب ضـعفي. أنـا، كمـا قلـت، رجـل ضـعيف العقـل، وسـأتأثر وأضـعف بمـا يتحملـه الآخـرون. لا أحـب الضـحك، ولا الملابـس الزاهيـة، ولا الأسـئلة غيـر المجديـة. بـل أنـا ضـعيف لدرجـة أننـي أتـأثر بمـا يتمتـع بـه الآخـرون بحريـة التصـرف. لا أعـرف كـل الحقيقـة بعـد؛ فأنـا مسـيحي جاهـل جـدًا. أحيانًـا، إذا سـمعت أحـدًا يفـرح بـالرب، يزعجنـي ذلـك، لأنـي لا أسـتطيع أن أفعـل مثلـه. حـالي كحـال الرجـل الضـعيف بـين الأقويـاء، أو المـريض بـين الأصـحاء، أو المصـباح المُحتقـر. "إن الـذي يكـاد ينزلـق بقدميـه هـو

كالمصباح الذي يحتقره من ينعم بالراحة؛" لذلك لا أعرف ماذا أفعل.

عظيم. قال السيد ذو القلب الكبير: "لكن يا أخي، من واجبي أن أواسي الضعفاء وأساند من لا حيلة لهم. لا بد لك من مرافقتنا: سننتظرك، وسنقدم لك العون، وسنضحي ببعض الأمور من أجلك، ولن نخوض في مسائل مشكوك فيها أمامك! سنكون كل شيء لك، بدلاً من أن تُترك وحيداً."

والآن، طوال هذا الوقت كانوا عند باب غايوس، وإذا بهم، بينما كانوا في خضم حديثهم، يمر السيد ريدي-تو-هالت، حاملاً عكازيه في يديه؛ وكان هو أيضاً ذاهباً في رحلة حج.

ضعيف. ثم قال له السيد ضعيف العقل: "كيف أتيت إلى هنا؟ كنتُ أشتكي الآن من عدم وجود رفيق مناسب، لكنك أنت ما كنتُ أتمناه. أهلاً وسهلاً بك، أيها السيد المستعد للتوقف؛ آمل أن نكون عوناً لبعضنا."

جاهز. قال الآخر: "سأكون سعيداً بصحبتك؛ ويا سيد ضعيف العقل، بدلاً من أن نفترق، بما أننا التقينا بهذه السعادة، سأعيرك أحد عكازيّ".

ضعيف. قال: "لا، مع أنني أشكرك على حسن نيتك، إلا أنني لا أميل إلى التوقف قبل أن أصبح أعرج. ومع ذلك، أعتقد أنه عندما تدعو الحاجة، قد يساعدني ذلك ضد كلب."

جاهز. إذا كان بإمكاني أنا أو عكازي أن نسعدك، فنحن رهن إشارتك، أيها السيد ضعيف العقل.

وهكذا، مضوا قدمًا. تقدم السيد ذو القلب الكبير والسيد الصادق، ثم لحقت بهما كريستيانا وأطفالها، وخلفهما السيد ضعيف العقل، ثم السيد المتردد بعكازيه. ثم قال السيد الصادق:

سيدي الكريم، تفضل، الآن وقد انطلقنا في الطريق، أخبرنا ببعض الأمور المفيدة عن بعض الذين سبقونا في الحج.

مراجعات لرحلات الحج الأخرى

حسنًا. بحسن نية. أظن أنك سمعت كيف التقى كريستيان القديم بأبوليون في وادي الذل، وما تكبده من مشقة في اجتياز وادي ظل الموت. وأظن أيضًا أنك سمعت كيف عانى فيثفول من السيدة وونتون، مع آدم الأول، والسخط، والعار؛ أربعة أشرار مخادعين لا يُضاهى.

معالي السيد. نعم، أعتقد أنني سمعت بكل هذا؛ ولكن في الواقع، كان المخلص الصالح هو الأكثر تضرراً من الخزي: لقد كان شخصاً لا يكل.

عظيم. أجل؛ لأنه، كما قال الحاج بحق، كان اسمه خاطئاً أكثر من أي شخص آخر.

معالي السيد المحترم، ولكن أرجوك يا سيدي، أين التقى المسيحي والمخلص بالثرثار؟ كان ذلك لقاءً بارزاً أيضاً.

عظيم. لقد كان أحمق واثقاً بنفسه؛ ومع ذلك يتبعه الكثيرون.

معالي السيد، لقد كان يرغب في خداع المخلصين.

عظيم. أجل، لكن كريستيان وضعه في موقفٍ سريعٍ ليكتشف أمره.

وهكذا استمروا حتى وصلوا إلى المكان الذي التقى فيه المبشر بالمسيحي والمؤمن، وأخبرهم بما سيحدث لهم في سوق الغرور. ثم قال دليلهم: "هنا التقى المسيحي والمؤمن بالمبشر، الذي أخبرهم بالمتاعب التي سيواجهونها في سوق الغرور".

معالي السيد. هل تقول ذلك؟ أجرؤ على القول إنها كانت فصلاً صعباً، إذن، قرأه عليهم!

عظيم. كان كذلك؛ لكنه شجعهم رغم ذلك. ولكن ماذا نقول عنهم؟ لقد كانوا رجلين شجاعين كالأسود: كانت وجوههم صلبة كالصوان. ألا تتذكرون كيف كانوا ثابتين لا يلين حين وقفوا أمام القاضي؟

معالي السيد ويل. لقد عانى المخلصون بشجاعة.

عظيم. وهكذا فعل، وكما جرت الأمور الشجاعة؛ فقد اهتدى هوبفول وآخرون، كما تروي القصة، بموته.

السيد المحترم، حسناً، ولكن أرجو أن تكمل حديثك، فأنت على دراية جيدة بالأمور.

عظيم. من بين كل من التقى بهم كريستيان بعد مروره بفانيتي فير، كان باي-إندز هو الشخص الأبرز.

سعادة النائب باي-إندز! ما كان اسمه؟

عظيم. رجلٌ ماكرٌ للغاية، مخادعٌ صريح؛ يدّعي التدين مهما كانت أحوال الدنيا، لكنه كان شديد الدهاء لدرجة أنه كان يضمن ألا يخسر أو يُعاقب بسببه. كان لديه أسلوبه الخاص في التدين لكل مناسبة جديدة، وكانت زوجته بارعةً فيه مثله. وكان يتقلب بين

الآراء، بل ويبرر ذلك. لكن، على حد علمي، انتهى به المطاف نهايةً سيئةً مع شركائه؛ ولم أسمع قط أن أيًا من أبنائه كان يحظى بأي تقدير من أحدٍ يخشى الله حقًا.

يصلون إلى فانيتي فير

في ذلك الوقت، كانوا قد وصلوا إلى مشارف بلدة الغرور، حيث يُقام سوق الغرور. فلما رأوا قربهم من البلدة، تشاوروا فيما بينهم حول كيفية المرور بها؛ فقال بعضهم شيئًا، وقال آخرون شيئًا آخر. وأخيرًا قال السيد ذو القلب الكبير: "كما تعلمون، لطالما كنتُ مرشدًا للحجاج في هذه البلدة. والآن، أعرف السيد مناسون، وهو قبرصي الأصل، وتلميذ قديم، يمكننا المبيت عنده. إن رأيتم ذلك مناسبًا،" قال، "فسندخل عنده."

منسون يُسلّي الحجاج

قال العجوز الصادق: "راضٍ". قالت كريستيانا: "راضٍ". قال السيد ضعيف العقل: "راضٍ". وهكذا قالوا جميعًا. الآن، لا بد أنك تظن أنه كان المساء قد حل عندما وصلوا إلى مشارف المدينة؛ لكن السيد كبير القلب كان يعرف الطريق إلى منزل الرجل العجوز. فجاؤوا إليه، ونادى على الباب؛ فعرف الرجل العجوز في الداخل لغته بمجرد أن سمعها؛ ففتح الباب، ودخلوا جميعًا. ثم قال منسون، مضيفهم: "إلى أي مدى وصلتم اليوم؟"

فقالوا: "من بيت غايوس، صديقنا".

قال: "أعدك أنك قطعت مسافة طويلة، وقد تكون متعباً. اجلس." فجلسوا.

رائع. ثم قال دليلهم: "هيا، ما هي الهتافات يا سادة؟ أجرؤ على القول إنكم مرحب بكم في صديقي."

السيد مناسون: "وأنا أيضاً أرحب بكم؛ وأي شيء تريدونه، ما عليكم سوى أن تقولوه، وسنفعل ما بوسعنا للحصول عليه لكم".

معالي الوزير. كان ما نتمناه بشدة منذ فترة هو مكان للراحة ورفقة طيبة، والآن آمل أن نحظى بكليهما.

مناس. بالنسبة لمكان الراحة، فأنت ترى ما هو عليه؛ أما بالنسبة للرفقة الصالحة، فسيتضح ذلك في المحاكمة.

عظيم. قال صاحب القلب العظيم: "حسنًا، هل ستصعد بالحجاج إلى مساكنهم؟"

: "سأفعل". فأخذهم إلى أماكنهم المختلفة، وأراهم أيضاً غرفة طعام جميلة جداً، حيث يمكنهم الجلوس وتناول العشاء معاً، حتى يحين وقت الراحة.

والآن، بعد أن استقروا في أماكنهم، وكانوا مبتهجين قليلاً بعد رحلتهم، سأل السيد الصادق صاحب المنزل عما إذا كان هناك أي عدد من الأشخاص الطيبين في المدينة.

مناس. لدينا القليل؛ لأنهم في الواقع قليلون مقارنة بهم على الجانب الآخر.

يا حضرة السيد، ولكن كيف لنا أن نرى بعضهم؟ إن رؤية الصالحين للذين يذهبون إلى الحج تشبه ظهور القمر والنجوم للذين يبحرون في البحار.

الأصدقاء يزورون الحجاج

غريس . فقال لها: "يا غريس، اذهبي وأخبري أصدقائي، السيد التائب، والسيد الرجل المقدس، والسيد القديس المحب، والسيد الذي لا يجرؤ على الكذب، والسيد التائب، أن لدي صديقًا أو اثنين في منزلي يرغبون في رؤيتهم هذا المساء". فذهبت غريس لدعوتهم، فجاؤوا؛ وبعد تبادل التحية، جلسوا معًا على المائدة.

ثم قال السيد مناسون، صاحب المنزل: "يا جيراني، كما ترون، لقد جاء إلى منزلي جمعٌ من الغرباء: إنهم حجاج؛ جاؤوا من بعيد، وهم ذاهبون إلى جبل صهيون. ولكن من تظنون هذه؟" قال مشيرًا بإصبعه إلى كريستيانا. "إنها كريستيانا، زوجة كريستيان، ذلك الحاج الشهير الذي عومل هو وشقيقه فيثفول معاملةً مخزية في بلدتنا."

عندها وقفوا مذهولين، قائلين: "لم نتوقع رؤية كريستيانا عندما جاءت غريس لدعوتنا؛ لذا فهذه مفاجأة سارة للغاية". ثم سألوها عن حالها، وعما إذا كان هؤلاء الشبان أبناء زوجها. ولما أخبرتهم أنهم كذلك، قالوا: "ليجعلكم الملك الذي تحبونه وتخدمونه كأبيكم، وليأخذكم إلى حيث هو بسلام!"

ثم سأل السيد الصادق (بعد أن جلسوا جميعاً) السيد الندم وبقية المجموعة عن الوضع الذي وصلت إليه مدينتهم في الوقت الحاضر.

نأسف. تأكدوا أننا نكون في عجلة من أمرنا في أوقات الذروة. من الصعب الحفاظ على هدوئنا واتزاننا النفسي عندما نكون في حالة من الإرهاق. من يعيش في مكان كهذا، ويتعامل مع من هم مثلنا،

يحتاج إلى تذكير ينبهه إلى ضرورة الانتباه في كل لحظة من حياته.

عزيزي السيد/السيدة، ولكن كيف حال جيرانك من حيث الهدوء؟

على النقيض، هم الآن أكثر اعتدالًا بكثير مما كانوا عليه سابقًا. تعلمون كيف كان يُعامل المسيحي والمؤمن في بلدتنا؛ لكن في الآونة الأخيرة، أقول، أصبحوا أكثر اعتدالًا بكثير. أعتقد أن دماء المؤمن لا تزال تُثقل كاهلهم حتى الآن؛ فمنذ أن أحرقوه، أصبحوا يخجلون من حرق أي شخص آخر. في تلك الأيام، كنا نخشى السير في الشارع؛ أما الآن فيمكننا أن نرفع رؤوسنا. في ذلك الوقت، كان اسم المسيحي مكروهًا؛ أما الآن، وخاصة في بعض أجزاء بلدتنا (لأنكم تعلمون أن بلدتنا كبيرة)، يُعتبر الدين شرفًا.

ثم قال لهم السيد كونتريت: "أرجوكم، كيف حالكم في رحلتكم؟ كيف حال البلاد تجاهكم؟"

يا سيدي، يحدث لنا ما يحدث للمسافرين: أحيانًا يكون طريقنا ممهدًا، وأحيانًا يكون صعودًا، وأحيانًا يكون نزولًا؛ نادرًا ما نكون على يقين. لا يكون الريح دائمًا في ظهورنا، وليس كل من نلتقيه في الطريق صديقًا. لقد واجهنا بعض الصعوبات الملحوظة بالفعل، وما ينتظرنا لا نعلمه؛ ولكن في أغلب الأحيان نجد أن المقولة القديمة صحيحة: "لا بد للرجل الصالح أن يتحمل المشقة".

المخالف: أنت تتحدث عن الاحتكاكات؛ ما هي الاحتكاكات التي واجهتها؟

السيد ناي المحترم، اسأل السيد غريت هارت، دليلنا؛ لأنه يستطيع أن يقدم أفضل شرح لذلك.

عظيم. لقد تعرضنا للمضايقات ثلاث أو أربع مرات بالفعل. أولًا، حاصر رجلان شريران كريستيانا وأطفالها، وخافوا أن يقتلوهما. ثم حاصرنا العملاق الدموي، والعملاق المطرقة، والعملاق القاتل. في الواقع، كنا نحن من حاصرنا الأخير أكثر مما حاصرنا. وهكذا كان الأمر: بعد أن مكثنا بعض الوقت في منزل غايوس، مضيفي، ومنزل الكنيسة بأكملها، قررنا أن نأخذ أسلحتنا معنا، ونذهب لنرى إن كان بإمكاننا العثور على أي من أعداء الحجاج؛ لأننا سمعنا أن هناك عدوًا بارزًا في الجوار. وكان غايوس يعرف مخبئه أفضل مني، لأنه كان يسكن هناك. فبحثنا، وبحثنا، حتى رأينا أخيرًا مدخل كهفه؛ عندها فرحنا واستعدنا عزيمتنا. فاقتربنا من عرينه؛ وإذا بنا! عندما وصلنا إلى هناك، كان قد جرّ، بالقوة وحدها، هذا الرجل المسكين، السيد ضعيف العقل، إلى شباكه، وكان على وشك قتله. ولكن، عندما رآنا، ظنّ، كما اعتقد، أنه قد اصطاد فريسة أخرى،

فترك الرجل المسكين في بيته، وخرج. فانقضضنا عليه بكل قوتنا، وانهال عليه ضربًا مبرحًا؛ ولكن في النهاية، سقط أرضًا، وقُطِع رأسه، ووُضع على جانب الطريق، ليكون عبرة لمن قد يرتكب مثل هذه الفاحشة بعد ذلك. أقول لكم الحقيقة، ها هو الرجل نفسه يشهد بذلك، الذي كان كحملٍ أُخذ من فم الأسد.

ضعيف. ثم قال السيد ضعيف العقل: "لقد وجدت هذا صحيحًا، على حسابي وراحتي: على حسابي، عندما هدد بتقشير عظامي في كل لحظة؛ وعلى راحتي، عندما رأيت السيد عظيم القلب وأصدقائه بأسلحتهم يقتربون جدًا لإنقاذي."

ثم قال الرجل المتدين: "هناك شيئان يجب أن يتحلى بهما من يذهبون للحج - الشجاعة والحياة الطاهرة. إذا لم تكن لديهم الشجاعة، فلن يتمكنوا من الثبات على طريقهم؛ وإذا كانت حياتهم فاسدة، فسوف يلطخون سمعة الحاج نفسه. "

، هناك الكثير ممن يسلكون الطريق، والذين يفضلون أن يعلنوا أنفسهم غرباء عن الحج بدلاً من أن يكونوا غرباء وحجاجاً على الأرض."

تجرأ. ثم قال السيد لا يجرؤ على الكذب: "هذا صحيح. ليس لديهم لا لباس الحاج ولا شجاعة الحاج: إنهم لا يسيرون باستقامة، بل جميعهم يمشون بشكل خاطئ بأقدامهم؛ حذاء يذهب إلى الداخل، وآخر إلى الخارج، وجواربهم تخرج من الخلف؛ هناك خرقة، وهناك تمزق، مما يسيء إلى ربهم."

السيد التائب: "هذه الأمور ينبغي أن تُقلقهم؛ ولن يحظى الحجاج بتلك النعمة عليهم وعلى تقدمهم في الحج كما يرغبون، حتى يتم تنظيف الطريق من هذه البقع والعيوب".

وهكذا جلسوا يتحدثون ويقضون الوقت حتى تم وضع العشاء على المائدة، فذهبوا إليه، وأعادوا تنشيط أجسادهم المتعبة؛ ثم ذهبوا للراحة.

غريس وصموئيل

والآن، مكثوا في هذا السوق لفترة طويلة، في منزل منسون، الذي زوّج ابنته غريس مع مرور الوقت إلى صموئيل، ابن كريستيانا، وزوّج ابنته مارثا إلى يوسف.

كما ذكرتُ، كانت إقامتهم هنا طويلة، فالوضع لم يكن كما كان في السابق. ولذلك، تعرّف الحجاج على العديد من أهل البلدة الطيبين، وقدّموا لهم ما استطاعوا من خدمات. وكعادتها، كرّست ميرسي نفسها لخدمة الفقراء، فكانت أجسادهم وظهورهم تُباركها، وكانت

زينةً لمهنتها. أما غريس وفيبي ومارثا، فقد كنّ جميعًا ذوات أخلاقٍ رفيعة، وقدّمن الكثير من الخير في أماكنهن. كما كنّ جميعًا مثمراتٍ للغاية، حتى أن اسم كريستيان، كما ذُكر سابقًا، كان سيخلد في هذا العالم.

وبينما كانوا مستلقين هنا، خرج وحش من الغابة، فقتل الكثير من أهل البلدة. وكان يخطف أطفالهم ويعلمهم الرضاعة من صغاره. ولم يجرؤ أحد في البلدة على مواجهة هذا الوحش، بل فرّ الجميع عندما سمعوا صوت قدومه.

كان الوحش لا يُشبه أي وحش على وجه الأرض. كان جسده كالتنين، وله سبعة رؤوس وعشرة قرون. ألحق دمارًا هائلًا بالأطفال، ومع ذلك كانت تحكمه امرأة. فرض هذا الوحش شروطًا على الرجال، ومن أحبوا حياتهم أكثر من أرواحهم قبلوا تلك الشروط، فخضعوا لها.

والآن، دخل السيد غريت هارت، مع أولئك الذين جاؤوا لزيارة الحجاج في منزل السيد مناسون، في عهد للذهاب ومواجهة هذا الوحش، لعلهم ينقذون أهل هذه المدينة من مخالب وفم هذه الأفعى المفترسة.

ثم خرج السيد ذو القلب الكبير، والسيد التائب، والسيد المتدين، والسيد الذي لا يجرؤ على الكذب، والسيد التائب، بأسلحتهم لمواجهته. في البداية، كان الوحش في حالة هياج شديد، ونظر إلى هؤلاء الأعداء بازدراء كبير؛ لكنهم، لكونهم رجالًا أشداء، أرهقوه بشدة، حتى أجبروه على التراجع. وهكذا عادوا إلى منزل السيد مناسون.

مارثا ويوسف

لا شك أن الوحش كان يظهر في مواسم محددة ليشن هجماته على أطفال أهل البلدة. وفي تلك المواسم، كان هؤلاء الأبطال الشجعان يراقبونه ويهاجمونه باستمرار، حتى أنه مع مرور الوقت لم يُصب بالجروح فحسب، بل أصبح أعرج. كما أنه لم يعد يُلحق الضرر بأطفال البلدة كما كان يفعل سابقًا، ويعتقد البعض أن هذا الوحش سيموت متأثرًا بجراحه.

لذا، اكتسب السيد غريت هارت ورفاقه شهرة واسعة في هذه البلدة؛ حتى أن الكثيرين ممن كانوا يرغبون في تجربة مغامراتهم، كانوا يكنّون لهم احترامًا وتقديرًا كبيرين. ولهذا السبب، لم يتعرض هؤلاء الحجاج لأذى كبير هنا. صحيح أن بعض الناس كانوا من ذوي الطباع الدنيئة، الذين لا يرون أكثر من حيوان، ولا يفهمون

أكثر من حيوان؛ لم يكن لهؤلاء الرجال أي احترام، ولم يلتفتوا إلى شجاعتهم أو مغامراتهم.

حان وقت رحيل الحجاج، فاستعدوا لرحلتهم. استدعوا أصدقاءهم، وتحدثوا معهم، وخصصوا وقتًا ليعهدوا فيه بحماية أميرهم. ثم جاء من أحضر لهم ما لديهم من متاع، ما يناسب الضعفاء والأقوياء، والنساء والرجال، وزودهم بما يلزمهم. ثم انطلقوا في طريقهم، ورافقهم أصدقاؤهم قدر استطاعتهم، ثم عهدوا بحماية ملكهم، وافترقوا.

لذلك، واصل من كانوا برفقة الحجاج سيرهم، وتقدمهم السيد ذو القلب الكبير. ولأن النساء والأطفال كانوا ضعفاء، فقد اضطروا إلى السير حسب قدرتهم على التحمل؛ مما زاد من تعاطف السيد المتردد والسيد ضعيف العقل مع حالتهم.

بعد أن ابتعدوا عن أهل البلدة، وبعد أن ودّعهم أصدقاؤهم، سارعوا إلى المكان الذي أُعدم فيه فيفتفول. هناك، وقفوا شاكرين الله الذي مكّنه من تحمّل صليبه بصبرٍ وجلد، لا سيما وأنهم وجدوا في معاناته الشجاعة فائدةً لهم.

ثم تابعوا بعد ذلك الحديث عن كريستيان وفيثفول، وكيف انضم هيلبفول إلى كريستيان بعد وفاة فيثفول.

ثم وصلوا إلى تل لوكر، حيث كان منجم الفضة الذي صرف ديماس عن رحلته، والذي يُعتقد أن باي-إندز سقط فيه وهلك؛ ولذلك فكروا في ذلك. ولكن عندما وصلوا إلى النصب التذكاري القديم المقابل لتل لوكر، وهو عمود الملح، الذي كان يقع أيضًا على مرأى من سدوم وبحيرتها النتنة، تعجبوا، كما تعجب كريستيان من قبل، كيف لرجالٍ على قدرٍ من المعرفة والنضج الفكري مثلهم أن يكونوا عميانًا إلى هذا الحدّ فيتجاهلوا هذا الأمر.

الفصل الثامن.

الجبال الشهية والرعاة.

رأيت الآن أنهم استمروا حتى وصلوا إلى النهر الذي كان على هذا الجانب من الجبال البهيجة؛ إلى النهر حيث تنمو الأشجار الجميلة على كلا الجانبين، وأوراقها، إذا أخذت إلى الداخل، مفيدة ضد المرض؛ حيث تكون المروج خضراء طوال العام، وحيث يمكنهم الاستلقاء بأمان.

على ضفة هذا النهر، في المرج، كانت هناك حظائر وأزقة للأغنام، وبيتٌ بُني لإطعام وتربية تلك الحملان، أطفال النساء اللواتي يذهبن

للحج. وكان هناك أيضًا من أؤتمن عليها، من يملك الرحمة، ويستطيع أن يجمع هذه الحملان بذراعه، ويحملها في حضنه، ويقود برفقٍ من كانت مع صغارها.

أوصت كريستيانا بناتها الأربع أن يودعن أطفالهن الصغار عند هذا الرجل، ليؤووا ويرعوا ويعينوا ويغذوا، فلا ينقصهم شيء في المستقبل. هذا الرجل، إن ضلّ أحدهم أو ضاع، سيردّه إليه، وسيجبر ما انكسر، ويقوّي المريض. هنا لن ينقصهم طعام ولا شراب ولا كساء، وهنا سيحفظهم من اللصوص والقطاع، لأن هذا الرجل سيموت قبل أن يضيع أحد ممن أوكلوا إليه أمرهم. إضافة إلى ذلك، سيحظون هنا بتربية وتدريب جيدين، وسيتعلمون السير في الدروب القويمة، وهذا، كما تعلمون، فضل عظيم. وهنا أيضاً، كما ترون، مياه عذبة، ومروج وارفة، وأزهار بديعة، وأشجار متنوعة، منها ما يثمر ثماراً طيبة، ليست كالثمرة التي أكلها متى، والتي سقطت من فوق سور حديقة بعلزبول. لكنها ثمرةٌ تُعطي الصحة حيث لا صحة، وتُديمها وتزيدها حيث توجد. لذلك رضيوا أن يُودعوا صغارهم عنده؛ ومما شجعهم على ذلك أن كل هذا سيكون على نفقة الملك، كما هو الحال في مستشفى للأطفال الصغار والأيتام.

قلعة الشك

ثم مضوا. ولما وصلوا إلى مرج الطريق الجانبي، إلى المَعْلَم الذي عبره كريستيان مع رفيقه الأمل، حين أسرهم العملاق اليأس وأودعهم قلعة الشك، جلسوا وتشاوروا فيما هو خيرٌ لهم؛ أي أنهم الآن في أوج قوتهم، وقد استعانوا برجلٍ كالسيد القلب العظيم قائدًا لهم، فتساءلوا إن كان من الأفضل لهم أن يحاولوا مهاجمة العملاق، وهدم قلعته، وإن كان فيها من الحجاج، أن يطلقوا سراحهم، قبل أن يتقدموا أكثر. فقال أحدهم شيئًا، وقال آخر عكسه. وتساءل أحدهم إن كان جائزًا لهم السير على أرضٍ ليست ملكًا للملك؛ وقال آخر إنه يجوز لهم ذلك بشرط أن تكون غايتهم حسنة. لكن السيد ذو القلب الكبير قال: "مع أن السبب الأخير لا يمكن أن يكون صحيحًا دائمًا، إلا أنني مُلزم بمقاومة الخطيئة، والتغلب على الشر، وخوض معركة الإيمان الحسنة؛ وأسأل الله، مع من أخوض هذه المعركة الحسنة إن لم يكن مع العملاق اليأس؟ لذلك سأحاول قتله وهدم قلعة الشك." ثم قال: "من سيذهب معي؟" فقال العجوز الصادق: "أنا سأذهب." فقال أبناء كريستيانا الأربعة، متى، وصموئيل، ويوسف، ويعقوب: "ونحن أيضًا سنذهب معهم"، لأنهم كانوا شبابًا أقوياء. فتركوا النساء في الطريق، ومعهم السيد ضعيف العقل والسيد سريع التوقف، بعكازيه، ليحرسوهن حتى

عودتهن؛ لأنه في ذلك المكان، مع أن العملاق اليأس كان يسكن قريبًا جدًا، إلا أنهم، ببقائهم في الطريق، "قد يقودهم طفل صغير."

ذهب السيد ذو القلب الكبير، والرجل الصادق العجوز، والشبان الأربعة إلى قلعة الشك، بحثًا عن العملاق اليأس. ولما وصلوا إلى بوابة القلعة، طرقوا بابها بصوتٍ غريب. عندئذٍ، فتح العملاق العجوز البوابة، وتبعته زوجته الخجولة. فقال: "من ذا الذي يجرؤ على إزعاج العملاق اليأس بهذه الطريقة؟"

أجاب السيد غريت هارت: "أنا غريت هارت، أحد قادة الحجاج التابعين لملك البلاد السماوية إلى مكانهم؛ وأطالبك أن تفتح أبوابك لدخولي؛ استعد أنت أيضاً للقتال، لأني جئت لأقطع رأسك، ولأهدم قلعة الشك".

يأسٌ عظيمٌ يُقطع رأسه

الآن، ظنّ العملاقِ اليأس، لكونه عملاقًا، أنه لا أحد يستطيع التغلب عليه؛ وفكّر ثانيةً: "بما أنني انتصرت على الملائكة من قبل، فهل يُخيفني القلب العظيم؟" فارتدى درعه وخرج. كان يرتدي خوذةً فولاذيةً على رأسه، ودرعًا ناريًا حول صدره، وخرج مرتديًا حذاءً حديديًا، وفي يده هراوةٌ ضخمة. ثمّ تقدّم نحوه ستة رجال، وأحاطوا به من خلفه ومن أمامه؛ وعندما تقدّمت العملاقة الخجولة لمساعدته، قضى عليها السيد الصادق بضربةٍ واحدة. ثمّ تقاتلوا من أجل البقاء، وسقط العملاق اليأس أرضًا، لكنه كان يكره الموت بشدة. كافح بشدة، وكان له، كما يُقال، أرواحٌ كثيرةٌ كقطة؛ لكن القلب العظيم كان سبب موته، إذ لم يتركه حتى فصل رأسه عن كتفيه.

ثم شرعوا في هدم قلعة الشك، وكان ذلك، كما تعلمون، سهلاً، إذ كان العملاق اليأس قد مات. استغرقوا سبعة أيام في تدميرها؛ ووجدوا فيها من بين الحجاج السيد اليأس، على وشك الموت جوعاً، وابنته التي كانت خائفة جداً: أنقذوا هذين الاثنين. لكنك كنت ستتعجب لو رأيت الجثث المتناثرة هنا وهناك في ساحة القلعة، وكيف كانت الزنزانة مليئة بعظام الموتى.

عندما أنجز السيد ذو القلب العظيم ورفاقه هذا العمل العظيم، أخذوا السيد اليأس وابنته الخائفة جداً في رعايتهم؛ لأنهم كانوا أناساً صادقين، على الرغم من أنهم كانوا سجناء في قلعة الشك لذلك الطاغية العملاق اليأس.

لذلك، كما أقول، أخذوا معهم رأس العملاق (إذ دفنوا جسده تحت كومة من الحجارة)، ونزلوا إلى الطريق وأتوا إلى رفاقهم، وأروهم ما فعلوه. ولما رأى ضعيف العقل ومستعد للتوقف أنه رأس عملاق

اليـأس، ابتهجـوا فرحًـا عظيمًـا. وكانـت كريسـتيانا، إن لـزم الأمـر، تعـزف علـى الكمـان، وابنتهـا ميرسـي علـى العـود؛ ولأنهـم كـانوا مـرحين للغايـة، عزفـت لهـم درسًـا، وكـان مسـتعد للتوقـف يـرقص. فأخـذ ابنـة اليـأس، شـديدة الخـوف، بيـده، وانطلقـوا يرقصـون فـي الطريـق. صـحيح أنـه لـم يسـتطع الـرقص دون عكـاز فـي يـده، لكننـي أؤكـد لكـم أنـه كـان يـرقص برشـاقة؛ كمـا أن الفتـاة تسـتحق الثنـاء، فقـد استجابت للموسيقى بشكل جميل.

أمـا السـيد ديسبوندنسـي، فلـم تكـن الموسـيقى تعنـي لـه الكثيـر؛ فقـد كـان يبحـث عـن الطعـام أكثـر مـن الـرقص، لأنـه كـان علـى وشـك المـوت جوعـاً. فأعطتــه كريسـتيانا بعضــاً مــن زجاجــة مشـروبها الكحـولي لتخفيـف معاناتـه مؤقتـاً، ثـم أعـدت لـه طعامـاً؛ وبعـد قليـل اسـتعاد الرجـل العجوز وعيه، وبدأ يستعيد نشاطه تدريجياً.

رأيـتُ فـي حلمـي، بعـد انتهـاء كـل هـذه الأمـور، أن السـيد "القلـب العظـيم" أخـذ رأس "عمـلاق اليـأس" ووضـعه علـى عمـود بجانـب الطريـق السـريع، مقابـل العمـود الـذي أقامـه كريسـتيان لتحـذير الحجـاج القـادمين مـن دخـول أرضـه. ثـم كتـب تحتـه، علـى حجـر رخامي، هذه الأبيات:

هـذا رأس مـن كـان اسـمه وحـده يُرعـب الحجـاج فـي سـالف الزمـان؛ قلعتـه سـقطت، وزوجتـه الخجولـة فقـدت حياتهـا، وكـذلك قلبـه الكبيـر الشـجاع. ابنتـه اليائسـة خائفـة، وقـد لعـب القلـب الكبيـر مـن أجلهمـا أيضًـا. مـن يشـك فـي ذلـك، فليُلـقِ نظـرةً إلـى هنـا، لعلّ شكوكه تُطمئنـه. هـذا الـرأس أيضًـا، عنـدما يـرقصَ المعـاقون الشـاكّون، يُظهـر أنهـم قـد نالوا الخلاص من مخاوفهم.

الجبال الشهية

بعـد أن أظهـر هـؤلاء الرجـال شـجاعةً فائقـةً فـي مواجهـة قلعـة الشـك، وقتلـوا عمـلاق اليـأس، تقـدموا حتـى وصـلوا إلـى الجبـال البهيجـة، حيـث اسـتراح كريسـتيان وهوبفـول مـن تنـوع المكـان. كمـا تعرفـوا علـى الرعـاة هنـاك، الـذين رحبـوا بهـم، كمـا رحبـوا بكريسـتيان مـن قبل، في الجبال البهيجة.

ولمـا رأى الرعـاة هـذا الموكـب الكبيـر يتبـع السـيد غريـت هـارت (لأنهـم كـانوا يعرفونـه جيـداً)، قـالوا لـه: "سـيدي الكـريم، لـديك هنـا رفقـة كريمة؛ من فضلك، من أين أتيت بكل هؤلاء؟"

ثم أجاب السيد ذو القلب الكبير:

أولًا، هــا هــي كريســتيانا وموكبهــا، أبناؤهــا وزوجــاتهم، الــذين، كالعربــة، يتمسـكون بـالعمود، ويهتـدون بالبوصـلة مـن الخطيئـة إلـى

النعمة؛ وإلا لما كانوا هنا. ثانيًا، ها هو ذا الصادق العجوز قادمًا في رحلة حج، مستعد للتوقف أيضًا، والذي أجرؤ على مخاطبته. إنه صادق القلب، وكذلك ضعيف العقل، الذي لم يكن راغبًا في التخلف عن الركب. اليأس، أيها الرجل الصالح، قادم بعدنا، وكذلك ابنته الخائفة جدًا. هل يمكننا الاستمتاع هنا، أم يجب أن نذهب أبعد من ذلك؟ دعونا نعرف على من نثق.

فرقة الرعاة الترفيهية

ثم قال الرعاة: "هذه صحبة طيبة. أهلاً وسهلاً بكم، فنحن نهتم بالضعفاء كما نهتم بالأقوياء. أميرنا يراقب ما يُفعل لأضعفهم؛ لذا لا ينبغي أن يكون الضعف عائقاً أمام ضيافتنا". ثم أوصلوهم إلى باب القصر، وقالوا لهم: "تفضل بالدخول يا ضعيف العقل، تفضل بالدخول يا متردد، تفضل بالدخول يا يائس وابنته السيدة الخائفة. أما هؤلاء يا صاحب القلب الكبير،" قال الرعاة للدليل، "فنحن نناديهم بأسمائهم، لأنهم أكثر عرضة للتراجع؛ أما أنت وبقية الأقوياء، فنتركهم لحريتكم المعتادة".

ثم قال السيد ذو القلب العظيم: "أرى اليوم أن النعمة تشرق في وجوهكم، وأنكم رعاة سيدي حقًا؛ لأنكم لم تدفعوا هؤلاء العاجزين لا من جانبكم ولا من أكتافكم، بل نثرتم طريقهم إلى القصر بالزهور، كما ينبغي لكم".

فدخل الضعفاء والمحتاجون، وتبعهم السيد ذو القلب الكبير وبقية المجموعة. ولما جلسوا، سأل الرعاة الضعفاء: "ماذا تريدون؟ فكل شيء هنا يُدبّر لدعم الضعفاء، وتنبيه المشاغبين". فأعدوا لهم وليمة من أطعمة سهلة الهضم، لذيذة المذاق، ومغذية. وبعد أن تناولوها، ذهبوا إلى راحتهم، كلٌّ في مكانه المخصص.

عندما حل الصباح، ولأن الجبال كانت قريبة واليوم كان صافياً، ولأن عادة الرعاة كانت أن يعرضوا على الحجاج قبل رحيلهم بعض الأشياء النادرة؛ لذلك، بعد أن أصبحوا مستعدين واستراحوا، أخذهم الرعاة إلى الحقول، وأروهم أولاً ما عرضوه على كريستيان من قبل.

ثم اصطحبوهم إلى أماكن جديدة. أولها جبل مارفل، حيث نظروا فرأوا رجلاً من بعيد يُزلزل التلال بكلماته. فسألوا الرعاة عن معنى ذلك، فأخبروهم أن هذا الرجل هو ابن السيد غريت غريس الذي قرأتم عنه في الجزء الأول من سجلات تقدم الحجاج، وأنه موجود هناك ليعلم الحجاج كيف يؤمنون، أو كيف يتجاوزون الصعوبات التي قد تواجههم بالإيمان. فقال السيد غريت هارت: "أعرفه، إنه رجلٌ فوق كثيرين".

ثـم اقتـادوهم إلـى مكـان آخـر يُـدعى جبـل البـراءة، وهنـاك رأوا رجـلاً يرتـدي ثوبـاً أبـيض بالكامـل، ورجلـين، أحـدهما يُـدعى التحيـز والآخـر يُـدعى الحقـد، يُلقيـان عليهمـا التـراب باسـتمرار. وهـا هـو التـراب، أيـاً كـان مـا ألقـوه عليـه، يتسـاقط بعـد قليـل، فيبـدو ثوبـه نقيـاً كأنـه لـم يُلـقَ عليه شيء. فقال الحجاج: "ما معنى هذا؟"

أجـاب الرعـاة: "هـذا الرجـل يُـدعى الرجـل التقـي، وهـذا الثـوب دليـل علـى بـراءة حياتـه. أمـا الـذين يرمونـه بـالتراب فهـم كـارهون لفعلـه الصـالح، ولكـن كمـا تـرون، لـن يلتصـق التـراب بثيابـه، وهكـذا سـيكون حـال مـن يعـيش حيـاةً بريئـةً حقًـا فـي هـذا العـالم. أيًـا كـان مـن يحـاول تـدنيس مثـل هـؤلاء الرجـال، فـإن جهـودهم تـذهب سـدى، لأن الله، مـع مـرور الوقــت، سـيجعل بــراءتهم تشــرق كــالنور، وبــرّهم كضــوء النهار."

ثـم أخـذوهم، وأوصـلوهم إلـى جبـل المحبـة، حيـث أروهـم رجـلاً كانـت أمامـه حزمـة مـن القمـاش، كـان يقطـع منهـا معـاطف وملابـس للفقـراء الـذين كـانوا يقفـون حولـه؛ ومـع ذلـك، لـم تكـن حزمـة القمـاش أو لفافته أقل من ذلك.

ثم قالوا: "ماذا ينبغي أن يكون هذا؟"

قـال الرعـاة: "هـذا دليـل علـى أن مـن يملـك قلبـاً يبـذل فيـه مـن جهـده لمسـاعدة الفقـراء، لـن ينقصـه شـيء. مـن يسـقي يُسـقى. والكعكـة التـي أعطتها الأرملة للنبي لم تنقص من جرتها شيئاً".

أخـذوهم إلـى مكـانٍ رأوا فيـه رجـلاً أحمـقَ ورجـلاً غبيًـا يغسـلان رجـلاً حبشـيًّا قاصـدين تبييضـه، ولكـن كلمـا غسـلاه ازداد سـوادًا. فسـألوا الرعـاة عـن معنـى ذلـك، فأجـابوهم قـائلين: «هكـذا يكـون حـال الرجـل الـدنيء: فكـل الوسـائل التـي تُسـتخدم لتحسـين سـمعته لا تـؤدي فـي النهايـة إلا إلـى جعلـه أكثـر بشـاعة. هكـذا كـان حـال الفريسـيين، وهكـذا يكون حال كل من يدّعي التدين».

ثـم قالـت ميرسـي، زوجـة متـى، لأمهـا كريسـتيانا: "يـا أمـي، لـو أمكننـي، لرأيـتُ الحفـرة فـي التـل، أو مـا يُعـرف عـادةً بطريـق جهـنم". فـأخبرت أمهـا الرعـاة. فـذهبوا إلـى البـاب، وكـان فـي جانـب التـل، ففتحـوه، وطلبـوا مـن ميرسـي أن تصـغي قلـيلًا. فأصـغت، وسـمعت أحـدهم يقـول: "ملعـون أبـي لأنـه منعنـي مـن طريـق السـلام والحيـاة". وقـال آخـر: "ليتنـي مُزّقـتُ إربًـا قبـل أن أفقـد روحـي لأنجـو بحيـاتي!". وقـال آخـر: "لـو عُـدتُ إلـى الحيـاة، كيـف لـي أن أنكـر نفسـي بـدلًا مـن المجـيء إلـى هـذا المكـان!". حينهـا كـأن الأرض اهتـزت تحـت قـدمي هـذه الشـابة مـن الخـوف، فشـحب وجههـا، وعـادت ترتجـف، قائلـة: "طوبى لمن يُنجى من هذا المكان".

الزجاج العظيم

بعد أن أراهم الرعاة كل هذه الأشياء، أعادوهم إلى القصر، وأكرموهم بما تيسر من الطعام. لكن ميرسي تمنت شيئًا رأته هناك، لكنها خجلت من طلبه. فسألتها حماتها عما بها، لأنها بدت مريضة. فقالت ميرسي: "هناك مرآة معلقة في غرفة الطعام، لا أستطيع أن أرفع عيني عنها؛ لذا إن لم أحصل عليها، فسأكون حزينة". فقالت لها أمها: "سأخبر الرعاة برغبتك، ولن يرفضوها لكِ". لكنها قالت: "أخجل من أن يعلم هؤلاء الرجال برغبتي". فقالت لها: "لا يا ابنتي، ليس عيبًا، بل فضيلة، أن تشتاقي لشيء كهذا". فقالت ميرسي: "إذن يا أمي، إن سمحتِ، اسألي الرعاة إن كانوا يرغبون في بيعها".

كانت تلك المرآة واحدة من بين ألف مرآة. تُظهر الرجل، من جهة، بملامحه الحقيقية تمامًا؛ وبقلبها من جهة أخرى، تُظهر وجه أمير الحجاج وصورته. نعم، لقد تحدثتُ مع من يعرفون الحقيقة، وقالوا إنهم رأوا إكليل الشوك على رأسه، من خلال النظر في تلك المرآة؛ ورأوا فيها أيضًا ثقوب يديه وقدميه وجنبه. نعم، تتمتع هذه المرآة ببراعة فائقة، فهي تُظهره لمن يرغب في رؤيته، حيًا كان أم ميتًا، على الأرض أم في السماء، في حالة التواضع أم في عظمته، سواء أكان آتيًا للمعاناة أم آتيًا للملك.

لذلك ذهبت كريستيانا إلى الرعاة على انفراد - (وكانت أسماء الرعاة هي المعرفة والخبرة واليقظة والإخلاص) - وقالت لهم: "هناك إحدى بناتي، أعتقد أنها تتوق إلى شيء رأته في هذا المنزل، وتعتقد أنها ستكون تعيسة إذا حرمتموها منه".

الخبرة. اتصلوا بها، اتصلوا بها؛ ستحصل بالتأكيد على ما نستطيع مساعدتها به. فنادوها وقالوا لها: "يا ميرسي، ما الذي تريدينه؟" فاحمرّ وجهها وقالت: "المرآة الكبيرة المعلقة في غرفة الطعام". فركض سينسير وأحضرها، وأُعطيت لها بفرح. ثم انحنت شاكرةً وقالت: "بهذا أعلم أنني نلتُ حظوةً عندكم".

كما قدموا للشابات الأخريات ما يشتهين، وأثنوا على أزواجهن ثناءً عظيماً لانضمامهم إلى القلب العظيم في قتل العملاق اليأس وتدمير قلعة الشك.

وضع الرعاة قلادة حول عنق كريستيانا، وكذلك فعلوا حول أعناق بناتها الأربع؛ كما وضعوا أقراطاً في آذانهن، وجواهر على جباههن.

يتركون الرعاة

عندما قرروا الرحيل، تركوهم يذهبون بسلام، لكنهم لم يوجهوا إليهم تلك التحذيرات التي سبق أن وُجهت إلى كريستيان ورفيقه. والسبب هو أن هؤلاء كان لديهم غريت هارت مرشدًا لهم، وهو شخصٌ مُلِمٌّ بالأمور، وبالتالي كان بإمكانه توجيه تحذيراته في الوقت المناسب؛ أي حتى عندما كان الخطر وشيكًا. أما التحذيرات التي تلقاها كريستيان ورفيقه من الرعاة، فقد فقدوها أيضًا بحلول الوقت الذي حان فيه وقت تطبيقها. ومن هنا، كانت هذه هي الميزة التي تمتعت بها هذه المجموعة على غيرها.

ومن ثم استمروا في الغناء، وقالوا:

انظروا كيف تم إعداد المسارح بشكل مناسب، لتخفيف معاناة الحجاج، وكيف يستقبلوننا دون أن يتركوا أحداً [11] مما يجعل الحياة الأخرى علامتنا وموطننا!

"ما لديهم من جديد، يقدمونه لنا، حتى نعيش حياة سعيدة رغم كوننا حجاجاً؛ إنهم يمنحوننا أيضاً أشياءً تُظهر أننا حجاج أينما ذهبنا."

بعد أن ابتعدوا عن الرعاة، وصلوا سريعًا إلى المكان الذي التقى فيه كريستيان برجلٍ مرتدٍّ كان يسكن في بلدة الردة. ولذلك، ذكّرهم به السيد غريت هارت، دليلهم، قائلًا: "هذا هو المكان الذي التقى فيه كريستيان برجلٍ مرتدٍّ، كان يحمل في طياته سمة تمرده. وهذا ما أقوله عن هذا الرجل: لم يكن يصغي لأي نصيحة، فإذا ما وقع في الخطيئة، لم يثنه عنها أي إقناع. ولما وصل إلى مكان الصليب والقبر، التقى برجلٍ نصحه بالنظر هناك، لكنه صرّ على أسنانه وداس بقدميه، وقال إنه عازم على العودة إلى بلدته. وقبل أن يصل إلى البوابة، التقى بالإنجيلي الذي عرض عليه أن يضع يده عليه ليعيده إلى الطريق الصحيح. لكن هذا الرجل المرتد قاومه، وبعد أن ألحق به أذىً بالغًا، هرب من فوق السور، ونجا من قبضته."

قابلوا الشجعان من أجل الحقيقة

ثم تابعوا سيرهم؛ وفي المكان الذي سُرقت فيه ليتل-فيث سابقًا، كان يقف رجلٌ سيفه مسلول، ووجهه ملطخ بالدماء. فقال السيد جريت-هارت: "من أنت؟" أجاب الرجل قائلاً: "أنا رجلٌ يُدعى شجاع الحق. أنا حاجٌّ ذاهبٌ إلى المدينة السماوية. وبينما كنتُ في طريقي، أحاط بي ثلاثة رجال، وعرضوا عليّ ثلاثة أمور: 1. هل أنضم إليهم؟ 2. أم أعود إلى المكان الذي أتيتُ منه؟ 3. أم أموت في هذا المكان؟ فأجبتُ على الأول: لقد كنتُ رجلاً صادقاً لفترة طويلة، ولذلك لا يُعقل أن أُقحم نفسي الآن مع اللصوص. ثم سألوني ماذا أقول للثاني. فأخبرتهم أن المكان الذي أتيتُ منه، لو

لم أجده غير مُرضٍ لما تركته أبدًا؛ ولكن لما وجدته غير مناسب لي تمامًا، وغير مُجدٍ لي على الإطلاق، تركته من أجل هذا الطريق. ثم سألوني ماذا أقول للثالث. فأخبرتهم أن حياتي أغلى بكثير من أن أُفرِّط بها بسهولة. بالإضافة إلى أنتم ليس لي أي حق في التدخل في شؤونك، لذا فإن تدخلك محفوف بالمخاطر. ثم قام هؤلاء الثلاثة، وهم: المتهور، والمتهور، والبراغماتي، بسحب أسلحتهم نحوي، وسحبت سلاحي نحوهم. وهكذا اشتبكنا، واحد ضد ثلاثة، لأكثر من ثلاث ساعات. لقد تركوا عليّ، كما ترى، بعض آثار شجاعتهم، وأخذوا معهم بعضًا من آثار شجاعتي. لقد رحلوا للتو: أظن أنهم، كما يقول المثل، سمعوا صهيل حصانك، فانطلقوا هاربين.

كم كان فاليانت مملاً!

عظيم. لكن كانت الاحتمالات ضئيلة للغاية، ثلاثة ضد واحد.

شجاع. هذا صحيح؛ لكن القليل أو الكثير لا يُساوي شيئًا لمن يملك الحق. قال أحدهم: "لو حاصرني جيش، فلن يخاف قلبي؛ ولو قامت الحرب ضدي، فسأكون واثقًا من ذلك. ثم قال: "قرأت في بعض السجلات أن رجلاً واحدًا حارب جيشًا؛ وكم قتل شمشون بفك حمار؟"

عظيم. ثم قال المرشد: "لماذا لم تصرخ، لعلّ أحدهم يأتي لنجدتك؟"

شجاع. وهكذا فعلت، إلى ملكي، الذي كنت أعلم أنه يستطيع سماعي، وتقديم المساعدة الخفية؛ وكان ذلك كافياً بالنسبة لي.

عظيم. ثم قال صاحب القلب العظيم للسيد الشجاع الصادق: "لقد تصرفتَ بشرف. دعني أرى سيفك". فأراه إياه. ولما أخذه بيده، ونظر إليه لبرهة، قال: "ها! إنه سيف القدس الأصيل".

شجاع. هذا صحيح. فليكن لدى الرجل سيف من هذه السيوف، ويدٌ ماهرةٌ في حمله، ومهارةٌ في استخدامه، وليجازف بمواجهة ملاكٍ به. لا داعي للخوف من مسكه، إن عرف كيف يستخدمه. لن تكلله حوافه أبدًا. سيقطع اللحم والعظم، والروح والنفس، وكل شيء.

عظيم. لكنك قاتلت لفترة طويلة. أتساءل كيف لم تكن متعباً.

شجاع. قاتلت حتى التصق سيفي بيدي؛ وعندما اتحدا معًا، كما لو أن سيفًا نبت من ذراعي، وعندما سال الدم من بين أصابعي، حينها قاتلت بأقصى درجات الشجاعة.

أحسـنت صـنعاً، لقـد قاومـت حتـى المـوت، مجاهـداً ضـد الخطيئـة. ستبقى بجانبنا، تدخل وتخرج معنا، فنحن رفاقك.

ثـم أخـذوه، وغسـلوا جراحـه، وأعطـوه ممـا عنـدهم ليسـتعيد نشـاطه؛ وهكذا مضوا معاً.

والآن، بينمـا كـانوا يواصـلون سـيرهم، ولأن السـيد غريـت هـارت كـان مسـروراً بـه (لأنـه أحـب كثيـراً مـن وجـده رجـلاً مـن نوعـه)، ولأن هنـاك مـن كـانوا ضـعفاء وضـعفاء فـي صـحبته، فقـد سـأله عـن أشـياء كثيرة؛ أولها، أي بلد هو.

شـجاع. أنـا مـن أرض الظـلام؛ لأننـي ولـدت هنـاك، ولا يـزال أبـي وأمـي هناك.

عظـيم. قـال الـدليل: "الأرض المظلمـة! ألا تقـع علـى نفـس السـاحل مـع مدينة الدمار؟"

شـجاع. نعـم، هـذا صـحيح. أمـا مـا دفعنـي للقيـام بهـذه الرحلـة فهـو التـالي: جاءنـا رجـل يُـدعى "الرجـل الصـادق"، وأخبرنـا بمـا فعلـه كريسـتيان الـذي غـادر مدينـة الخـراب؛ أي كيـف هجـر زوجتـه وأولاده، واتخـذ حيـاة الترحـال. كمـا رُوي، وصُـدِّق، كيـف قتـل أفعـى خرجـت لمقاومتـه فـي رحلتـه؛ وكيـف وصـل إلـى وجهتـه. وقيـل أيضًـا عن الترحيـب الـذي حظـي بـه فـي جميـع مسـاكن سـيده، وخاصـة عنـدما وصـل إلـى أبـواب المدينـة السـماوية؛ إذ قـال الرجـل: "هنـاك، اسـتُقبل بـنفخ البـوق مـن قِبَـل جماعـة مـن الملائكـة". وأخبرنـا أيضًـا كيـف دُقَّـت جميـع أجـراس المدينـة فرحًـا بدخولـه، ومـا هـي الثيـاب الذهبيـة التـي كـان يرتـديها؛ مـع أمـور أخـرى كثيـرة سـأمتنع عـن ذكرهـا الآن. باختصـار، لقـد روى ذلـك الرجـل قصـة كريسـتيان ورحلاتـه بطريقـة جعلـت قلبـي يتـوق بشـدة للحـاق بـه، ولـم يسـتطع أبـي أو أمـي منعـي. وهكذا حصلت عليهما، ووصلت إلى هذه المرحلة من رحلتي.

ممتاز. لقد دخلت من البوابة، أليس كذلك؟

شـجاعة. نعـم، نعـم؛ لأن الرجـل نفسـه أخبرنـا أيضًـا أن كـل شـيء لـن يكون شيئًا إذا لم نبدأ بالدخول من هذا الطريق عند البوابة.

عظـيم. قـال المرشـد إلـى كريسـتيانا: "انظـري، إن رحلـة زوجـك، ومـا حصل عليه من خلالها، قد انتشرت في كل مكان، في كل مكان".

شجاعة. لماذا، هل هذه زوجة كريستيان؟

عظيم. نعم، هذا صحيح، وهؤلاء أيضاً أبناؤه الأربعة.

شجاع. ماذا! ويذهب في رحلة حج أيضًا؟

عظيم. نعم، بالتأكيد، إنهم يتبعونهم.

شجاع. هذا يُسعدني حقًا. يا له من رجل صالح، كم سيكون سعيدًا عندما يرى أولئك الذين لم يذهبوا معه، يدخلون بعده من أبواب المدينة!

عظيم. بلا شك سيكون ذلك مصدر راحة له؛ فإلى جانب فرحة رؤية نفسه هناك، ستكون فرحة لقاء زوجته وأولاده هناك.

شجاع. ولكن، بما أنك قد طرحت هذا الموضوع، أرجو أن تسمح لي بسماع رأيك فيه. يتساءل البعض عما إذا كنا سنتعرف على بعضنا البعض عندما نكون هناك.

عقبات فاليانت

عظيم. هل يظنون أنهم سيعرفون أنفسهم حينها؟ أم أنهم سيفرحون برؤية أنفسهم في تلك السعادة؟ وإذا كانوا يظنون أنهم سيعرفون ويفعلون ذلك، فلماذا لا يعرفون الآخرين، ويفرحون لخيرهم أيضًا؟ مرة أخرى، بما أن العلاقات هي ذاتنا الثانية، مع أن تلك الحالة ستنتهي عند هذا الحد، فلماذا لا نستنتج بحكمة أننا سنكون أكثر سعادة برؤيتهم هناك من أن نرى أنهم غائبون؟

شجاع. حسنًا، أعرف مكانك بخصوص هذا الأمر. هل لديك أي أسئلة أخرى تريد طرحها عليّ بخصوص بداية رحلتي للحج؟

عظيم. نعم. هل كان والداك موافقين على أن تصبح حاجاً؟

شجعان. كلا، لقد استخدموا كل الوسائل الممكنة لإقناعي بالبقاء في المنزل.

رائع. لماذا، ماذا عساهم أن يقولوا ضد ذلك؟

شجاع. قالوا إنها حياة خاملة؛ ولو لم أكن أميل إلى الكسل والخمول، لما كنت لأؤيد حالة الحاج.

رائع. وماذا قالوا أيضاً؟

شجاع. لماذا، أخبروني أنها طريق خطيرة: "نعم، أخطر طريق في العالم،" قالوا، "هو الطريق الذي يسلكه الحجاج."

ممتاز. هل أروك أين يكمن الخطر في هذا الطريق؟

شجاع. نعم؛ وذلك في العديد من التفاصيل.

ممتاز. اذكر بعضاً منها.

إحباطات فاليانت

شجاع. أخبروني عن مستنقع اليأس، حيث كاد كريستيان أن يُخنق. أخبروني أن هناك رماة سهام يقفون على أهبة الاستعداد في قلعة بعلزبول ليطلقوا النار على كل من يطرق بوابة الدخول. أخبروني أيضًا عن غابة وجبال تل الصعوبة المظلمة؛ عن الأسود؛ وعن العمالقة الثلاثة: الرجل الدموي، والمطرقة، والقاتل. قالوا كذلك إن هناك شيطانًا شريرًا يسكن وادي الإهانة، وأن كريستيان كاد أن يفقد حياته بسببه. قالوا: "إضافة إلى ذلك، عليك أن تعبر وادي ظل الموت، حيث العفاريت، وحيث النور ظلام، وحيث الطريق مليء بالفخاخ والحفر والمصائد والألغام". أخبروني أيضًا عن عملاق اليأس، وقلعة الشك، وعن الخراب الذي وجده الحجاج هناك. وقالوا أيضاً إنه يجب عليّ أن أمر عبر الأرض المسحورة، وهو أمر خطير؛ وأنه بعد كل هذا، سأجد نهراً، ولن أجد جسراً فوقه، وأن هذا النهر يقع بيني وبين البلاد السماوية.

رائع. وهل هذا كل شيء؟

شجاع. لا. لقد أخبروني أيضاً أن هذا الطريق مليء بالمخادعين، وبأشخاص يتربصون هناك لإبعاد الرجال الصالحين عن الطريق.

رائع. لكن كيف توصلوا إلى ذلك؟

شجاع. أخبروني أن السيد الحكيم الدنيويّ كان يتربص بي هناك ليخدعني. وقالوا أيضًا إن هناك شكليات ونفاقًا مستمرين على الطريق. وقالوا أيضًا إن المتطفلين أو الثرثارين أو المتكبرين سيقتربون ليقبضوا عليّ؛ وأن المتملق سيوقعني في شباكه؛ أو أنني، بجهلي الساذج، سأجرؤ على الذهاب إلى البوابة، ومنها سيُعاد إلى الحفرة الموجودة في جانب التل، ويُجبر على سلوك الطريق الجانبي إلى الجحيم.

عظيم. أعدك أن هذا كان كافياً لإحباطك؛ ولكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟

شجاع. لا توقف. أخبروني أيضًا عن كثيرين جربوا ذلك الطريق القديم، وقطعوا شوطًا طويلًا فيه، ليروا إن كانوا سيجدون شيئًا من المجد الذي تحدث عنه الكثيرون مرارًا وتكرارًا؛ وكيف عادوا أدراجهم، وخدعوا أنفسهم لخطوتهم تلك الخطوة الجريئة، مما أسعد البلاد بأسرها. وذكروا أسماء بعض من فعلوا ذلك، مثل العنيد والمرن، والمتشكك والجبان، والمنعزل والملحد القديم؛ مع آخرين، قالوا إن بعضهم ذهب بعيدًا ليرى ما يمكن أن يجده، لكن لم يجد أي منهم فائدة تُذكر من ذهابه.

ممتاز. هل قالوا أي شيء آخر لتثبيط عزيمتك؟

شجاع. نعم؛ لقد أخبروني عن السيد فيرينغ، الذي كان حاجًا، وكيف وجد هذا الطريق موحشًا للغاية، لدرجة أنه لم ينعم بساعة مريحة فيه؛ وأيضًا أن السيد ديسبوندنسي كاد أن يموت جوعًا هناك؛ نعم، وأيضًا (وهو ما كدت أنساه) أن كريستيان نفسه، الذي أثيرت حوله ضجة كبيرة، بعد كل مغامراته من أجل تاج سماوي، قد غرق بالتأكيد في النهر الأسود، ولم يذهب قدمًا أبعد من ذلك، مهما كان سبب اختفائه.

ممتاز. ألم يُثبطك أي من هذه الأمور؟

شجعان. لا؛ لقد بدوا لي كأنهم لا شيء.

رائع. كيف حدث ذلك؟

شجاع. لماذا، ما زلت أصدق ما قاله السيد تيل-ترو؛ وهذا ما جعلني أتجاوزهم جميعًا.

عظيم. إذن كان هذا هو انتصارك، بل وإيمانك أيضاً.

شجاع. كان الأمر كذلك. آمنت، ولذلك خرجت، ووقفت في طريقي، وحاربت كل من وقف ضدي، وبفضل إيماني وصلت إلى هذا المكان.

"من ذا الذي يرى الشجاعة الحقيقية، فليأتِ إلى هنا؛ سيكون المرء هنا ثابتاً، مهما كانت الرياح والطقس؛ لن يثنيه شيء عن عزمه الأول المعلن بأن يكون حاجاً."

"من يحيطون به بقصص كئيبة، إنما يضللون أنفسهم ـ فقوته تزداد. لا أسد يستطيع إخافته؛ سيقاتل عملاقًا، لكن سيكون له الحق في أن يكون حاجًا."

"لا يستطيع عفريت ولا شيطان خبيث أن يثني عزيمته؛ فهو يعلم أنه في النهاية سيرث الحياة. حينها، ستتبدد الأوهام، ولن يخشى ما يقوله الناس؛ سيعمل ليل نهار ليكون حاجًا."

الفصل التاسع.

الأرض المسحورة.

في ذلك الوقت، وصلوا إلى الأرض المسحورة، حيث كان الهواء يميل بطبيعته إلى التسبب بالنعاس. وكان المكان مغطى بالكامل بالأشواك والأعشاب الضارة، باستثناء بعض الأماكن التي كانت تضم عريشة مسحورة، والتي يقول البعض إنه إذا جلس عليها

رجل أو نام فيها، فإنه من المشكوك فيه، كما يقولون، ما إذا كان سيستيقظ أو ينهض مرة أخرى في هذا العالم. لذلك، ساروا عبر هذه الغابة، كلٌ على حدة؛ وتقدم السيد ذو القلب الكبير، لأنه كان الدليل، وتبعه السيد الشجاع الصادق، كحارس خلفي، خوفًا من أن ينقض عليهم شيطان أو تنين أو عملاق أو لص، فيلحق بهم الأذى. وواصلوا سيرهم، كلٌ منهم يحمل سيفه مسلولًا، لأنهم كانوا يعلمون أن المكان خطير. كما أنهم كانوا يشجعون بعضهم بعضًا قدر استطاعتهم. وأمر السيد ذو القلب الكبير ضعيف العقل أن يتبعه. وكان السيد ديسبوندنسي تحت أنظار السيد فالينت.

لم يبتعدوا كثيرًا، لكن ضبابًا كثيفًا وظلامًا دامسًا خيّم عليهم جميعًا، حتى كادوا لا يرون بعضهم بعضًا لفترة طويلة؛ فاضطروا لبعض الوقت إلى التآلف بالكلام، لأنهم لم يسيروا بالنظر. لا شك أن حالهم كان مزريًا، فما بالك بالنساء والأطفال، الذين كانوا في غاية الرقة والضعف! ومع ذلك، وبفضل كلمات التشجيع التي أطلقها قائدهم، استطاعوا المضي قدمًا بثبات.

كان الطريق هنا شاقًا للغاية بسبب الوحل والحصى. ولم يكن في هذه الأرض نُزُلٌ واحدٌ أو مَحْشٍ يُنعش الضعفاء. لذلك، كان هناك أنينٌ ولهثٌ وتنهدات. فبينما يتعثر أحدهم في جرف، يعلق آخر في الوحل؛ وبعض الأطفال فقدوا أحذيتهم في الطين. بينما يصرخ أحدهم: "لقد سقطت!"، وآخر: "أين أنت؟"، وثالث: "لقد تشبثت بي الشجيرات بشدة، أعتقد أنني لا أستطيع الإفلات منها."

ثم وصلوا إلى عريشة دافئة، تُبشّر بانتعاش كبير للحجاج؛ فقد كانت مُزخرفة بإتقان، مُزينة بالخضرة، ومُجهزة بمقاعد وأرائك. كما احتوت على أريكة ناعمة ليستريح عليها المُنهكون. لا شك أن هذا كان مُغريًا، فقد بدأ الحجاج يشعرون بالتعب من وعورة الطريق، لكن لم يُبدِ أيٌّ منهم أدنى رغبة في التوقف هناك. بل على العكس، فقد كانوا يُصغون باهتمام بالغ لنصائح دليلهم، وكان يُخبرهم بأمانة عن المخاطر وطبيعتها عند اقترابهم منها، حتى أنهم كانوا، في أغلب الأحيان، يُشجعون بعضهم بعضًا على كبح جماح شهواتهم، كلما اقتربوا منها. سُميت هذه العريشة "صديق الكسالى"، عمدًا لجذب بعض الحجاج إليها للراحة عند إرهاقهم.

رأيتُ في منامي أنهم واصلوا سيرهم في أرضهم المنعزلة حتى وصلوا إلى مكانٍ يسهل فيه على المرء أن يضلّ طريقه. مع أن دليلهم كان يُرشدهم في وضح النهار إلى الطريق الصحيح، إلا أنه في الظلام، عجز عن اللحاق بهم. لكن كان في جيبه خريطةٌ لجميع الطرق المؤدية إلى المدينة السماوية ومنها؛ فأشعلَ مصباحًا (فهو لا يفارق علبة الكبريت خاصته أبدًا)، ونظر إلى كتابه أو خريطته التي تُشير إليه بالحذر عند ذلك المكان، مُشيرةً إلى ضرورة

الانعطاف يمينًا. ولولا حرصه على النظر في خريطته، لكانوا على الأرجح قد غرقوا في الوحل؛ إذ كان أمامهم بقليل، عند نهاية أنظف الطرق، حفرةٌ لا يعلم أحدٌ عمقها، مليئةٌ بالوحل فقط، حُفرت عمدًا لإهلاك الحجاج.

ثم فكرت في نفسي: "من يذهب في رحلة حج إلا ويحمل معه إحدى تلك الخرائط، لكي ينظر إليها عندما يكون في موقف ما، ليعرف الطريق الذي يجب أن يسلكه؟"

ثم ساروا في تلك الأرض المسحورة حتى وصلوا إلى عريشة أخرى، بُنيت على جانب الطريق السريع. وفي تلك العريشة كان يرقد رجلان، أحدهما يُدعى "المتهور" والآخر "الجريء". كان هذان الرجلان قد قطعا شوطًا طويلًا في الحج، ولكنهما هنا، وقد أنهكهما السفر، جلسا ليستريحا، فغرقا في نوم عميق. ولما رآهما الحجاج، وقفوا مذهولين، وهزوا رؤوسهم، لأنهم أدركوا حال النائمين المزرية. ثم تشاوروا فيما يفعلون، هل يواصلون سيرهم ويتركونهما نائمين، أم يذهبون إليهما ويحاولون إيقاظهما؟ فقرروا الذهاب إليهما وإيقاظهما، إن استطاعوا، ولكن مع هذا الحذر، وهو أن يحذروا من الجلوس أو الاستفادة من العريشة.

فدخلوا وتحدثوا إلى الرجال، ونادوا كل واحد منهم باسمه (إذ يبدو أن الدليل كان يعرفهم)؛ لكن لم يكن هناك صوت ولا جواب. ثم هزّهم الدليل، وفعل ما بوسعه لإزعاجهم. فقال أحدهم: "سأدفع لك عندما آخذ نقودي". فهزّ الدليل رأسه. فقال الآخر: "سأقاتل ما دمت قادرًا على حمل سيفي". عندئذٍ ضحك أحد الأطفال.

أرض بيولا

ثم قالت كريستيانا: "ما معنى هذا؟" قال الدليل: "إنهم يتحدثون في نومهم. إذا ضربتهم أو هجمت عليهم أو فعلت بهم أي شيء آخر، فسوف يجيبونك على هذا النحو؛ أو كما قال أحدهم في الماضي، عندما ضربته أمواج البحر، ونام كواحد على صاري سفينة: "متى أستيقظ؟ سأبحث عنه مرة أخرى." كما تعلمون، عندما يتحدث الرجال في نومهم، يقولون أي شيء، لكن كلماتهم لا تخضع لا للإيمان ولا للعقل. ثمة خلل في كلامهم الآن، كما كان الحال من قبل بين ذهابهم للحج وجلوسهم هناك. هذا هو الضرر إذن: عندما يذهب الغافلون للحج، فإنهم يُعاقبون بهذه الطريقة بنسبة عشرين إلى واحد. فهذه الأرض المسحورة هي إحدى آخر الملاذات التي يملكها العدو للحجاج؛ ولذلك، كما ترون، فهي تقع تقريبًا في نهاية الطريق، وبالتالي فهي تُشكل لنا ميزة أكبر. فمتى، كما يتساءل العدو، سيرغب هؤلاء الحمقى في الجلوس كما هم عندما يكونون متعبين؟ ومتى يكونون أكثر عرضة للتعب كما هم

عند اقترابهم من نهاية رحلتهم؟ لذلك، أقول، إن الأرض المسحورة تقع بالقرب من أرض بيولا، وبالقرب من نهاية نسلهم. لذلك، فليحذر الحجاج أنفسهم، لئلا يحدث لهم ذلك. كما فعل بهؤلاء الذين، كما ترون، قد غلبهم النعاس، ولا يستطيع أحد إيقاظهم.

ثم رغب الحجاج، وهم يرتجفون، في المضي قدمًا؛ لكنهم دعوا دليلهم أن يشعل مصباحًا، لكي يتمكنوا من إكمال طريقهم بنور فانوس. فأشعل مصباحًا، وساروا بنوره في بقية الطريق، رغم أن الظلام كان دامسًا. لكن الأطفال بدأوا يشعرون بتعب شديد؛ فصرخوا إلى من يحب الحجاج أن ييسر لهم طريقهم. وهكذا، بعد أن قطعوا مسافة قصيرة، هبت ريح بددت الضباب؛ فأصبح الجو أكثر صفاءً. ومع ذلك، لم يبتعدوا كثيرًا عن الأرض المسحورة؛ بل أصبح بإمكانهم الآن رؤية بعضهم بعضًا بشكل أفضل، والطريق الذي يجب أن يسلكوه.

ولما اقتربوا من نهاية تلك الأرض، لاحظوا صوتًا مهيبًا قادمًا من أمامهم بقليل، كأنه صوت شخص مهموم للغاية. فتابعوا سيرهم، ونظروا أمامهم، فإذا بهم يرون، كما ظنوا، رجلًا جاثيًا على ركبتيه، رافعًا يديه وعينيه، ويتحدث، كما ظنوا، بجدٍ إلى من هو في السماء. فاقتربوا منه، لكنهم لم يستطيعوا تمييز ما قاله، فساروا بهدوء حتى انتهى. فلما انتهى، نهض، وبدأ يركض نحو المدينة السماوية.

ثم نادى عليه السيد غريت هارت قائلاً: "سوه، يا صديقي! دعنا نحظى بصحبتك، إذا ذهبت، كما أفترض أنك ستذهب، إلى المدينة السماوية."

فتوقف الرجل، واقتربوا منه. ولكن ما إن رآه السيد الصادق حتى قال: "أعرف هذا الرجل".

ثم قال السيد الشجاع المتمسك بالحق: "من فضلك، من هذا؟"

قال: "إنه واحد، يأتي من المنطقة التي كنت أسكن فيها. اسمه ستاند فاست؛ وهو بالتأكيد حاج صالح حقًا."

فصعدا إلى بعضهما البعض. وبعد قليل قال ستاند فاست للشيخ أونست: "أهلاً يا أبي أونست، هل أنت هنا؟"

قال: "أجل، أنا موجود هناك، كما أنت موجود هناك بالتأكيد".

متهور وجريء للغاية

قال السيد ستاند فاست: "أنا سعيد للغاية لأنني وجدتك على هذا الطريق".

وقال الآخر: "وأنا سعيدٌ للغاية لأنني رأيتك جاثياً على ركبتيك".

ثم احمرّ وجه السيد ستاند فاست خجلاً، وقال: "لكن لماذا؟ هل رأيتني؟"

"نعم، لقد فعلت ذلك،" قال الآخر، "وقد سررت بقلبي عند رؤية ذلك."

قال ستاندفاست: "لماذا، ما الذي كنت تعتقده؟"

قال العجوز الصادق: "فكر! ماذا عليّ أن أفكر؟ كنت أعتقد أن لدينا رجلاً صادقاً على الطريق، وبالتالي يجب أن نحظى بصحبته عاجلاً أم آجلاً."

قال ستاند فاست: "إذا لم تظنوا خطأً، فكم أنا سعيد! ولكن، إذا لم أكن على ما يرام، فسأتحمل ذلك وحدي."

قال الآخر: "هذا صحيح؛ لكن خوفك يدلني أيضاً على أن الأمور على ما يرام بين أمير الحجاج ونفسك؛ لأنه يقول: 'طوبى للرجل الذي يخاف دائماً'".

شجاع. حسنًا، ولكن يا أخي، أرجوك أخبرنا ما هو سبب وجودك على ركبتيك حتى الآن: هل كان ذلك بسبب رحمة خاصة حلت عليك، أو الحاجة إلى الصلاة، أو كيف؟

قف. ها نحن، كما ترى، على الأرض المسحورة؛ وبينما كنت أسير، كنت أفكر في مدى خطورة الطريق في هذا المكان، وكم من الذين وصلوا إلى هنا في رحلة حج، توقفوا هنا وهلكوا. فكرت أيضًا في طريقة الموت التي يهلك بها هذا المكان الناس. أولئك الذين يموتون هنا لا يموتون بمرض عنيف ومؤلم: الموت الذي يموتون به ليس مؤلمًا لهم. لأن من يرحل في مثل هذا النوم، يبدأ رحلته بالرغبة واللذة. نعم، هؤلاء يستسلمون لإرادة ذلك المرض.

ثم قاطعه السيد الصادق قائلاً: "هل رأيت الرجلين نائمين في العريشة؟"

رفض بشدة يا سيدتي

قف. أجل، أجل، رأيتُ هناكَ المُهمَلَةَ والجريئةَ؛ وعلى حدِّ علمي، سيظلان هناك حتى يتعفَّنا. لكن دعني أُكمل قصتي. بينما كنتُ أُفكِّرُ هكذا، كما قلتُ، كانت هناك امرأةٌ ترتدي ملابسَ أنيقةً للغاية، لكنها عجوز، تقدَّمت إليَّ، وعرضت عليَّ ثلاثةَ أشياء؛ وهي جسدها، ومحفظتها، وفراشها. الآن، الحقيقةُ هي أنني كنتُ مُرهَقًا ونعسانًا؛ أنا أيضًا فقيرٌ كالبومة، وربما كانت الساحرةُ تعلمُ ذلك. حسنًا، صدَّيتها مرةً أو مرتين؛ لكنها تجاهلت صدَّيَّ، وابتسمت. ثم بدأتُ

أغضب؛ لكنها لم تُبالِ بذلك على الإطلاق. ثمَّ عاودتْ العرض، وقالت، إذا كنتُ سأخضع لحكمها، فستجعلني عظيمًا وسعيدًا. قالت: "لأنني سيدةُ العالم، والرجالُ يُسعدونني". ثمَّ سألتُها عن اسمها، فأخبرتني أنها السيدةُ بابل. هذا جعلني أبتعدُ عنها أكثر؛ لكنها استمرت في ملاحقتي بإغراءاتها. عندها، كما رأيت، ركعتُ على ركبتيّ، ورفعتُ يديّ، وصرختُ، ودعوتُ الله الذي وعدني بالعون. وما إن وصلتَ حتى انصرفت المرأة. ثم واصلتُ شكر الله على نجاتي العظيمة هذه، لأني أؤمن حقًا أنها لم تكن تنوي خيرًا، بل كانت تسعى لعرقلة رحلتي.

معالي الوزير، لا شك أن تصاميمها كانت سيئة. لكن مهلاً: الآن وقد ذكرتها، أظن أنني إما رأيتها أو قرأت عنها قصة ما.

قف. ربما تكون قد فعلت كلا الأمرين.

السيدة بابل المحترمة؟ أليست سيدة طويلة القامة وجميلة، ذات بشرة سمراء إلى حد ما؟

قف. صحيح، لقد أصبت كبد الحقيقة: إنها من هذا النوع.

سعادة النائبة، ألا تتحدث بطلاقة شديدة، وتبتسم في نهاية الجملة؟

قف. ستسقط عليها مرة أخرى، فهذه هي أفعالها.

يا حضرة السيد، ألا تحمل محفظة كبيرة بجانبها، ولا تلمس يدها فيها كثيراً، وتتحسس نقودها، كما لو كان ذلك مصدر سعادة قلبها؟

قف. هذا هو الحال. لو كانت قد وقفت طوال هذا الوقت، لما استطعت أن تعرضها أمامي بشكل أوضح، ولا أن تصف ملامحها بشكل أفضل.

معالي الوزير، إذن كان من رسم صورتها فناناً جيداً، ومن كتب عنها قال الحقيقة.

تأثير مدام بابل

عظيم. هذه المرأة ساحرة، وبفضل سحرها سُحرت هذه الأرض. من يضع رأسه في حجرها فكأنه يضعه على تلك الصخرة التي تُعلق عليها الفأس؛ ومن تقع عيناه على جمالها، يُعتبر عدوًا لله. هذه هي التي تُبقي في بهائها كل أعداء الحجاج. بل هذه هي التي اشترت أرواح كثيرين من الحجاج. إنها ثرثارة عظيمة: هي وبناتها دائمًا ما يُلاحقن الحجاج؛ تارةً يُصدرن الأوامر، وتارةً يُفضلن ملذات هذه الحياة. إنها مخلوقة جريئة وقحة؛ تُحادث أي رجل. تسخر دائمًا من الحجاج الفقراء، وتُثني على الأغنياء. إذا وُجد شخص ماكر في جمع المال في مكان ما، فإنها تُثني عليه من

بيت إلى بيت. إنها تعشق الولائم والاحتفالات، وخاصة الولائم الفاخرة؛ ودائمًا ما تجدها على موائد عامرة. وقد أعلنت في بعض الأماكن أنها إلهة، ولذلك يعبدها البعض. ولها أوقات وأماكن علنية للخداع؛ وستقول وتؤكد أنه لا يوجد من يضاهي خيرها. وتعد بالعيش مع أحفادها إن أحبوها وقدّروها. وستُخرج من جيبها ذهبًا كالغبار، في بعض الأماكن ولبعض الأشخاص. وتحب أن يُطلب منها، وأن يُثنى عليها، وأن تنعم بدفء قلوب الرجال. ولا تملّ من مدح عطاياها، وتحب أكثر من يُحسنون الظن بها. وستعد البعض بتيجان وممالك إن أخذوا بنصيحتها؛ ومع ذلك فقد ساقت الكثيرين إلى حبل المشنقة، وعشرة آلاف ضعف إلى الجحيم.

قف. قال السيد ستاند-فاست: "يا لها من رحمة أنني قاومتها! إلى أين كانت ستجرني؟"

عظيم. إلى أين؟ لا يعلم أحدٌ إلا الله، ولكن على الأرجح، كانت ستجرّك إلى شهواتٍ حمقاءٍ ومؤذيةٍ تُغرق الرجال في الهلاك والدمار. هي التي حرضت أبشالوم على أبيه، ويربعام على سيده. هي التي أقنعت يهوذا ببيع سيده، وهي التي أقنعت ديماس بالتخلي عن حياة الحاج التقي. لا أحد يعلم ما تفعله من شرور. إنها تُثير الخلاف بين الحكام والمحكومين، وبين الآباء والأبناء، وبين الجيران، وبين الرجل وزوجته، وبين الرجل ونفسه، وبين الجسد والقلب. لذلك، أيها السيد الصالح، اثبت، وكن كما يوحي اسمك، وعندما تُتمّ كل شيء، اثبت.

في هذا المسار، كان هناك مزيج من الفرح والخوف بين الحجاج؛ ولكن في النهاية انفجروا بالغناء:

"ما الخطر الذي يحيط بالحاج! كم عدد أعدائه! كم عدد الطرق التي يمكن أن تؤدي إلى الخطيئة؟ لا يعلم ذلك أي إنسان حي."

"بعضهم يتجنبون الخنادق، ومع ذلك يمكنهم التدحرج في الوحل؛ وبعضهم، على الرغم من أنهم يتجنبون المقلاة، يقفزون في النار."

الفصل العاشر.

الحجاج في ديارهم.

بعد ذلك، راقبتُ حتى وصلوا إلى أرض بيولا، حيث تُشرق الشمس ليلًا ونهارًا. وهناك، ولأنهم كانوا مُتعبين، استراحوا قليلًا. ولأن هذه البلاد كانت مقصدًا للحجاج، ولأن البساتين والكروم الموجودة فيها ملكٌ لملك الأرض السماوية، فقد سُمح لهم بالاستمتاع بكل ما يملك. ولكن سرعان ما استعادوا نشاطهم هنا؛ فقد كانت الأجراس

تـدق، والأبـواق تُصـدر ألحانًـا عذبـة، حتـى أنهـم لـم يسـتطيعوا النـوم، ومـع ذلـك فقد نـالوا راحـةً كمـا لـو أنهـم نـاموا نومًـا عميقًـا لـم يسبق لـه مثيـل. وكـان صـوت مـن يسـيرون فـي الشـوارع يقـول: "لقـد وصـل المزيـد مـن الحجـاج إلـى المدينـة!" فيجيبـه آخـر قـائلًا: "وقـد عبـر كثيـرون المـاء، ودخلـوا مـن البوابـات الذهبيـة اليـوم!" كـانوا يصيحون مجـدداً: "لقـد وصـل للتـوّ حشـدٌ مـن الملائكـة إلـى المدينـة، وهـذا دليـلٌ علـى ازديـاد عـدد الحجـاج علـى الطريـق؛ فهـم هنـا ينتظـرونهم ويواسـونهم بعـد كـلّ أحـزانهم!" ثـمّ نهـض الحجـاج وسـاروا جيئـةً وذهابـاً. ولكـن كيـف امـتلأت آذانهـم الآن بأصـواتٍ سـماوية، وكيـف انبهـرت أعينـهم بـرؤى سـماوية! فـي هـذه الأرض لـم يسـمعوا شـيئاً، ولـم يـروا شـيئاً، ولـم يشـعروا بشـيء، ولـم يشـمّوا شـيئاً، ولـم يتـذوّقوا شـيئاً، ممّـا يُـزعج معـدتهم أو عقـولهم؛ فقـط عنـدما تـذوّقوا مـاء النهـر الـذي سـيعبرونه، شـعروا بمـرارةٍ خفيفـةٍ فـي فمهـم، لكنّها كانت أحلى عندما شربوها.

فـي هـذا المكـان، حُفظـت أسـماء الحجـاج القـدماء، وسُـجلت تـاريخ جميـع أعمـالهم الشـهيرة. كمـا كثـر الحـديث هنـا عـن كيفيـة فيضـان النهـر عنـد الـبعض، وانحسـاره عنـد آخـرين. فقـد كـان جافًـا عنـد البعض، بينما فاض على ضفافه عند آخرين.

فـي هـذا المكـان، كـان أطفـال المدينـة يـذهبون إلـى حـدائق الملـك، ويجمعـون باقـات الزهـور للحجـاج، ويقـدمونها لهـم بكـل محبـة. وهنـا أيضـاً كـان ينمـو الكـافور، والنـاردين، والزعفـران، والقصـب، والقرفـة، مـع جميـع أشـجار اللبـان، والمـر، والصـبر، وجميـع أنـواع التوابـل الرئيسـية. بهـذه العطـور كانـت تُعطّـر غـرف الحجـاج أثنـاء إقـامتهم هنـا؛ وبهـذه العطـور كانـت تُـدهن أجسـادهم، اسـتعداداً لعبـور النهر، عندما يحين الموعد المحدد.

كريستيانا تتلقى رسالة

وبينمـا كـانوا هنـا ينتظـرون السـاعة الموعـودة، انتشـر خبـر فـي البلـدة مفـاده أن رسـولًا قـد أتـى مـن المدينـة السـماوية بـأمرٍ بـالغ الأهميـة إلـى كريسـتيانا، زوجـة كريسـتيان الحـاج. فسـألوا عنهـا، وعرفـوا مكانهـا فـي المنـزل. فأعطاهـا الرسـول رسـالةً جـاء فيهـا: "السـلام عليـكِ أيتهـا المـرأة الصـالحة! أحمـل إليـكِ بشـارةً بـأن السـيد يـدعوكِ، ويتوقـع أن تقفـي بـين يديـه، مرتديـةً ثيـاب الحيـاة الأبديـة، خـلال هـذه الأيـام العشرة."

بعد أن قـرأ عليهـا هـذه الرسـالة، أعطاهـا معهـا دلـيلاً قاطعـاً علـى صـدق نيتـه، وأنـه جـاء ليطلـب منهـا الإسـراع بالرحيـل. كـان الـدليل سـهماً، رأسـه مُسـنّن بـالحـب، غُـرِس بسـهولة فـي قلبهـا، فـأثر فيهـا تـدريجياً تأثيراً بالغاً، حتى بات عليها الرحيل في الموعد المحدد.

عندما رأت كريستيانا أن وقتها قد حان، وأنها أول من سيعبر من هذه المجموعة، نادت على السيد غريت هارت، دليلها، وأخبرته بما يجري. فأخبرها أنه سعيدٌ للغاية بهذا الخبر، وأنه كان سيفرح لو جاء البريد إليه. ثم طلبت منه أن ينصحها بكيفية تجهيز كل شيء لرحلتها. فأخبرها قائلاً: "هكذا يجب أن يكون الأمر، وسنرافقكِ نحن الباقين إلى ضفة النهر".

ثم نادت على أبنائها، وباركتهم، وأخبرتهم أنها ما زالت تقرأ براحة العلامة التي على جباههم، وأنها سعيدة برؤيتهم معها، وأنهم حافظوا على بياض ثيابهم. وفي الختام، أعطت الفقراء ما لديها من قليل، وأمرت أبناءها وبناتها أن يكونوا على أهبة الاستعداد لاستقبال الرسول إن جاء لأخذهم.

بعد أن قالت هذه الكلمات لدليلها وأطفالها، نادت على السيد شجاع الحق، وقالت له: "سيدي، لقد أظهرتَ في كل مكان صدق قلبك. كن وفيًا حتى الموت، وسيمنحك ملكي إكليل الحياة. أرجو منك أيضًا أن تعتني بأطفالي؛ وإذا رأيتهم في أي وقت يضعفون، فتحدث إليهم بلطف. فبناتي، زوجات أبنائي، كنّ وفيات؛ وسيكون تحقيق الوعد الممنوح لهن نهايتهن." ثم أعطت السيد ثابتًا خاتمًا.

ثم نادت على السيد الصادق العجوز، وقالت عنه: "انظروا إلى إسرائيلي حقيقي، لا غش فيه".

ثم قال: "أتمنى لكم يوماً سعيداً عندما تنطلقون إلى جبل صهيون، وسأكون سعيداً برؤيتكم تعبرون النهر وأنتم جافون".

لكنها أجابت: "سواء أتيت مبتلة أو جافة، فأنا أتوق إلى الرحيل؛ لأنه مهما كان الطقس في رحلتي، فسيكون لدي وقت كافٍ عندما أصل إلى هناك لأجلس وأريح نفسي وأجففها".

ثم دخل ذلك الرجل الطيب، السيد المستعد للتوقف، ليرى وجهها. فقالت له: "لقد كانت رحلتك حتى الآن مليئة بالمشقة، ولكن هذا سيجعل راحتك أحلى. ولكن كن متيقظًا ومستعدًا، فقد يأتي الرسول في ساعة لا تتوقعها."

ثم دخل السيد اليأس وابنته الخائفة، فقالت لهما: "عليكما أن تتذكرا بامتنانٍ دائم نجاتكما من قبضة اليأس العملاق ومن قلعة الشك. ومن ثمار تلك الرحمة أنكما جئتما إلى هنا سالمين. كونا يقظين، وتخلصا من الخوف؛ كونا رصينين، وارجوا حتى النهاية."

ثم قالت للسيد ضعيف العقل: "لقد نُجّيتَ من فم العملاق سلاي جود، لكي تعيش في نور الأحياء إلى الأبد، وترى ملكك مطمئنًا.

أنصحك فقط أن تتخلص من ميلك للخوف والشك في جوده، قبل أن يستدعيك؛ لئلا تُجبر، عندما يأتي، على الوقوف أمامه بسبب هذا الذنب وأنت تخجل."

كريستيانا تعبر النهر

اقترب موعد رحيل كريستيانا، فامتلأ الطريق بالناس الذين جاؤوا لتوديعها. ولكن، يا للعجب، امتلأت ضفاف النهر بالخيول والعربات التي نزلت من السماءِ لترافقها إلى بوابة المدينة. فخرجت ودخلت النهر، ولوّحت مودعةً لمن تبعوها إلى ضفة النهر. وكانت آخر كلماتها: "يا رب، جئت لأكون معك وأباركك!"

فعاد أبناؤها وأصدقاؤها إلى منازلهم، إذ كان من ينتظرون كريستيانا قد حملوها بعيدًا عن أنظارهم. فذهبت ونادت، ودخلت من البوابة بكل مظاهر الفرح التي كان زوجها كريستيان قد صنعها من قبل. عند رحيلها بكى أبناؤها. أما السيد ذو القلب الكبير والسيد الشجاع فعزفا على الصنج والقيثارة المضبوطين جيدًا ابتهاجًا. ثم انصرف الجميع إلى أماكنهم.

الحجاج يتلقون رسائل

بعد حين، عاد رسول إلى المدينة، وكان غرضه السيد "جاهز للتوقف". فسأله، وقال له: "لقد أتيت إليك من الذي أحببته واتبعته، وإن كنتَ متكئًا على عكازين؛ ورسالتي إليك هي أن أخبرك أنه ينتظرك على مائدته، لتتناول العشاء معه في ملكوته، في اليوم التالي لعيد الفصح؛ لذا استعد لهذه الرحلة". ثم أعطاه أيضًا علامة على صدقه كرسول، قائلًا: "لقد كسرتُ وعاءك الذهبي وفككتُ حبلَك الفضي".

بعد ذلك، دعا السيد ريدي-تو-هالت رفاقه الحجاج، وقال لهم: "لقد تم استدعائي، والله سيزوركم أيضًا". ثم طلب من السيد فالينت أن يكتب وصيته. ولأنه لم يكن لديه ما يورثه لهم بعد وفاته سوى عكازيه ودعواته الطيبة، قال: "أوصي بهذين العكازين لابني الذي سيسير على خطاي، مع مئة أمنية صادقة أن يكون أفضل مني". ثم شكر السيد جريت-هارت على حسن معاملته ولطفه، وانطلق في رحلته. ولما وصل إلى ضفة النهر، قال: "الآن لن أحتاج إلى هذين العكازين، فهناك عربات وخيول لأركبها". وكانت آخر كلماته: "مرحبًا بالحياة!". ثم مضى في طريقه.

بعد ذلك، أُخبر السيد ضعيف العقل أن الرسول قرع بوقه عند باب غرفته. ثم دخل عليه وقال: "لقد جئت لأخبرك أن سيدك بحاجة إليك، وأنك سترى وجهه في وقت قريب جدًا. وخذ هذه العلامة على صدق رسالتي: 'سيُظلم من ينظر من النوافذ'". ثم دعا السيد

ضعيف العقل أصدقاءه، وأخبرهم بالرسالة التي أُرسلت إليه، والعلامة التي تلقاها على صدق الرسالة. ثم قال: "بما أنني لا أملك شيئًا أورثه لأحد، فلماذا أكتب وصية؟ أما عقلي الضعيف، فسأتركه ورائي، فلن أحتاجه في المكان الذي أذهب إليه، ولا يستحق أن يُعطى لأفقر حاج. لذلك، عندما أرحل، أرجو منك يا سيد فالينت أن تدفنه في كومة روث." وبعد أن فعل ذلك، ولما حلّ يوم رحيله، دخل النهر كبقية الناس. وكانت كلماته الأخيرة: "اصبروا، يا إيمان!" ثم عبر إلى الضفة الأخرى.

بعد انقضاء أيامٍ عديدة، أُرسل في طلب السيد يأس؛ فقد جاءه رسولٌ يحمل إليه هذه الرسالة: "أيها الرجل المرتجف، هذه دعوةٌ لك لتكون مستعدًا مع ملكك يوم الأحد القادم، لتهتف فرحًا بخلاصك من كل شكوكك. وقال الرسول: "وإن صدقت رسالتي، فخذ هذه دليلًا". فأعطاه الجرادة لتكون عبئًا عليه.

عندما سمعت ابنة السيد يأس، واسمها كثير الخوف، بما حدث، قالت إنها ستذهب مع والدها. فقال السيد يأس لأصدقائه: "أنا وابنتي، كما تعلمون، كنا، وكيف كنا مصدر إزعاج في كل مجلس. وصيتي ووصية ابنتي ألا يستقبل أحد مشاعرنا المحبطة ومخاوفنا الذليلة، من يوم رحيلنا إلى الأبد؛ لأني أعلم أنها ستُعرض على الآخرين بعد موتي. لأكون صريحًا معكم، إنها أشباح رافقتنا عندما بدأنا رحلتنا، ولم نستطع التخلص منها بعد ذلك؛ وستتجول وتسعى لتسلية الحجاج؛ ولكن من أجلنا، أغلقوا الأبواب في وجهها." وعندما حان وقت رحيلهم، ذهبوا إلى ضفة النهر. وكانت آخر كلمات السيد يأس: "وداعًا أيها الليل! أهلًا أيها النهار!" عبرت ابنته النهر وهي تغني، لكن لم يستطع أحد فهم ما قالته.

ثم بعد حين، جاء رسولٌ إلى البلدة يسأل عن السيد الصادق. فجاء إلى منزله حيث كان، وسلمه هذه الكلمات: "أُمرتَ أن تكون مستعدًا لهذا اليوم، سبع ليالٍ، لتمثل أمام ربك في بيت أبيه. ودليلًا على صدق رسالتي، 'ستُذلّ جميع بنات الموسيقيات'". ثم دعا السيد الصادق أصدقاءه، وقال لهم: "سأموت ولن أوصي. أما أمانتي، فستذهب معي: فليعلم بها من يأتي بعدي". ولما حان يوم رحيله، استعد لعبور النهر. وكان النهر قد فاض في بعض الأماكن آنذاك؛ لكن السيد الصادق كان قد دعا في حياته شخصًا ذا ضمير حيّ أن يقابله هناك؛ ففعل، ومدّ له يده، وساعده على العبور. وكانت آخر كلمات السيد الصادق: "الرحمة تسود!". وهكذا رحل عن الدنيا.

الاستدعاء النهائي

بعد ذلك، انتشر خبر أن السيد الشجاع المناضل من أجل الحق قد أُلقي القبض عليه باستدعاء من نفس الرسول الذي ألقى القبض على الآخر، وكان دليله على صحة الاستدعاء أن جرته قد كُسرت عند النبع. ولما فهم الأمر، دعا أصدقاءه وأخبرهم به. ثم قال: "أنا ذاهب إلى أبي، ورغم أنني وصلت إلى هنا بصعوبة بالغة، إلا أنني لا أندم على كل المشقة التي تكبدتها لأصل إلى ما أنا عليه الآن. سيفي أُعطيه لمن سيخلفني في رحلتي، وشجاعتي ومهارتي لمن يستطيع الحصول عليهما. أما آثاري وندوبي فأحملها معي، شاهدةً على أنني خضت معاركه، وهو الذي سيُكافئني الآن". ولما حان يوم رحيله، رافقه كثيرون إلى ضفة النهر، وبينما كان ينزل إليها قال: "أين شوكتك يا موت؟"، وبينما كان ينزل إلى أعماق النهر، قال: "أين نصرك يا قبر؟" فعبر، ودوت جميع الأبواق من أجله في الجانب الآخر.

ثم جاء استدعاء للسيد ستاند فاست (وهو نفسه الذي وجده الحجاج راكعًا في الأرض المسحورة)، إذ أحضره الرسول مفتوحًا بين يديه؛ وكان مضمونه أنه يجب عليه الاستعداد لتغيير حياته، لأن سيده لم يكن يرضى أن يبقى بعيدًا عنه إلى هذا الحد. عندئذٍ، أُدخل السيد ستاند فاست في حالة إلهام.

قال الرسول: "لا، لا داعي للشك في صدق رسالتي، فها هي علامة على صدقها: 'عجلتك مكسورة عند الخزان'".

ثم نادى عليه السيد غريت هارت، الذي كان دليلهم، وقال له: "سيدي، مع أنني لم أُوفق لمصاحبتك كثيرًا في أيام حجّي، إلا أنك منذ أن عرفتك، كنتَ عونًا لي. عندما عدتُ من بيتي، تركتُ ورائي زوجةً وخمسة أطفال صغار. اسمح لي أن أتوسل إليك عند عودتك (لأنني أعلم أنك ستذهب وتعود إلى بيت سيدك، على أمل أن تكون دليلًا لمزيد من الحجاج الأطهار)، أن تُرسل إلى عائلتي، وتُطلعهم على كل ما جرى لي أو سيجري. أخبرهم أيضًا بوصولي السعيد إلى هذا المكان، وبحالتي المباركة الحالية والمتأخرة. أخبرهم أيضًا عن كريستيان وزوجته كريستيانا، وكيف جاءت هي وأطفالها بعد زوجها. أخبرهم أيضًا عن نهايتها السعيدة، وإلى أين ذهبت. ليس لديّ ما أرسله إلى عائلتي إلا القليل، إن لم يكن شيئًا، إلا دعائي ودموعي من أجلهم؛ وهو ما سأفعله." يكفي أن تُعرّفهم بالأمر، لعلهم ينتصرون.

نهاية الرحلة

بعد أن رتب السيد ستاند فاست الأمور، وحان وقت رحيله، نزل هو الآخر إلى النهر. وكان النهر هادئًا تمامًا في ذلك الوقت؛ ولذلك، عندما كان السيد ستاند فاست في منتصف الطريق تقريبًا، توقف

قليلًا وتحدث إلى رفاقه الذين كانوا ينتظرونه هناك. فقال: "لقد كان هذا النهر رعبًا للكثيرين، بل إن مجرد التفكير فيه أرعبني أيضًا، ولكني الآن أشعر بالراحة، فقد ثبتت قدمي على ما ثبتت عليه أقدام الكهنة الذين حملوا تابوت العهد حين عبر بنو إسرائيل الأردن. صحيح أن مياهه مُرّة المذاق وباردة المعدة، إلا أن فكرة ما أنا ذاهب إليه، والسلوك الذي ينتظرني على الضفة الأخرى، تُشعل في قلبي جمرة متوهجة. أرى نفسي الآن في نهاية رحلتي، وقد انتهت أيامي الشاقة. سأرى ذلك الرأس الذي تُوّج بالشوك، وذلك الوجه الذي بُصق عليه من أجلي. لقد عشتُ سابقًا على السمع والإيمان، ولكني الآن ذاهب إلى حيث سأعيش بالنظر، وسأكون مع من أجد في صحبته لذة. لطالما أحببتُ سماع الحديث عن ربي، وحيثما رأيتُ أثر نعله على الأرض، تمنيتُ أن أضع قدمي هناك أيضًا. لقد كان اسمه كان لي كعلبة عطر، بل أحلى من كل الروائح العطرة. كان صوته لي أعذب ما يكون، وكنتُ أتوق إلى وجهه أكثر من أولئك الذين يتوقون إلى نور الشمس. كنتُ أستقي من كلمته طعامًا لي، ودواءً لضعفي. لقد ساندني، وحفظني من ذنوبي، بل وثبّت خطواتي في طريقه.

وبينما كان يتحدث هكذا، تغيرت ملامح وجهه، وانحنى رجله القوي تحته؛ وبعد أن قال: "خذوني، لأني آتي إليكم!" اختفى عن أنظارهم.

لكن كان من المبهج رؤية كيف امتلأت المنطقة المفتوحة بالخيول والعربات، وبعازفي البوق والمزمار، وبالمغنين والعازفين على الآلات الوترية للترحيب بالحجاج وهم يصعدون، ويتبعون بعضهم بعضاً عند البوابة الجميلة للمدينة.

أما أبناء كريستيان، الأولاد الأربعة الذين أحضرتهم كريستيانا معها، مع زوجاتهم وأطفالهم، فلم أبقَ في مكاني حتى رحلوا. ومنذ رحيلي، سمعت أحدهم يقول إنهم ما زالوا على قيد الحياة، وسيكونون كذلك لعون الكنيسة في ذلك المكان الذي يقيمون فيه مؤقتًا.

إذا قُدّر لي أن أسلك ذلك الطريق مرة أخرى، فسأقدم لمن يرغب شرحًا لما أغفلته هنا؛ وفي هذه الأثناء، أُودِّع قارئي

الحاج الصغير.

قصة فتاة صغيرة حاولت القيام برحلة حج.

في منزل قديم كبير، مع عمتين طيبتين، عاشت ماريان الصغيرة؛ وكانت طفلة سعيدة، على ما أعتقد، لأنه على الرغم من أنها

شعرت أحيانًا أن رفقاء اللعب سيكونون أفضل بكثير من الطيور أو الزهور، إلا أن عمتيها الطيبتين وكتب القصص، خففت من ساعات الوحدة الكثيرة.

كان ملاذها المفضل في فصل الصيف شجرة تفاح كبيرة قديمة؛ وكثيراً ما كانت تجلس بين أغصانها، وكتابها المفضل على ركبتها. كان اسمه "تقدم الحجاج"، وكانت ماريان تحبه كثيراً؛ إنه حقاً كتاب رائع، لا يوجد الكثير مثله!

قرأتها في سريرها الصغير، بجانب موقد الشتاء، وفي فصل الصيف، عند شجرة التفاح، كما لو أنها لن تمل أبداً.

لكن، دون تفسير، إنه مجرد كتاب يحير العقل الصغير؛ ولم يكن لدى الطفل المسكين صديق لطيف يشرح له معناه.

فرغم أن عماتها كن لطيفات للغاية، إلا أنهن لم يكنّ حكيمات للغاية، واكتفين بالقول: "لا تقرئي هكذا يا صغيرتي، أنا متأكدة من أنك ستؤذي عينيكِ".

لكن ماريان استمرت في القراءة، وبدأت رؤى غريبة وجامحة تملأ رأس الطفلة الوحيدة الحالمة؛ لأنها اعتقدت أن كريستيان وزوجته، وجميع أطفالهم أيضًا، قد تركوا وراءهم منزلهم المريح، وفعلوا ما يجب عليها فعله.

قال الطفل: "سآخذ كتابي المقدس، وأبحث عن طريق الجنة؛ سأحاول أن أجد البوابة الصغيرة، وأرجو أن يُغفر لي. أتمنى لو أن عماتي يذهبن معي، لكن لا جدوى من الطلب؛ فهن صمّاوات وعاقرات نوعًا ما، وسيعتبرن الأمر مهمة شاقة."

"لا! يجب أن أذهب وحدي، كما أرى، لذلك لن أدعهم يعرفون؛ وإلا، مثل أصدقاء كريستيان المسكين، سيقولون: "عزيزتي، لا يجب أن تذهبي".

"لكن عليّ أن أنتظر حتى تستحوذ خطة عظيمة على جميع أفكارهم؛ وحينها سأغادر منزلي المريح، وأذهب في رحلة حج."

لم تنتظر طويلاً، قبل أن ترى في أحد أيام الخريف الجميلة، العربة القديمة الكبيرة تصل، لتأخذ عمتيها بعيدًا. قالت السيدتان العجوزتان: "سنخرج لقضاء اليوم، نعتزم زيارة السيدة بلير - يا لها من مسكينة! - إنها مريضة في الفراش".

"لكن يا ماريان، يجب أن تبقي في المنزل، لأن السيدة مريضة كما ترين؛ يمكنك تناول عشاءك، إذا أردتِ، عند شجرة التفاح الكبيرة

القديمـة، واللعـب فـي الحديقـة طـوال اليـوم، سـعيدة وراضـية تمامًـا." قيلت بضع كلمات وداع أخرى، وانصرفت السيدات.

كـان الخـدم مشـغولين أيضـاً؛ قالـت ماريـان: "لقـد جـاء اليـوم أخيـراً، ولكـن يـا ليتنـي كنـت قـد انتهيـت مـن رحلتـي". ركعـت بجانـب شـجرة التفـاح، وصـلّت طالبـةً عـون الله؛ ثـم خرجـت الفتـاة الصـغيرة وهـي تحمل سلتها في يدها.

خلـف المنـزل الـذي سـكنته ماريـان، فـي الأفـق البعيـد، كـان يقـع تـل شـديد الانحـدار، تلـون بأشـعته الأولـى عنـد الصـباح. "الصـعوبة" كـان اسـمها الحقيقـي، كمـا فكـرت الطفلـة مـرارًا وتكـرارًا؛ نحـو هـذا التـل وجهت خطواتها، برؤى مليئة بالأمل.

بـدت الأزهـار وكأنهـا ترحـب بهـا، كـان صـباح خريـف جميـل، غنـت القبـرة الصـغيرة بمـرح، فـوق سـنابل الـذرة المتمايلـة. قالـت: "آه، أيتهـا القبـرة الصـغيرة، تغنـين فـي رحلتـك المبكـرة؛ سـأغني أنـا أيضًـا، لأن الأفكار المبهجة يجب أن تشغل ذهني الآن."

أنشـدت ترنيمـة بصـوت عـذب وواضـح، وسـارَت بخفـة فـي طريقهـا؛ حتـى ظهـرت بركـة مـن الطـين النـاعم الكثيـف عبـر مسـارها. صـرخت قائلـة: "هـذا مسـتنقع اليـأس!"، لكنهـا غـامرت بشـجاعة عبـره؛ ووصلت بأمان إلى الجانب الآخر، لكنها فقدت فردة حذاء صغيرة.

جلسـت علـى حجـر رمـادي قـديم لتأكـل بعـض الفاكهـة والخبـز؛ ثـم أخرجت كتابها المقدس الصغير، وقرأت مزموراً مُبهجاً.

ثـم انطلقـت بأمـل جديـد، لمسـافة أميـال عديـدة؛ ووصـلت إلـى أسـفل التل، قبل نهاية اليوم.

صـعدت المنحـدر الحـاد، رغـم أنهـا كانـت منهكـة ومتعبـة أيضـاً؛ لكـن ماريان حافظت بثبات على هدفها نصب عينيها.

"أنـا سـعيدة، علـى الأقـل، بـزوال العريشـة،" قالـت الـروح الصـغيرة المتعبـة؛ "أنـا متأكـدة مـن أننـي كـان يجـب أن أجلـس وأتخلـص مـن لفـافتي الصـغيرة!" أخيـرًا، تقـف علـى قمـة التـل العـالي، ويـرى حاجنـا المتعب كوخًا واسعًا للبواب، نصفه مخفي بين الأشجار الظليلة.

صـفقت بيـديها فرحـاً، وصـاحت قائلـة: "أوه، هـا هـي البوابـة الصـغيرة، ويجـب أن أسـعى للـدخول مـن هنـاك، قبـل فـوات الأوان." طرقـت برفـق ـ وسـرعان مـا تـم الـرد عليهـا، وعنـد البـاب المفتـوح يقـف رجـل طويـل القامـة وقـوي البنيـة ـ شـعرت ماريـان المسـكينة بمـا لم تشعر به من قبل.

بعيون دامعة ويد مرتعشة، وخد متورد وجبين قلق، قالت: "أتمنى أن تكون حذراً يا سيدي، أريد التكتم الآن".

قال الرجل: "أجل، أنا حذر، كما ينبغي أن يكون الحمال؛ أظن أنكِ قد ضللتِ طريقكِ يا آنسة، لقد فقدتِ حذاءكِ، كما أرى."

"سيدتي،" صاح لزوجته في الداخل، "ها هو طفل هنا، عند الباب، لن تري مثله مرة أخرى، إذا عشتِ حتى تبلغي الثمانين. إنها تريد التكتم، كما تقول، وأعتقد أن هذا صحيح؛ لكنني أعرف بعضًا ممن يريدونه أكثر، ممن لا يعترفون بذلك."

أجابت زوجته: "اذهب إلى القاعة، وخذ الطفل معك، فالسيدات هناك حكيمات للغاية، وسيعرفن ما يجب فعله قريبًا". امتثل الرجل، وقاد الطفل عبر العديد من البساتين المزهرة؛ قال الحاج الصغير: "هل هذا هو القصر الجميل؟"

"هناك، إلى اليسار، بين الأشجار؟ يا آنسة، إنه مكان عظيم حقًا؛ سميه قصرًا إن شئتِ، إنه الأجمل في البلاد. الآن وصلنا إلى الشرفة القديمة الجميلة، وهذه هي قاعة الرخام؛ هنا، يا سيدتي الصغيرة، يجب أن تبقي، بينما أنادي الخدم."

ترك الطفلة متعبة وحزينة، لكنه سرعان ما عاد، ومعه سيدة المنزل - فابتهجت ماريان المسكينة. قالت السيدة بنبرة هادئة ولطيفة: "يا صغيرتي الجميلة، أنا متأكدة أنكِ ترغبين بشدة في بعض الراحة، وستجدين الراحة قريباً".

إلى غرفة كانت تجلس فيها ثلاث شابات، اقتيدت الطفلة بسرعة؛ "التقوى، والحكمة، والإحسان"، قالت لنفسها بهدوء. "ما اسمك يا عزيزتي الصغيرة؟" قالت أكبرهن، والتي أطلقت عليها ماريان في سرها اسم التقوى.

"سنرسل خادماً إلى أصدقائك، كم هم قلقون!" راقبت الطفلة بإعجاب، والتي كانت بالفعل جميلة المنظر؛ حول وجهها المشرق والجميل، انسدل شعرها الكستنائي، بينما أخبرت بتواضع عن اسمها، ومع من تعيش وأين.

"كيف ضللتِ طريقكِ يا حبيبتي؟" رفعت رأسها برفق؛ "لا أعتقد أنني ضللتُ طريقي،" قال الحاج الصغير.

"هذا هو القصر الجميل، هل لي أن أقيم هنا الليلة؟" ابتسموا وقالوا: "يسعدنا أن منزلنا قد نال استحسانك."

"نعم، سنبقيكِ هنا بكل سرور، لعدة ليالٍ قادمة." قالت ماريان: "شكرًا لكم، ولكن عليّ قريبًا أن أبحث عن بيتي السماوي. وادي

ظـل المـوت قريـب مـن هـذا المنـزل، كمـا أعلـم." توقفـت، لأنهـا رأت، بدهشة كبيرة، دموعهم تنهمر.

لـم تكـن تتخيـل أن ثـوب الحـداد، الـذي ارتدتـه جميـع السـيدات، كـان لشـخص أحببنـه بشـدة، ولـن يرينـه علـى الأرض مـرة أخـرى. لقـد رحـل أخـوهن، ألمـع وأفضـل مـا لـديهن؛ فـلا عجـب إذن أن كلمـاتماريـان أيقظت الحزن في كل قلب.

لـم يُسـمع سـوى شـهقات قصـيرة؛ وفـي النهايـة قالـت السـيدات: "يـا عزيزتـي، لقـد ذكرتنـا بأحبائنـا الـذين رحلـوا مبكـراً؛ لكـن هـذا لـم يكـن بإمكانــكِ معرفتــه يــا عزيزتــي، وهــو صــحيح بالفعــل؛ فــنحن جميعــاً قريبون من باب الموت المظلم، حتى الفتيات الصغيرات مثلكِ".

"نعـم،" قالـت الطفلـة الخجولـة المرتجفـة، "أعلـم أنـه لا بـد مـن ذلـك؛ ولكـن يـا سـيدتي، آمـل أن تكـون التقـوى معـي عنـدما أرحـل. وهـل يمكنــكِ أن تريـنــي ترسـانتكِ، عنـدما يتـوفر لـديكِ وقـت فـراغ؟ آمـل أن يكـــون لـــديكِ بعـــض الأســـلحة الصـــغيرة بمـــا يكفـــي لترتـــديها فتـــاة صغيرة."

قالـت: "كفـى، لأن التقـوى، كمـا كانـت ماريـان تسـميها، ألقـت ذراعيهـا حـول عنـق الحـاج، لقـد انكشـف السـر أخيـرًا". قالـت التقـوى: "لقـد حيـرت الجميـع، ولكـن الآن، أرى أنـك قـرأت كتابًـا رائعًـا، والـذي، دون تفسير، قد أثار دهشتك".

"يـا عزيزتـي، عنـدما كنـت طفلـة، كنـت أحـب قصـة الحـاج تلـك؛ لكـن أمــي شــرحتها جيــداً - وإذا اســتطعنا إقنــاع عماتــك الطيبــات بالســماح لــكِ بالبقــاء معنــا لــبعض الوقــت يــا عزيزتــي، فســوف تقــرئين ذلــك الكتاب مع أمي، وستشرحه لكِ بوضوح."

والآن سـنعود إلـى منـزل ماريـان، ونـرى مـا يجـري هنـاك. كـان الخـدم جميعهم بصحبة، وكانوا مجموعة مرحة.

لـم يفتقـدوا حاجتنـا لفتـرة طويلـة، لأنهـم كـانوا يعلمـون أنهـا كانـت تلعـب كثيراً في تلك الحديقة القديمة، مع كتاب، طوال اليوم.

قالـــت مـــدبرة المنـــزل أخيـــرًا: "بيتـــي، أيـــن يمكـــن أن تكـــون الآنســـة ماريــان؟ لقـد كــان عشــاءها فــي الســلة، لكــن بالتأكيــد ســتأتي لتنــاول الشــاي!" بحثـوا عنهـا هنـا وهنـاك، لكـنهم لـم يتمكنـوا مـن العثـور علـى الطفلـة؛ وعنـدما عـادت عماتهـا المسـكينات إلـى المنـزل، كـنّ فـي حالـة من الحزن الشديد.

أُرسـل سـائق العربـة والخـادم أيضًـا، كـلٌّ فـي طريـق مختلـف؛ لكـن لـم يفكـر أحـد فـي الطريـق الضـيق الـذي سـلكه الحـاج. قالـت العمـة ريبيكـا

المسكينة: "ربما تبعتنا إلى المدينة، ليتنا لم نغادر منزلنا؛ أخشى أن تكون الطفلة قد ماتت".

وذهب سائق العربة إلى المدينة، لأنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون؛ وحلّ الليل، عندما أحضر صبي ريفي حذاء ماريان الصغير. وبيدها الحذاء، ركضت مدبرة المنزل إلى غرفة الجلوس قائلة: "يا سيدتي، هذا كل ما تبقى من الآنسة ماريان المسكينة".

"وُجدت عالقة في الوحل، فوق هارلم تشيس مباشرة؛ أخشى أن يكون الطفل المسكين قد هلك هناك، لأنه مكان مرعب." ثم ازداد حزن السيدات؛ ولكن سرعان ما انتعشت قلوبهن، عندما ظهر خادم كبير، يحمل رسالة في يده، من القاعة البعيدة.

قرأت العمة روث الرسالة الآن، وبكت قائلة: "يا أختي، كل شيء على ما يرام! الطفلة بأمان في قاعة بروكلاند، مع الليدي أروندل، التي تريد الاحتفاظ بها لمدة شهر؛ أجل، أعتقد أنها قد تفعل ذلك - فمثل هؤلاء الأصدقاء مثل الليدي أروندل لا نلتقي بهم كل يوم."

"نتقدم لها بأحر التحيات والشكر، وعندما تعود أيها الشاب، سنزورها غداً في القاعة، ونرى الآنسة ماريان." ثم انفجرت موجة من الفرح الممتن، لم يكن بالإمكان كبتها، وبقلوب شاكرة ودموع كثيرة، ذهبت السيدات للراحة.

سنلقي نظرة خاطفة على ماريان خاصتنا الآن، هناك ترقد في سريرها؛ كم كانت أحلامها سعيدة في تلك الليلة، بين ذراعي التقوى.

يا له من شهر سعيد في قاعة بروكلاند، كم مرّ سريعاً! كان أصدقاء ماريان مرحين وطيبين، ومن كان ألطف منهم؟

والأهم من ذلك كله، أنه خلال فترة إقامتها هناك، بذلوا قصارى جهدهم لإيصال تلك الطفلة الصغيرة إلى تلك الحظيرة المباركة حيث يسود الملك الراعي. فقد تعلمت ماريان الصغيرة دروسًا كثيرة لم تنسها أبدًا؛ وعادت إلى منزلها طفلةً حكيمةً وأكثر سعادة.

مرت السنون، وتغير المشهد، أصبحت ماريان زوجة وأماً، ووجدت بوابة ويكيت، هي وأطفالها أيضاً. ويا له من منظر جميل أن نرى هذه المجموعة الصغيرة من الحجاج، وهم يسيرون نحو منزلهم السماوي، يداً بيد. وعندما تحلّ عليهم الأيام الغائمة، يرون نوراً بعيداً، النور الذي أضاء سهل بيت لحم، نجم الحجاج الهادي.

والآن، أيها الأطفال الأعزاء، أينما كنتم، أو أينما كنتم، الذين تتأملون في هذه الحكاية الغريبة والحقيقية عن تاريخ ماريان،ـــ

إذا كانــت نــدى الإرشــاد موجهــة إلــى زهــور قلــوبكم الشــابة، فكونــوا جادين كما كانت مريم العذراء، لإيجاد الطريق إلى الجنة.

انتهت الترجمة كاملة

مصطفى القماش